

جيفري آرتشر

«لعله أفضل كتاب القصة والرواية المعاصرين»
صحيفة ميل أون ساندي



قط وتسعة كلاب

رسوم: رونالد سيرل

قط وتسعة كلاب

قط وتسعة كلاب

جيفري آرتشر

رسوم: رونالد سيرل



للتعرّف على فروعنا في
المملكة العربية السعودية ، قطر ، الكويت والإمارات العربية المتحدة
نرجوا زيارة موقعنا على الإنترنت
www.jarirbookstore.com
للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على :
jbpublications@jarirbookstore.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٨
حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

Copyright © Jeffrey Archer 2007.
English language edition published by Pan Books, an imprint of Pan
Macmillan Ltd. All rights reserved.

ARABIC language edition published by JARIR BOOKSTORE.
Copyright © 2008.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced or transmitted
in any form or by any means, electronical or mechanical, including
photocopying, recording or by any information storage retrieval system
without permission from JARIR BOOKSTORE.

المملكة العربية السعودية من: ب. ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧٨
تليفون: ٤٦٢٦٠٠٠ ١ ٩٦٦ - فاكس: ٤٦٥٦٣٦٣ ١ ٩٦٦

JEFFREY ARCHER

CAT O'NINE TALES

And Other Stories

Drawings by Ronald Searle

قط وتسعة كلاب

تصدرت أعمال "جيفرى آرشر"، من روايات وقصص قصيرة، من قبيل "Not A Penny More, Not A Penny Less"، و"Kane & Abel" و" A Twist in the Tale" - تصدرت قوائم أفضل المبيعات في أنحاء العالم، مع مبيعات تجاوزت ١٢٠ مليون نسخة.

خدم المؤلف لخمس أعوام في مجلس العموم البريطاني، وأربعة عشر عاماً في مجلس اللوردات، وقضى عامين في سجون جلاله الملكة، الأمر الذي تمخض عن سلسلة تتكون من ثلاثة كتب بعنوان "Prison Diaries". التي لاقت تقديراً عالياً.

أحدث رواياته "False Impression" بلغت المرتبة الأولى عالمياً في أفضل المبيعات، وبقيت على قوائم أفضل الكتب مبيعاً في المملكة المتحدة لأكثر من ثلاثة شهور، وهو يعمل حالياً على تحويلها إلى سيناريو سينمائي.

المؤلف متزوج ولديه ابنان، ويعيش بين لندن وكامبردج.

إلى إيزابيث

المحتويات

المقدمة ١٣

الرجل الذي سرق مكتب بريدية * ١٥

المايسترو * ٥٩

لا تشرب الماء * ٧٧

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة! * ١١٣

الملك الأحمر * ١٣٣

حكيم الزمان ١٦٩

أفهم مقصدي؟ * ١٨٩

الأقربون أولى بالمعروف * ٢٠٩

دليل نفي * ٢٤٣

مأساة يونانيته ٢٦١

المامور * ٢٧٥

عين المحب ٢٩٩

المقدمة

بينما كنت سجيناً لعامين، في خمسة سجون مختلفة، التقطت قصصاً متنوعة لم تكن ملائمة لتتضمنها يوميات السجن، التي كانت عبارة عن تسجيل لليوميات. تلك الحكايات عليها علامة النجمة في قائمة المحتويات.

وعلى الرغم من أن تلك القصص التسع تم تنقيحها وتنميقها؛ فإن لكل منها أصلاً من الواقع. كل القصص، عدا واحدة، طلب مني أصحابها ألا أكشف عن أسمائهم الحقيقية. والقصص الثلاث الأخرى في هذا الكتاب هي من الواقع أيضاً، ولكنني صادفتها بعد إطلاق سراحى من السجن: في أثينا "مأساة يونانية"، وفي لندن "حكيم الزمان"، وفي روما القصة المفضلة لدي "عين المحب".

الرجل الذي
سرق مَكْتَبَ
بَرِيدِهِ



البدائية

ألقى القاضى جراى نظرة متفحصة على المتهمين فى قفص الاتهام، وقد اعترف السيد كريس هاسكنز وزوجته السيدة سو هاسكنز بسرقة مبلغ ٢٥٠ ألف جنيه إسترلينى، يخص مكتب البريد، واعترفا أيضاً بتزوير أربعة جوازات سفر.

بدا السيد هاسكنز وزوجته فى العمر نفسه تقريباً، وهذا أمر متوقع تماماً؛ حيث إنهما كانا معاً فى نفس المدرسة قبل أربعين عاماً، ويمكن للمرء أن يمر بهما فى الشارع دون أن يلفتا نظره. كان طول كريس خمس أقدام وتسع بوصات، وقد بدأ شعره الداكن المموج يشيب، وكان زائد الوزن بمقدار ستة أو سبعة كيلوجرامات على الأقل. وقف منتصب القامة فى القفص، وبالرغم من ذلك فقد كانت حلته مهتمة، وقميصه نظيفاً ورباط عنقه المخطط يوحى بأنه عضو فى أحد النوادى، وحذاؤه الأسود لامعاً ونظيفاً. وقفت زوجته سو إلى جانبه، ثوبها الأنيق المنقوش بالزهور وحذاؤها الرقيق أشارا إلى أنها امرأة منظمة ومرتبّة، ولكنهما كانا يرتديان عندئذ الملابس التى يذهبان بها عادة إلى دار العبادة، وعلى كل حال، فقد اعتبرا المحكمة مكاناً لا يقل وقاراً عن دار العبادة.

أولى القاضى جراى انتباهه إلى محامى الزوجين هاسكنز، وهو شاب تم اختياره بهدف اقتصاد النفقات وليس لسعة خبرته. قال القاضى: "لا شك أنك تقترح أن يكون هناك مراعاة للظروف التى دفعت لارتكاب الجريمة فى هذه القضية يا سيد رودجرز".

البدائية

ألقى القاضى جراى نظرة متفحصة على المتهمين فى قفص الاتهام، وقد اعترف السيد كريس هاسكنز وزوجته السيدة سو هاسكنز بسرقة مبلغ ٢٥٠ ألف جنيه إسترلينى، يخص مكتب البريد، واعترفا أيضاً بتزوير أربعة جوازات سفر.

بدا السيد هاسكنز وزوجته فى العمر نفسه تقريباً، وهذا أمر متوقع تماماً؛ حيث إنهما كانا معاً فى نفس المدرسة قبل أربعين عاماً، ويمكن للمرء أن يمر بهما فى الشارع دون أن يلفتا نظره. كان طول كريس خمس أقدام وتسع بوصات، وقد بدأ شعره الداكن المموج يشيب، وكان زائد الوزن بمقدار ستة أو سبعة كيلوجرامات على الأقل. وقف منتصب القامة فى القفص، وبالرغم من ذلك فقد كانت حلته مهندمة، وقميصه نظيفاً ورباط عنقه المخطط يوحى بأنه عضو فى أحد النوادى، وحدائمه الأسود لامعاً ونظيفاً. وقفت زوجته سو إلى جانبه، ثوبها الأثيق المنقوش بالزهور وحدائمه الرقيق أشارا إلى أنها امرأة منظمة ومرتبة، ولكنهما كانا يرتديان عندئذ الملابس التى يذهبان بها عادة إلى دار العبادة، وعلى كل حال، فقد اعتبرا المحكمة مكاناً لا يقل وقاراً عن دار العبادة.

أولى القاضى جراى انتباهه إلى محامى الزوجين هاسكنز، وهو شاب تم اختياره بهدف اقتصاد النفقات وليس لسعة خبرته. قال القاضى: "لا شك أنك تقترح أن يكون هناك مراعاة للظروف التى دفعت لارتكاب الجريمة فى هذه القضية يا سيد رودجرز".

"نعم يا سيادة القاضى"، هكذا صرح المحامى حديث التخرج وهو يثب ناهضاً من مكانه. كان بوده أن يخبر القاضى أن هذه هى قضيته الثانية لا أكثر؛ لكنه شعر أن القاضى لن يعتبر هذا الظرف داعياً لتخفيف الحكم.

استرخى القاضى جراى فى جلسته وهو يتأهب لسماع كيف أن زوجة أب السيد هاسكنز كانت توسعه ضرباً دون رحمة، ليلة بعد أخرى، وكيف اغتصب عم شريبر السيدة هاسكنز وهى فى سن المراهقة، ولكن كلا؛ أكد السيد رودجرز للمحكمة أن الزوجين هاسكنز نشأ فى ظروف متوازنة وسعيدة، وكانا معاً فى المدرسة حقيقة الأمر، وأن ابنتها الوحيدة؛ تريسى، خريجة جامعة بريستول وتعمل وكيلة لبيع العقارات فى أشفورد. أى إنها أسرة نموذجية.

ألقي السيد رودجرز نظرة سريعة على مذكرة الدعوى قبل أن يمضى فى شرح كيف انتهى الأمر بالزوجين هاسكنز وراء قفص الاتهام فى ذلك الصباح، وصار القاضى جراى أكثر اهتماماً بحكايتهما، وحين عاد المحامى إلى مكانه شعر القاضى بأنه فى حاجة إلى المزيد من الوقت لكى يحدد طول فترة العقوبة. أمر المتهمين بأن يمثلوا أمامه يوم الاثنين التالى فى العاشرة صباحاً، وحتى ذلك الحين سيكون قد توصل إلى قرار. نهض السيد رودجرز مرة ثانية.

تساءل القاضى، رافعاً أحد حاجبيه قائلاً: "لا شك أنك ترجو أن أمنح موكلتك إطلاق سراح بكفالة يا سيد رودجرز؟ أليس كذلك؟"، وقبل أن يتمكن المحامى الشاب من الإجابة، قال القاضى: "موافق".

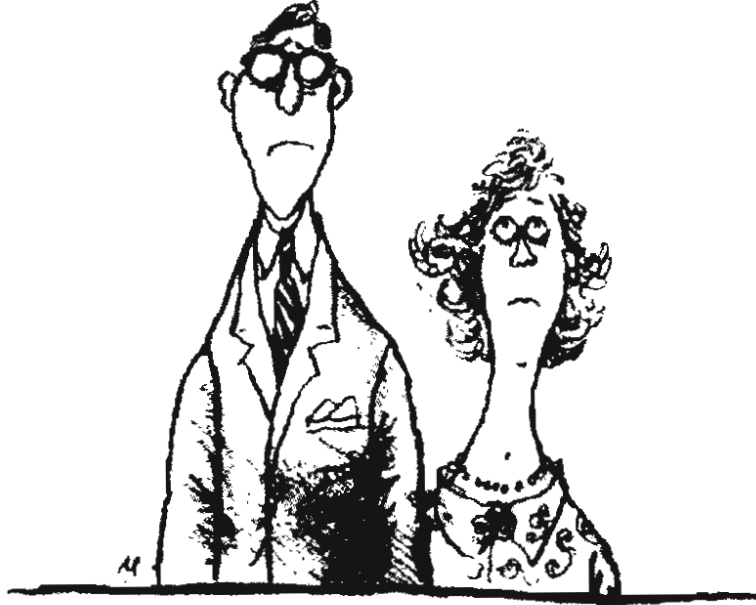
أخبر جاسبر جراى زوجته بشأن جرم السيد والسيدة هاسكنز أثناء تناول غداء يوم الأحد، وقبل أن ينتهى من تناول لحم الضأن، عرضت عليه زوجته فانيسا جراى رأيها.

الرجل الذي سرق مكتب بريد

" احكم عليهما بساعة واحدة من الخدمة العامة، ثم استصدر
أمراً من المحكمة لمكتب البريد أن يرد لهما مالهما كاملاً" هكذا
قالت، بطريقة تفصح عن بدهة لا يتميز بها الرجال على
الدوام. اتفق القاضي مع رأي زوجته ليكون عادلاً، ولكنه أخبرها
مع ذلك أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون عواقب.

سألته: " ولم لا ؟"

" بسبب جوازات السفر الأربعة".



لم يفاجأ القاضي جراى عندما وجد السيد والسيدة هاسكنز
واقفين فى تأهب بالقفص فى العاشرة من صباح اليوم التالى؛
فعلى كل حال، لم يكونا اثنين من المجرمين.

رفع القاضي رأسه، وهدق فيهما وهو يحاول أن يظهر
الغم والحزن: "لقد ثبتت إدانتكما بجريمة السرقة من
مكتب البريد وبجريمة تزوير جوازات سفر". لم يكتفِ بأن
يضيف أى صفات للجريمة من قبيل شريرة، أو مروعة، أو

حتى منافية للشرف: ذلك أنه لم ير هذه الصفات ملائمة للمناسبة. ثم أردف قائلاً: "وبالتالى لم تتركها لى أى خيار إلا أن أحكم عليكما بالسجن". ثم توجه القاضى بحديثه إلى السيد هاسكنز قائلاً: "لقد كنت بلا شك المحرض على هذه الجريمة، ونظراً لهذا أحكم عليك بثلاث سنوات سجنًا". لم يستطع كريس هاسكنز أن يخفى دهشته؛ فقد أئذره المحامى بالأ يتوقع أقل من خمس سنوات من السجن. منع كريس نفسه من أن يقول: شكراً لك يا سيدى.

ثم التفت القاضى نحو السيدة هاسكنز وقال: "أدرك أن دورك فى هذه المؤامرة لم يتعد واجب الإخلاص لزوجك. ومع ذلك، فأنت تدركين جيداً الفرق بين الصواب والخطأ، وبالتالي، فإننى أحكم عليك بالسجن لمدة عام".

اعترض كريس هاسكنز قائلاً: "سيادة القاضى".

قضب القاضى جراى جبينه للمرة الأولى؛ حيث لم يكن معتاداً على مقاطعته بينما يتلو حكماً، ثم قال: "سيد هاسكنز، إن كنت تنتوى أن تنقض حكمى —".

قاطع السيد هاسكنز القاضى مرة أخرى قائلاً: "بالمره يا سيدى القاضى. إننى أتساءل وحسب إن كان مسموحاً لى أن أقضى أنا فترة سجن زوجتى!".

أخذ القاضى بهذا المطلب على غرة؛ حيث إنه لم يستطع العثور على رد مناسب لسؤال لم يطرح عليه من قبل أبداً. قرع بمطرقتة الصغيرة، ونهض واقفاً وغادر قاعة المحكمة على جناح السرعة، وصاح الحاجب بسرعة: "فلينهض الجميع".

التقى كريس وسو لأول مرة فى ملعب مدرستهما الابتدائية فى كليثوريس، وهى بلدة ساحلية على الشاطئ الغربى لإنجلترا. كان كريس يقف فى الطابور منتظراً حصته المحدودة من الحليب وهو قرار حكومى بالنسبة لكل أطفال المدارس تحت

عمر السادسة عشرة. كانت سو هي مراقبة عملية توزيع الحليب. كانت مهمتها هي أن تتأكد من أن الجميع قد أخذوا حصتهم المضبوطة، وحين ناولت كريس زجاجته الصغيرة، لم يُولِ أحدهما الآخر أدنى اهتمام. كان صف سو يقع أعلى صف كريس؛ لذا فنادرًا ما صادف أحدهما الآخر خلال اليوم إلا عندما يقف كريس بطابور الحليب. في نهاية العام اجتازت سو امتحان التأهيل وتم نقلها إلى المدرسة الثانوية المحلية، واختير كريس ليكون متعهد توزيع الحليب الجديد. وفي شهر سبتمبر التالي اجتاز هو الآخر امتحان التأهيل، ولحق بسو في مدرسة بلدة كليثوربس الثانوية.

ظلا غاضبين عن بعضهما خلال أيام دراستهما حتى أصبحت سو مشرفة في صفها. وعندئذ، لم يكن بوسع كريس إلا أن ينتبه لها لأنها عند انتهاء طابور الصباح كانت تتلو ملاحظات وقرارات المدرسة الخاصة بهذا اليوم. وكلما ذكر اسم سو في محادثات الأولاد كانوا يصفونها بالزعيمة على سبيل السخرية (من الغريب أن النساء ذوات السلطة كثيرًا ما يكتسبن أسماء ساخرة من هذا القبيل، في حين أن الرجال على المستوى القيادي نفسه يكتسبون سمعة الحزم وسمات القيادة).

عندما غادرت سو المدرسة عند نهاية العام نسي كريس من جديد كل شيء يتعلق بها. لم يسر على أثر خطواتها الواثقة ولكنه أصبح الفتى الزعيم، فعلى الرغم من أنه أصاب نجاحًا بمعاييره الخاصة ولكنه كان بالنسبة له عامًا عاديًا بلا أحداث مميزة. اشترك في فريق المدرسة للكريكيت، وفازوا بالمركز الخامس في المنافسة بين المدن بعد أن هزموا فريق مدرسة جريمسبي الثانوية، وأبلى بلاء لا بأس به في الامتحان النهائي، لكن بما لا يستحق تقديرًا خاصًا.

ما إن غادر كريس المدرسة حتى تلقى رسالة من وزارة الدفاع، تأمره بالتوجه إلى مكتب التجنيد المحلي من أجل

غامر بأن يقول متلهفًا: "سو؟". لكن العريف سو سمارت رفعت عينيها عن أوراقها وحدقت في المجند الذي جرؤ على مخاطبتها باسمها الأول. تعرفت على الوجه، دون أن تعرف أين رآته سابقًا.

تطوع قائلاً: "أنا كريس هاسكنز".

قالت: "نعم، هاسكنز" ثم ترددت قبل أن تضيف: "توجه إلى الرقيب تراهيس بالمخازن، وسوف يطلعك على مهامك".
أجاب كريس: "أمرك يا سيادة العريف"، وسرعان ما اختفى باتجاه المخازن. بينما كان كريس يبتعد لم يلحظ أن سو بدأت توليه نظرة أخرى.

لم يلتق كريس بالعريف سو سمارت مرة ثانية حتى مغادرته الأولى لقضاء نهاية الأسبوع. رآها تجلس في الطرف الآخر من عربة القطار في رحلته عائداً إلى كليثرويس. لم يبادر بأية محاولة لينضم إليها، بل تظاهر بأنه لم يرها. ومع ذلك فقد وجد نفسه يتطلع نحوها بين الحين والآخر، معجباً بجسدها الرشيق - ولم يذكر أنه رآها بهذا الجمال قبل ذلك أبداً.

حين دخل القطار إلى محطة كليثرويس، رأى كريس أمه وهي تثرثر مع امرأة أخرى. وتعرف على تلك المرأة في الحال - فلديها الشعر الأحمر نفسه، والقدر الرشيق ذاته، و... وما إن لحق بأمه على الرصيف حتى قدمت السيدة سمارت والدة سو التحية له قائلة: "مرحباً يا كريس، هل كانت سو على متن القطار معك؟".

قال كريس وهو يلح سو تقترب منهما: "الم أنثبه".
فقالت أم كريس: "لقد توقعت أن تريا بعضكما البعض كثيراً بعد أن صرتما الآن في المعسكر نفسه".
قالت سو وهي تحاول أن تبدو غير مبالية: "كلا، ليس تماماً".

الخدمة الوطنية لفترة سنتين إلزاميتين على جميع الشباب فى سن الثامنة عشرة، عندما كان عليهم الخدمة فى القوات المسلحة. كان على كريس أن يختار فقط ما بين الجيش، والأسطول الملكى أو القوات الجوية الملكية.

اختار القوات الجوية، بل وقضى لحظة يتخيل ما قد يكون عليه الأمر لو أنه أصبح طياراً حربياً. وبعد أن اجتاز كريس مباشرة الفحص الطبى وملاً كل الأوراق الرسمية الضرورية فى مكتب التجنيد المحلى، أعطاه الرقيب المسئول بطاقة ليستقل القطار إلى مكان ما يدعى مايلثروب؛ كان عليه أن يكون بالثكنة عند الثامنة من صباح أول أيام الشهر التالى.

أمضى كريس الاثنى عشر أسبوعاً التالىة تحت التدريب الأساسى، جنباً إلى جنب، مع مائة وعشرين من المجندين الجدد. وسرعان ما اكتشف أن واحداً فقط من المجندين من بين كل ألف سيتم اختياره طياراً حربياً. وكريس لم يكن هذا الواحد من الألف. وعند نهاية الاثنى عشر أسبوعاً تم تخييره بين العمل بالمقصف، أو قاعة الطعام الخاصة بالضباط، أو فى مخازن المقر الرئيسى لعمليات الطيران، واختار عمليات الطيران، فوضعه فى وظيفة بالمخازن.

وعندما تسلم واجباته يوم الاثنى التالى التقى من جديد بسو، ولكى تكون أكثر دقة فقد التقى بالعريف سو سمارت. كانت، ولا شك، تقف على رأس الصف؛ ولكن هذه المرة تقوم بتوزيع تعليمات المهام. لم يتعرف عليها كريس للوهلة الأولى، وقد ارتدت زيتها الرسمى الأزرق الأنيق ويكاد شعرها يختفى تماماً تحت غطاء الرأس. على أى حال، كان معجباً بساقيها الملفوفتين عندما قالت: "هاسكنز، التحق بمخازن المقر الرئيسى". رفع كريس رأسه، كان هذا هو الصوت الذى لا يمكنه أن ينساه أبداً.

الرجل الذى سرق مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

افترق كلاهما عند بوابات المعسكر ومضيا فى طريقين منفصلين. سار كريس عائداً إلى مبانى المبيت، فى حين توجهت سو إلى مقر ضباط الصف. حين دخل كريس مبنى المبيت لكى يلحق برفاقه المجندين، كان واحداً منهم يتباهى بسلاح الطيران الذى فصل منه؛ بل إنه راح يقدم لهم وصفاً تفصيلياً لسراويل سلاح القوات الجوية؛ حيث إنها "مصنوعة بقماش داكن من اللون الأزرق ممسوكة بمطاط سميك" هكذا أكد لمن يستمعون إليه بنظرة مسحورة. رقد كريس على فراشه وتوقف عن الاستماع إلى الحكاية التى لا تروق له، بينما شرد بأفكاره إلى سو. وتساءل كم من الوقت سيمضى قبل أن يتسنى له أن يراها من جديد.

ثم يطل انتظار كريس كما كان يخشى؛ لأنه حين دخل إلى المقصف لتناول الغداء فى اليوم التالى رأى سو جالسة فى الركن مع مجموعة من الفتيات من غرفة العمليات. أراد أن يتوجه إلى مائدتها ويطلب منها ببساطة موعداً للخروج معا كما يفعل النجم دافيد نايفن فى أحد أفلامه. كان هناك فيلم للنجمة دوريس داى يعرض بسينما أوديون ورأى أنها قد تستمتع به، لكن الأسهل عليه أن يخطو فى حقل ألغام من أن يقتحم مجلسها بينما يرى ذلك زملاؤه.

اختار كريس وجبة غدائه من على المنضدة؛ سلطانية من حساء الخضراوات، نقانق وبطاطس مقلية، وفطيرة بالكسترد. حمل الصينية نحو مائدة فى الجانب الآخر من الغرفة وانضم إلى مجموعة من رفاقه المجندين الجدد. كان يتناول فطيرة الكسترد، بينما يناقش فرص فوز فريق جريمسبى أمام فريق بلاكبول، حين شعر بيد تلمس كتفه. التفت فرأى سو واقفة خلفه وهى تبتسم. توقف رفاقؤه على المائدة عن حديثهم. اكتسى وجه كريس بالحمرة.

قالت السيدة هاسكنز: "حسنًا، من الأفضل أن نطلق؛ فعلى أن أقدم العشاء لكريس ووالده قبل أن يذهب لمشاهدة مباراة كرة القدم".

بعد أن ابتعد كريس وأمه نحو باب الخروج سألت السيدة سمارت ابنتها سو قائلة: "هل تتذكرينه؟".
ترددت سو وقالت: "هاسكنز المختال؟ لا أظن أنى أتذكره".
فقالت أمها مبتسمة: "أوه، إنه يروق لك حقًا، أليس كذلك؟".

عندما صار كريس على متن القطار فى مساء يوم الأحد ذلك، كانت سو تجلس فى نهاية العربة. كان كريس على وشك أن يمضى من جانبها مباشرة ليجد لنفسه مقعدًا فى العربة التالية حين سمعها تقول: "مرحبًا يا كريس، هل قضيت إجازة طيبة؟".

قال كريس: "لا بأس بها، سيادة العريف"، وتوقف لينظر نحوها، وأكمل: "لقد هزم فريق جريمسبى فريق لنتكولن ثلاثة إلى واحد، وأنا كنت قد تسييت المذاق الطيب لوجبة السمك ورقائق البطاطس فى كليثوريس مقارنة بطعام المعسكر".
ابتسمت سو قائلة: "لم لا تنضم إلى"، هكذا قالت، وهى تربت على المقعد المجاور لها، ثم أردفت: "وأعتقد أنه لا بأس فى أن تناديني سو حينما نكون خارج الثكنات".

خلال رحلة العودة إلى مابلثورب، كان أغلب الحديث من نصيب سو، أولاً لأن كريس كان شديد الاندهاش بها أيعقل أن تكون هذه هى نفسها الفتاة الصغيرة شديدة النحافة التى كانت تناوله الحليب كل صباح؟ وثانياً لأنه أدرك أنه سيضطر للتوقف عن الحديث لحظة أن يضا أقدامهما فى المعسكر من جديد. فلا يجب أن يخالط ضباط الصف المجندين العاديين.

تساءلت سو: "هل ترتبط بأى موعد مساء السبت؟". تحول اللون الأحمر لوجه كريس إلى القرمزى بينما هز رأسه نقياً. قالت: "كنت أفكر فى الذهاب لمشاهدة فيلم كالاماتى جاين". توقفت ثم أردفت: "هل تهتم بالذهاب معى؟". أوما كريس موافقاً ثم أردفت هى: "لم لا نلتقى أمام بوابات المعسكر فى السادسة؟". صدرت عن كريس إيماءة موافقة أخرى ثم قال: "إذن أراك حينها". استدار كريس ليجد أصدقاءه يحدقون فيه بإجلال.

لم يتذكر كريس الشىء الكثير من الفيلم لأنه أمضى أغلب وقته فى محاولة استجماع شجاعته بما يكفى ليضع ذراعه حول كتفى سو. ولم يفلح فى القيام بذلك حتى عندما قام هوارد كيل بتقبيل دوريس داى. وبالرغم من ذلك، فبعد أن غادرا السينما وسارا عائدين لانتظار الأتوبيس، تناولت سو يده.

"ماذا ستفعل عندما تنتهى من تأدية الخدمة؟" هكذا سألته سو بينما يحملهما الأتوبيس الأخير إلى المعسكر. "أظن أنتى سألحق بوالدى فى العمل على خطوط الأتوبيس، وأنت؟".

"بعد أن أخدم لثلاثة أعوام سيكون على أن أقرر ما إذا كنت أريد أن أصير ضابطاً وأن أتخذ من العمل بالقوات الجوية مهنة دائمة".

نجح كريس فى أن يتلفظ قائلاً بسرعة: "أتمنى أن تعودى للعمل فى كليثوريس".

تزوج كريس وسو هاسكنز بعد ذلك بعام فى سانت آيدان. بعد الزفاف، انطلق العروسان إلى نيوهايفين فى سيارة مستأجرة؛ لقضاء شهر العسل على الشاطئ الجنوبى للبرتغال. وما هى إلا أيام قليلة على شاطئ الجراف حتى

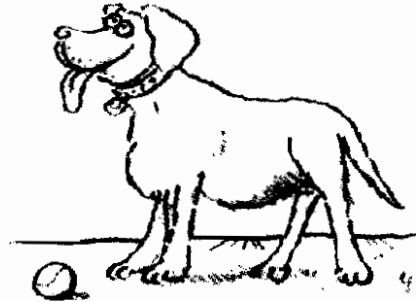
الرجل الذي سرق مكتب بريده

نضدت منهما التقود. وقاد كريس السيارة بهما عائدين إلى كليثوريس، لكنه تعهد أنهما سيعودان إلى ألبوفيرا بمجرد أن يستطيع تحمل نفقة ذلك.

بدأ كريس وسو حياتهما الزوجية باستئجار ثلاث غرف في الدور الأرضي بمبنى شبه منفصل بطريق جوبيل. كان المسئولان السابقان عن الحليب بالمدرسة غير قادرين الآن على إخفاء سعادتهما عن أعين أي شخص يعرفهما.

لحق كريس بأبيه في العمل على خطوط الأتوبيس وصار محصلاً بشركة جرين لاين مونيسيپال كوتش، في حين عملت سو كمتدربة بشركة تأمين محلية. بعد ذلك بعام وضعت وتركت وظيفتها لترعى هذه الطفلة؛ مما دفع كريس ليكده أكثر في عمله ويسعى للحصول على ترقية. وبإيعاز مستمر من سو، بدأ كريس يذاكر ليخوض امتحان الترقية. بعد ذلك بأربعة أعوام رقى كريس ليصبح مفتشاً، وصارت أحوال أسرة هاسكنز مباشرة بكل الخير.

عندما أخبرت تريسي والدها أنها ترغب في مهر صغير ليكون هدية العام الجديد، اضطر إلى أن يوضح أنهم لا يملكون مساحة كافية في منزلهما لذلك. وصل كريس لحل وسط، ففى عيد ميلاد تريسي السابع أهداها جرواً من نوع لابرادور، وأسموه كورب. لم تكن أسرة هاسكنز ترغب في أي



شيء، وهكذا كانت ستنتهي هذه الحكاية لو لم يتم الاستغناء عن كريس في عمله، لكن هذا هو ما كان.

استحوذت شركة هول كاريج باص على شركة جرين لاين مونيسيپال كوتش. ومع دمج الشركتين، صار فقدان الوظائف لا مناص منه، واعتبر كريس واحداً من هؤلاء الزائدين عن الحاجة. والبديل الوحيد الذي توصلت له الإدارة هو إعادة توظيف كريس في وظيفة محصل، لكن ترفع كريس عن العرض بكل شمم وكبرياء. شعر بثقة شديدة في عثوره على عمل آخر، وبالتالي قبل التقاعد من الشركة.

لم يمض وقت طويل قبل أن تنتهي نقود مكافأة التقاعد، وبالرغم من وعد تيد هيث بعالم جديد متفائل، سرعان ما اكتشف كريس أن العثور على وظيفة بديلة لم يكن بهذه السهولة في كليثوريس. لم تبدر عن سوى شكوى، وبما أن تريسى قد صارت تقضى يومها الآن بالمدرسة، فقد حصلت سو على عمل بدوام جزئى فى مطعم بارسونز المحلى لوجبات السمك والبطاطس المقلية. أمنت لهم هذه الوظيفة راتباً أسبوعياً ثابتاً، مضافاً إليه الإكراميات. ليس هذا وحسب، بل وسمحت لـ كريس أن يتمتع بطبق كبير من سمك البكلاه ورقائق البطاطس المقلية كل يوم وقت الغداء.

واصل كريس محاولاته للعثور على وظيفة. كان يزور مكتب التوظيف كل صباح، عدا صباح الجمعة؛ حيث يقف فى طابور طويل، بانتظار الحصول على المبلغ الهزيل لإعانة البطالة. وبعد اثنى عشر شهراً من لقاءات طلب العمل المخففة، ومن عبارة (نأسف لأنك لا تبدو لنا بالمؤهلات المطلوبة للوظيفة)، بلغ كريس من التوتر درجة جعلته يفكر بجدية فى استعادة وظيفته القديمة كمحصل فى إحدى حافلات النقل. أكدت له سو أنه بعد وقت قصير سرعان ما ستتم ترقيته من جديد كمفتش.

الرجل الذى سرق مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

فى هذه الأثناء، تقلدت سو مسئوليات أهم فى المطعم، وبعدها بعام صارت مساعدة المدير. ومرة أخرى، كان يمكن لهذه الحكاية أن تنتهى هنا، غير أن سو هذه المرة هى من قدمت ملاحظتها.

أثناء تناولهما عشاء من السمك حذرت كريس من أن السيد بارسونز وحرمة يفكران فى التقاعد المبكر ويخططان لعرض المطعم للبيع.

قال لها: "ما المبلغ الذى يتوقعانه من البيع؟"
قالت: "سمعت السيد بارسونز يذكر رقم خمسة آلاف جنيه".

قال كريس، وهو يلتقط بالشوكة قطعة بطاطس: "إذن لنأمل أن الملاك الجدد سيعرفون كيف يديرونه."
"الأغلب أن الملاك الجدد سوف يأتون بطاقم عمل جديد. لا تنس ما جرى لك عند بيع شركة الأتوبيسات لشركة أخرى".
راح كريس يفكر بالأمر.

فى الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى. غادرت سو المنزل لكى تصحب تريسى إلى المدرسة، قبل التوجه لعملها. وما إن غادرت الاثنتان المنزل، حتى خرج كريس بالكلب كورب للانطلاق فى جولتهما الصباحية المعتادة. وتحير الكلب عندما لم يتجه سيده نحو الشاطئ؛ حيث يمكن له أن يستمتع بفترة من المرح والنشاط قرب الأمواج، ولكن بدلاً من ذلك سار بالاتجاه المقابل، وانتهى به إلى أن قيده فى سياج أمام بنك مدلاند فى هاى ستريت.

لم يستطع مدير البنك أن يخفى دهشته عندما طلب السيد هاسكنز مقابلته لمناقشة مشروع استثمارى. وراجع على عجل حساب السيد هاسكنز وزوجته، فوجد أن رصيدهما سبعة عشر جنيهاً واثنًا عشر شلناً. وسرّه أنهما لم يتجاوزا حدود السحب

أبدًا، بالرغم من بطالة السيد هاسكنز لأكثر من عام. استمع المدير فى تعاطف لعميله المحتمل، لكنه هز رأسه بالرفض فى أسف حتى قبل أن يتم كريس عرضه الذى تدرب عليه جيدًا.

شرح له المدير قائلاً: " لا يمكن للبنك أن يقدم على مجازفة كتلك، على الأقل أنه ليس لديكما إلا أقل القليل من الضمانات لتأمين السداد. حتى منزلكما ليس ملكًا لكما". شكره كريس، وصافحه وغادر بجسارة.

عبر شارع هاى ستريت، قيد كورب إلى سياج آخر ودخل بنك مارتينز. كان على كريس أن ينتظر لوقت طويل قبل أن يكون بمقدور المدير أن يراه. وقوبل بالرد نفسه، لكن على الأقل فى هذه المرة نصحه المدير بأنه يستطيع أن يتوجه إلى شركة بريطانيا فاينينس، وهى كما أوضح له شركة جديدة مختصة بتقديم قروض تأسيس المشروعات الصغيرة. شكره كريس، وغادر البنك، وفك وثاق كورب وهرع عائداً إلى طريق جوبيل، وقد سبق بدقائق عودة سو ومعها غداؤه: سمك البكلاله ورقائق البطاطس.

بعد الغداء، غادر كريس المنزل وقصد أقرب كابينة هاتف. وضع أربعة بنسات فى الصندوق وضغط الزر "أ". لم تستغرق المكالمة أكثر من دقيقة. عاد بعدها للمنزل، لكنه لم يخبر سو بأنه لديه موعد فى الصباح التالى.

فى اليوم التالى، انتظر كريس حتى تغادر سو المنزل بصحبة تريسى قبل أن يسرع للدور العلوى ويدخل غرفة نومهما. خلع سرواله الجينز وقميصه القطنى، ولبس بدلاً منهما الحلة التى لم يلبسها منذ الزفاف، مع قميص كريمى اللون لا يلبسه إلا عند ذهابه لدار العبادة، ورابطة عنق أهدتها له حماته فى رأس السنة، والتى اعتقد أنه لن يضعها أبداً حول رقبته. ثم لمع حذاءه بحيث صار من الممكن لرقبيه أيام الجيش أن يوافق على

الرجل الذى سرق مكتب بريده

لياقته ليمر بموكب الاستعراض. تفحص صورته فى المرآة،
أملاً أن يبدو مثل مدير محتمل لمشروع تجارى. ترك الكلب
فى الحديقة الخلفية للمبنى، وتوجه للبلدة.

وصل كريس مبكراً عن مواعده بربع ساعة؛ حيث كان
سيقابل السيد ترماين؛ مدير القروض بشركة بريطانیا
فاينينس. طلب منه أن يستريح بغرفة الانتظار. تناول كريس
نسخة من صحيفة المال والاستثمار لأول مرة فى حياته. لم
يعثر بها على أية صفحات رياضية. بعد ربع ساعة قادته إحدى
السكرتيرات إلى مكتب السيد ترماين.

استمع المدير التنفيذى للقروض بكل تعاطف إلى العرض
الطموح لـ كريس، ثم تساءل، تماماً كما فعل الاثنان الآخران:
"ما هى الضمانات التى تمتلكها؟"

أجاب كريس دون خداع: " لا شيء. عدا، حقيقة أننى
وزوجتى سوف نعمل طوال ساعات يقظتنا، وأنها بالفعل تعرف
كل شيء يتعلق بالعمل". انتظر كريس سماع الأسباب العديدة
التي بسببها لا يمكن للشركة أن تستجيب لطلبه.

ولكن بدلاً من ذلك سأله السيد ترماين: " بما أن زوجتك
ستسهم بمقدار النصف فى استثمارنا، فما رأيها فى الأمر
ككل؟"

اندفع كريس قائلاً: " إننى حتى لم أناقشه معها بعد".
فقال السيد ترماين: " إذن فإننى أقترح عليك أن تفعل
ذلك، وبسرعة؛ لأنه قبل أن نقدّر استثمارنا مع السيد هاسكنز
وزوجته، سيكون علينا أن نلتقى بالسيدة هاسكنز، من أجل أن
نتبين إن كانت تبلغ نصف ما تدعيه من المهارة".

أعلن كريس الأنباء لزوجته مساء على العشاء. لم تنبس سو
بكلمة، وهى مشكلة لم يتعرض لها كريس كثيراً فيما سبق.

ما إن التقى السيد ترماين بالسيدة هاسكنز لم يكن عليهما
فعل شيء سوى ملء عدد لا نهاية له من الأوراق والنماذج قبل

أن تدفع شركة بريطانيا فايننس لهما قرصاً بمبلغ خمسة آلاف جنيه. بعد ذلك بشهر انتقل السيد هاسكنز وزوجته من بيتهما فى طريق جوبييل إلى مطعم السمك والبطاطس فى بيتش ستريت.

المنتصف

أمضى كريس وسو يوم الأحد الأول يمحوان اسم يارسونز من واجهة المتجر، ويكتبان هاسكنز: تحت إدارة جديدة. وسرعان ما شرعت سو فى تعليم كريس كيف يعد المقادير المضبوطة لصنع أفضل عجين، وظلت تذكره بأنه لو كان هذا أمراً سهلاً لما وقف الزبائن طابوراً أمام أحد المتاجر بينما يبقى منافس آخر بلا زبائن على بعد ياردات قليلة. مرت بضعة أسابيع قبل أن يتمكن كريس من صنع رقائق بطاطس مقرمشة، ولكن ليست صلبة، أو يحدث ما هو أسوأ فتكون نديّة. وبينما صار هو مدير الواجهة الأمامية: يلف السمك ويرش الملح والخل، فإن سو قد اتخذت مجلسها من وراء درج النقود وجمع الربيع. فى المساء، كانت تحرص سو دائماً على الانتهاء من دفاتر الحساب أولاً فأولاً، ولم تكن تلحق بكريس فى شقتهم الصغيرة إلا بعد أن يصير المتجر نظيفاً ويمكن للمرء أن يرى صورة وجهه فى النضد الأمامية.

كانت سو دائماً هى آخر من ينتهى من العمل: غير أن كريس كان أول من يستيقظ فى الصباح. كان ينهض فى الرابعة صباحاً، يرتدى حلة تريض ثقيلة ويتوجه نحو الميناء مع كورب، ثم يعود بعد ساعتين وقد انتقى أفضل سمك بكلاه، وسمك القد والسمك المبسط، بعد لحظات من وصول سفن

الرجل الذى سرق مكتب بريده

الصيد الصغيرة للمرفأ مع رزق الصباح.

وبالرغم من أن كليثوريس كان يوجد بها متاجر عديدة لتقديم وجبات السمك والبطاطس المقلية؛ فلم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ طابور الزبائن فى التراكم أمام متجر هاسكنز، وأحياناً قبل حتى أن تدير سو لافتة "مغلق" لتسمح بدخول أول الزبائن إلى المتجر. ولم يتراخ هذا الطابور أو يتباطأ أبداً ما بين الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر، أو من الخامسة إلى التاسعة مساءً، حين يتم إدارة اللافتة أخيراً - ولكن فقط بعد تقديم الخدمة لآخر الزبائن.

عند نهاية عامهما الأول بلغ ربح الزوجين هاسكنز ما يتجاوز تسعمائة جنيه. وكما طالبت الطوابير تناقص دينهم لشركة بريطانيا فاينينس؛ بحيث أصبح بمقدورهما أن يسددا القرض كاملاً، قبل انتهاء الأعوام الخمسة لفترة السداد بثمانية أشهر.

خلال الأعوام العشرة التالية، غزت سمعة متجر هاسكنز كل الجهات أرضاً وكذلك بحراً؛ مما نتج عنه دعوة كريس لعضوية نادى الروتارى بكليثوريس، وصارت سو نائبة رئيسة اتحاد الأمهات.

فى ذكرى زواجهما العشرين عاد كريس وسو إلى البرتغال من أجل شهر غسل آخر. أقاما فى فندق أربع نجوم لمدة أسبوعين، وهذه المرة لم يضطرا للعودة إلى البيت مبكراً. كان السيد هاسكنز وزوجته يزوران ألبوفيرا فى كل صيف على مدار الأعوام العشرة التالية، فعندما كانا يعتادان شيئاً لا يتوقضان عن فعله.

غادرت ابنتهما تريسى مدرسة كليثوريس الثانوية للالتحاق بجامعة بريستول؛ حيث درست إدارة الأعمال. كان الحدث المؤسف الوحيد فى حياتهم هو وفاة كلبهم كورب، لكنه

كان يبلغ من العمر حينها أربعة عشر عاماً.

كان كريس يستمتع بمشروبه مع بعض رفاقه فى نادى الروتارى عندما أخبره ديف كوينتن، مدير أفخم مكتب بريد بالمدينة، أنه سوف ينتقل إلى ليك دستريكت ويخطط لبيع استثماره فى هذا المشروع.

فى هذه المرة راعى كريس أن يناقش أحدث نواياه مع زوجته. أخذت سو مرة أخرى على حين غرة، وعندما انتهت من المفاجأة، طرحت عدة أسئلة وسمعت جوابها قبل أن تذهب معه لزيارة شركة بريطانيا فايننس.

سألها السيد ترمين، والذى ترقى مؤخراً إلى منصب مدير القروض: "كم يبلغ رصيدكما فى بنك ميدلاند؟"
فحصت سو دفتر حساباتها، وأجابت: "سبعة وثلاثين ألفاً، وأربعمائة وثمانية جنيهات".

كان سؤاله التالى: "وبكم تقدران قيمة متجركما للسّمك والبطاطس المقلية؟"

قالت سو فى ثقة: "نتوقع أن نفكر فى عروض لبيعه بقيمة تزيد عن مائة ألف جنيه".

"وبكم تقدر قيمة مكتب البريد، مع النظر لموقعه البارز والمهم؟"

"يقول السيد كوينتن إن مكتب البريد يقدر بمائتين وسبعين ألفاً، لكنه يؤكد لى أن المبلغ سيستقر على ربع المليون، إذا أمكنهم أن يجدوا المشتري المناسب".

قال المحلل، دون حاجة للرجوع إلى أى دفتر حسابات: "وعلى هذا فإن العجز لديكم يتجاوز المائة ألفاً"، ثم سكت وأردف: "كم بلغ ربح مكتب البريد للعام السابق؟"

أجابت سو: "مائتين وثلاثين ألفاً من الجنيهات".

الرجل الذي سرق مكتب بريده

قال لها: "ريح صاف؟".

ومن جديد، احتاجت سو أن تحسب على أصابعها. قالت: "ستة وعشرون ألفاً، لكن هذا لا يشمل الفائدة المضافة للشقة السكنية الواسعة الملحقة به، مع تغطية الضرائب والعوائد في الريح السنوي". سكتت ثم أردفت قائلة: "وهذه المرة سوف نملك العقار".

قال السيد ترماين: "إذا صدق محاسبونا على كل تلك الأرقام، وإذا كان بمقدوركما بيع متجر السمك والبطاطس بحوالي مائة ألف، فيبدو لي هذا استثماراً لا غبار عليه. ولكن...". بدا التخوف على العميلين مما بعد "لكن". "ودائماً ما تكون هناك لكن، عندما يتعلق الأمر بإقراض المال. سيكون القرض، بالطبع، سارياً مادام مكتب البريد يحافظ على تقييمه كعقار من الدرجة "أ". إن المباني والعقارات في تلك المنطقة تباع حالياً بحوالي عشرين ألفاً، وعلى هذا فإن القيمة الفعلية لمكتب البريد كاستثمار، وأكررها، تبقى ما بقي محتفظاً بتقييمه كعقار من الدرجة "أ"".

قال كريس: "ولكنه كان مصنفاً باعتباره مكتب بريد من الدرجة "أ" على مدار الثلاثين عاماً الماضية؛ فلم قد يتغير هذا في المستقبل؟".

أجابه المحلل: "إذا كان بمقدوري أن أتنبأ بالمستقبل يا سيد هاسكنز فلن أختار أبداً استثماراً خاسراً، ولكن لأنني لا أستطيع ذلك فعلى أن أخاطر. شركة بريطانيا تستثمر في الأشخاص، وفي هذا الصدد ليس لديكما ما تثبتانه". ابتسم وأكمل: "نحن نتوقع، كما كان عليه الأمر في القرض الأول، أن يتم تسديد القرض على أقساط أربعة، خلال فترة خمسة أعوام؛ وفي هذه الحالة، حين يكون المبلغ كبيراً هكذا، سوف ترغب في أخذ نسبة من مكسب الملكية".

تساءل كريس: "كم هذه النسبة؟".

جيفر

"ثمانية ونصف فى المائة، مع العقوبات المضافة إن لم يتم تسديد الأقساط فى المواعيد المحددة".
قالت سو: "سيكون علينا التفكير فى عرضكم ملياً، وسوف نبلفك بقرارنا ما إن نتوصل لقرار".
ابتسم السيد ترمين ابتسامة مصطنعة.

فيما كانا عائدتين بسرعة نحو الميناء، على أمل أن يفتح المتجر فى الوقت المناسب قبل وصول أول زبائنهما، سألت سو: "ما مغزى كل هذا الكلام حول الدرجة "أ"؟".
قال كريس: "الدرجة "أ" هى حيث توجد كل الأرباح، وحسابات الادخار، والمعاشات، وطلبات البريد، وضرائب السيارات وحتى السندات الممتازة التى تكفل لك ربحاً جيداً. وبدونها، عليك أن تعتمدى على تراخيص التلفزيون، والطوابع، وفواتير الكهرباء، وربما دخل قليل إضافى إذا سمحوا لك بإدارة متجر إلى جانب هذا. إذا كان هذا كل ما يمكن للسيد كوينتن أن يقدمه فعل من الأفضل لنا أن نستمر فى إدارة متجر السمك والبطاطس".
تساءلت سو: "هل هناك احتمال أن نفقد الدرجة "أ" الخاصة بنا؟".

قال كريس: "مطلقاً، أو ذلك ما أكده لى مدير مكتب البلدية، وهو عضو وصديق فى نادى الروتارى. قال لى إن هذا الأمر لم يخضع للمناقشة أبداً فى المقر، ويمكنك أن تكونى واثقة تماماً من أن شركة بريطانيا فايننس سوف تتأكد من أننا لن نفقد الدرجة "أ" قبل أن تكون مستعدة للإسهام بمائة ألف".

"إذن فمازلت ترى أن نمضى فى هذا؟".

قال كريس: "مع بعض التعديلات على شروطهم".

"مثل ماذا؟".

الرجل الذى سرق مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

"حسنًا، فى البداية، ليس لدى شك فى أن السيد ترمين سوف يخفض النسبة إلى ثمانية فى المائة، فالآن، قد بدأ بنك هاى ستريت هو أيضا يستثمر فى المشروعات التجارية، ولا تنسى أنه فى هذه المرة سيكون مسئولاً عن العقار".

باع الزوجان هاسكنز متجرهما للسّمك والبطاطس بمبلغ ١١٢ ألف جنيه، وقد أضافا إليه مبلغ ٣٨ ألفاً من رصيدهما الائتماني، وأضافت شركة بريطانيا على ذلك قرضاً بمبلغ مائة ألف بفائدة تبلغ نسبتها ٨ فى المائة، وأرسل شيكاً بمبلغ ٢٥٠ ألفاً إلى مقر مكتب البريد فى لندن.

أعلن كريس: "حان وقت الاحتفال".

سألته سو: "ماذا يدور ببالك؟ لأننا لا نستطيع تحمل إنفاق المزيد من المال".

قال: "لنقد السيارة حتى أشفورد ونقضى نهاية الأسبوع مع ابنتنا... "توقف قليلاً ثم أردف: "وفى طريق عودتنا...." كررت سو: "وفى طريق عودتنا؟".

"فلنمر بمتجر باتريسا للكلاب".

بعد ذلك بشهر، انتقل كل من السيد هاسكنز وزوجته، ومعهما ستامب، كلب آخر من نوع اللابرادو، ولكنه أسود هذه المرة، من متجر السمك والبطاطس فى بيتش ستريت إلى مكتب البريد من الدرجة "أ" فى فيكتوريا كريست.

عاد كريس وسو بسرعة إلى العمل لفترات طويلة لم يقضياها من قبل منذ افتتاحها لأول مرة متجرهما للسّمك والبطاطس، وعلى مدار الأعوام الخمسة التالية لم ينفقا أموالهما على شيء غير الضروريات؛ حتى إنهما توقفا عن الخروج فى الإجازات، بالرغم من أنهما كثيراً ما فكرا فى القيام برحلة أخرى إلى البرتغال، لكن ذلك كان ينبغى تأجيله حتى يكمل مدفوعاتهما إلى شركة بريطانيا. واصل كريس الاضطلاع

بواجباته فى نادى الروتارى، فى حين صارت سو هى رئيسة فرع اتحاد الأمهات لبلدة كليثوريس. ورقبت تريسى إلى مديرة موقع، وكان ستامب يأكل أكثر مما يأكله الثلاثة مجتمعين. فى عامهما الرابع، فاز السيد هاسكنز وزوجته بجائزة "مكتب بريد العام" وبعدها بتسعة أشهر سددا القسط الأخير لشركة بريطانيا.

دعا مجلس إدارة شركة بريطانيا كريس وسو على الغداء فى فندق رويال للاحتفال بحقيقة أنهما الآن مالكا مكتب البريد بدون أن يكون عليهما بنس واحد من الديون. قال لهم كريس مذكراً: "مازال علينا أن نستعيد المبلغ الأصلي للاستثمار. لا أكثر من مائتى وخمسين ألف جنيه". اقترح رئيس مجلس إدارة الشركة قائلاً: "لو واصلتما التقدم على المنوال الحالى فلا بد أن الأمر سيقضى منكما خمسة أعوام أخرى لتحقيق ذلك وتستطيعان الاعتماد على استثمار قيمته تفوق المليون".

تساءل كريس: "هل معنى ذلك أننا من أصحاب الملايين؟". تدخلت سو قائلة: "كلا، ليس صحيحاً. إن حسابنا الحالى يعرض رصيماً يزيد بقليل عن عشرة آلاف؛ فأنت إذن من أصحاب العشرة آلاف".

ضحك رئيس مجلس الإدارة، ودعا المجلس لتحية كريس وسو هاسكنز.

أضاف رئيس مجلس الإدارة قائلاً: "أخبرنى جواسيسى يا كريس أنك سوف تصبح الرئيس التالى لنادى الروتارى المحلى".

قال كريس بينما يخفض الكوب: "إنها مجرد سائفة وبالتأكيد لن يحدث هذا قبل أن تتخذ سو مكانها فى اللجنة العليا لاتحاد الأمهات. لا تندهش إذا وصلت لمنصب رئيسة الاتحاد فى البلاد كلها". هكذا أضاف بفخر واضح.

الرجل الذى سرق مكتب بريد

تساءل رئيس مجلس الإدارة: "وعلى هذا، فما الذى تخططان للقيام به تالياً؟".

فقال كريس دون تردد: "سنأخذ إجازة لمدة شهر فى البرتغال، فبعد خمسة أعوام من تدبر أمورنا على شاطئ كليثوريس، والاكتفاء بأطباق السمك والبطاطس أظن أننا نستحق ذلك".

يصلح ذلك أيضاً لأن يكون نهاية مرضية لهذه الحكاية، لولا أن تدخلت الجهات الرسمية مرة أخرى؛ وهذه المرة عن طريق رسالة موجهة إلى كل من السيد هاسكنز وزوجته من المدير المالى لمكاتب البريد. وجدا الرسالة بانتظارهما على سجادة المدخل عندما عادا من ألبوفيرا.

المقر الرئيسى لهيئة مكاتب البريد،
١٤٨ أولد ستريت، لندن إيه. سي. آى. فى ٩٠ إتش كيو

العريزان: السيد والسيدة هاسكنز،

تجرى هيئة مكاتب البريد عملية إعادة تقييم لما لديها من عقارات وممتلكات، وعند الانتهاء من ذلك، سوف تكون هناك بعض التغييرات لحالة بعض مؤسساتها الأقدم.

وعلى بالتالى أن أعلمكما أن مجلس الإدارة اضطر على مفض أن يتخذ قراره بأننا لن نمنح الدرجة "أ" بعد ذلك لمنشأتين فى منطقة كليثوريس. ولما كان الفرع الجديد فى هاى ستريت سوف يستمر فى تقييمه بصفته من الدرجة "أ"، فإن مكتبكما فى فيكتوريا كريست سبتم تخفيض درجته إلى الفئة "ب". ومن أجل أن تتمكننا من اتخاذ التعديلات الضرورية، فإننا لن ننوى إجراء تلك التغييرات حتى مطلع العام الجديد.

نأمل فى استمرار علاقتنا بكما.

المخلص.

المدير المالى

بعد أن قرأت سو الرسالة للمرة الثانية قالت : "هل معنى هذا ما فهمته؟".

قال كريس: "ببساطة يا حبيبتي، لا نستطيع أن نأمل أبداً في استرداد الاستثمار الأصلي بمبلغ مائتي وخمسين ألفاً، حتى ولو عملنا ليل نهار لبقية حياتنا".

سألت سو: "إذن سوف تعرض مكتب البريد للبيع".

تساءل كريس: "ولكن من الذي سيرغب في شرائه بهذا الثمن إن اكتشف أن العقار لم يعد من الدرجة "أ"؟".

"لقد أكد لنا موظف شركة بريطانيا أننا ما إن نسدد الدين فإن العقار يساوي المليون".

قال كريس: "هذا فقط إن كانت أرباح الاستثمار خمسمائة ألف ويدربحاً بحوالي ثمانين ألفاً في العام".
"لابد أن نلجأ لطلب استشارة قانونية".

وافق كريس على مضمض، بالرغم من أنه كان يعلم الرد الذي سيسمعه من مستشاره. لم يكن القانون في صفهما، هكذا نصحهما محاميهما بأريحية، وبالتالي فهو لا ينصحهما برفع دعوى ضد مكتب البريد، مادامت نتيجتها غير مؤكدة. قال : "ربما تحرزان نصراً أخلاقياً، لكن هذا لن يعنى شيئاً لرصيدكما في البنك".

كان القرار التالي الذي اتخذه كريس وسو هو أن يعرضا مكتب البريد في سوق العقارات ويريا إن أبدى أى شخص اهتمامه بالصفقة، ومن جديد اتضح أن رأى كريس صحيح: لم يتجشم مشقة إلقاء نظرة على العقار إلا ثلاثة أزواج وزوجات، ولم يعد أى منهم لإلقاء نظرة أخرى ما إن اكتشفوا أن العقار لم يعد من الدرجة "أ".

قالت سو: "أراهن أن هؤلاء المسئولين هناك في المقر الرئيسي كانوا يعلمون تمام العلم من زمن بعيد أنهم سوف يغيرون درجتنا من قبل أن يضعوا مالنا في جيوبهم، ولكن كان

الرجل الذي سرق مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

من الأنسب لهم طبعاً ألا يخبرونا بذلك".
قال كريس: "قد تكونين على حق، لكن لا شيء مؤكداً تماماً - فهم لا يعلنون كل شيء كتابة في الحين نفسه؛ لذلك لا نستطيع أن نثبت ضدّهم أي شيء".
"ولا نستطيع شيئاً آخر".
"فيم تفكرين يا حبيبتى؟"
تساءلت سو: "ما المبلغ الذي سرقوه منا؟"
"حسناً، إذا كنت تقصدين بهذا مبلغ الاستثمار الأصلي".
"مدخرات حياتنا، كل بنس كسبناه على مدى الثلاثين عاماً الماضية، ناهيك عن معاش التقاعد الخاص بنا".
سكت كريس قليلاً ورفع رأسه؛ ليجرى بعض الحسابات.
ثم قال: "باستبعاد أي ربح كنا قد نجنيه، فبمجرد أن نستعيد مرة أخرى رأسمالنا الأصلي _____".
كررت سو: "نعم، فقط المبلغ الذي سرقوه منا".
قال كريس: "أكثر قليلاً من مائتين وخمسين ألفاً، إذا لم نضف الفائدة".
"ولم يعد الآن لدينا أي أمل في رؤية أية نقود ولو بنساً واحداً من ذلك الاستثمار الأصلي مرة أخرى، حتى ولو عملنا ليل نهار لبقية حياتنا؟".
"تلك هي الحقيقة يا حبيبتى".
"إذن فأنا أنتوى التقاعد مع مطلع العام الجديد".
سألها كريس: "وما الذي تتوقعين أن نعتمد عليه في عيشنا خلال بقية حياتنا؟".
"مبلغ استثمارنا الأصلي".
"وكيف تنوين الحصول على هذا المبلغ؟".
"عن طريق استغلال سمعنا التي لا تشوبها شائبة".

النهاية

نهض كل من كريس وسو مبكرين فى الصباح التالى: فعلى كل حال، كان لديهما الكثير من العمل ليقوما به خلال الشهور الثلاثة التالية إن كانا يأملان فى مراكمة ما يكفى من رأس المال لكى يتقاعدا مع أول أيام شهر يناير. نبهت سو كريس إلى أنه سيكون عليهما اتخاذ استعدادات تفصيلية إن كان مقدراً لخطتها أن تنجح ولم يخالفها الرأى. كان كل منهما يعرف أنهما لا يستطيعان ضغط الزر قبل يوم الجمعة الثانى من شهر نوفمبر، عندها سيكون لديهما فرصة باتساع ستة أسابيع حسب التعبير الذى استخدمه كريس قبل أن يكتشف (أولئك الأشخاص هناك فى لندن) ما كانا يدبران له. لكن هذا لن يعنى أنه لم يكن هناك الكثير من العمل التمهيدى اللازم فى تلك الأثناء. فى البداية، كانا بحاجة لخطة للهرب، حتى قبل أن يحددا مسألة استعادتهما لأية أموال مسلوية. لم يعتبر أحد منهما أن ما هما على وشك القيام به يعد سرقة على الإطلاق.

فردت سو على منضدة مكتب البريد خريطة لأوروبا. راحا يناقشان البدائل المختلفة لعدة أيام واستقرا فى نهاية الأمر على البرتغال، التى اعتبرها كل منهما مكاناً مثالياً للتقاعد المبكر. فى زيارتهما الكثيرة إلى الجراف كانا يعودان بصفة دائمة إلى البوفيرا، المدينة نفسها التى أمضيا بها شهر عسلهما المختصر، وعادا لزيارتها فى العقد الثانى والعقد الثالث من عمرهما، وقضيا بها الكثير والكثير من احتفالات ذكرى زواجهما، حتى إنهما قد تواعدا على أن يتقاعدا بها إن هما ربحا جائزة فى اليانصيب.

فى اليوم التالى اشترت سو شريطاً لتعليم اللغة البرتغالية للمبتدئين، الذى كانا يديرانه قبل الإفطار فى كل صباح، ثم

الرجل الذي سرق مكتب بريده

يقضيان ساعة أخرى في المساء، يختبران مهارتهما اللغوية الجديدة. وكما أسعدهما أن يكتشفا أنهما على مدى السنوات قد نجح كل منهما في التقاط مفردات من تلك اللغة أكثر مما كانا يدركان. وبالرغم من عدم طلاقتهما، فلم يكونا مبتدئين بكل تأكيد، وسرعان ما انتقل الاثنان إلى شرائط المراحل المتقدمة. قال كرييس لزوجته أثناء حلاقتة لذقته ذات صباح: "لن يكون بمقدورنا أن نستخدم جوازي السفر الخاصين بنا، لا بد أن ن فكر في تغيير هوياتنا، وإلا فإن السلطات سوف تمسك بنا على الفور".

قالت سو: "لقد فكرت بهذا الشأن، ولا بد أن تستغل لصالحنا عملنا في مكتب البريد الخاص بنا".

توقف كرييس عن الحلاقة، والتفت لينصت إلى زوجته. "لا تنس أننا بالفعل نوفر كل الوثائق والاستمارات اللازمة لمن يريد من العملاء الحصول على جواز سفر".

لم يقاطع كرييس زوجته سو عندما أخذت تشرح له كيف خططت لأن يكونا على ثقة من مغادرتهما البلاد بأمان تام تحت أسماء مستعارة.

ضحك كرييس ضحكة مكتومة، ثم قال بعد أن وضع موسى الحلاقة جانباً: "ربما سوف أطلق لحييتي".

خلال تلك السنوات كان كرييس وسو قد عقدا صداقات مع عملاء كثيرين ممن يتعاملون بانتظام مع مكتب البريد. راح كل واحد منهما يدون على صفحات من الورق أسماء جميع عملائهما ممن تنطبق عليهم المعايير التي تبحث سو عنها. وانتهيا إلى قائمة تشتمل على دزيتين من المرشحين: ثلاث عشرة امرأة وأحد عشر رجلاً. ومن تلك اللحظة فصاعداً، كلما دخل إلى مكتب البريد واحد من هؤلاء العملاء غير المرتابين في شيء، سوف يخوض كرييس أو سو غمار محادثة معه ليس لها إلا هدف واحد.

"هل ستسافرين إلى أى مكان بحلول العام الجديد يا سيدة بروير؟".

"كلا يا سيدة هاسكنز، إن ابني وزوجته سوف يأتيان إلينا عشية الإجازة، وهكذا سوف يتسنى لنا أن نتعرف على حفيدتنا الجديدة".

أجابت سو: "كم هذا لطيف لكما يا سيدة بروير. أنا وكريس نفكر فى قضاء عيد الميلاد بالولايات المتحدة".

قالت السيدة بروير: "يا للروعة! إننى لم أسافر للخارج أبداً"، ثم أضافت: "ناهيك عن أمريكا".

اجتازت السيدة بروير جولة ثانية، لكنها لن يتم استجوابها من جديد حتى زيارتها التالية.

مع حلول نهاية شهر سبتمبر، انضمت سبعة أسماء أخرى إلى السيدة بروير على القائمة القصيرة - أربع نساء وثلاثة رجال، جميعهم تتراوح أعمارهم بين الحادية والخمسين والسابعة والخمسين، كما أنهم يشتركون جميعاً فى شىء آخر وهو أنهم لم يسافروا للخارج قبل ذلك قط.

المشكلة الثانية التى واجهت الزوجين هاسكنز كانت ملء استمارة لشهادة ميلاد؛ مما اقتضى أكثر من مجرد استجواب تفصيلى، وكان كل من سو وكريس يتراجعان على الفور ما إن يُظهر أحد المرشحين على القائمة القصيرة أى علامات من الشك. مع مستهل أكتوبر كانا قد توصلا لأسماء أربعة عملاء ممن زودوهم عن طيب خاطر بتاريخ ميلادهم، ومكان مولدهم، وألقاب أسر أمهاتهم قبل الزواج والاسم الأول للأب.

كانت زيارة الزوجين هاسكنز التالية إلى معمل بوتس بشارع سانت بيتر أفينيو؛ حيث تناوبا الجلوس فى حجرة صغيرة وحصلا على عدة شرائط طويلة من الصور الفوتوغرافية التقطت بسعر جنبيين ونصف للمرة. ثم عكفت سو على ملء استمارات الطلبات الضرورية من أجل جواز السفر، نيابة عن

الرجل الذى سَرَقَ مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

أربعة من عملائها الغافلين. سجلت جميع التفاصيل ذات الصلة بهم، فى حين وضعت صورها الفوتوغرافية هى وكريس، إلى جانب طلب بريدى قيمته ٤٢ جنيهًا، وباعتباره مديرًا لمكتب البريد، كان كريس فى غاية السعادة حين وضع توقيعيه باسمه الحقيقى أدنى كل استمارة من التى ملأتها سو.

أرسلت الطلبات الأربعة إلى المقر الرئيسى لمكتب البريد فى بيتى فرانس بـ "لندن"، خلال أيام الاثنين، والثلاثاء، والجمعة، والسبت خلال الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر.

فى يوم الأربعاء الحادى عشر من نوفمبر وصل جواز السفر الأول عائداً إلى فيكتوريا كريست، موجهاً إلى السيد ريج أبليارد. بعدها بيومين، ظهر جواز ثان، باسم السيدة أودرى رامسيوتوم. فى اليوم التالى ظهر جواز السيدة بيتى بروير، وأخيراً، وبعد أسبوع، وصل جواز السيد ستان جيرارد. كانت سو قد أوضحت لـ "كريس" مسبقاً أنه سيكون عليهما مغادرة البلاد مستخدمين زوجاً من الجوازات، ثم سيكون عليهما التخلص منهما، قبل الانتقال إلى الزوج الآخر من جوازات السفر، ولكن ليس قبل أن يجدا مكانا يعيشان فيه فى البوفيرا.



واصل كريس وسو التمرن على لغتهما البرتغالية كلما كانا بمقردهما فى المكتب، بينما كانا يعلنان لأى عميل يزورهما أنهما سوف يسافران خلال عطلة العام الجديد وأنهما قد خططتا لرحلة إلى أمريكا، وأى شخص فضولى كان يحظى ببعض التفاصيل من سو وكريس، فكانا يقولان إنهما سيقضيان أسبوعًا فى سان فرانسيسكو، متبوعًا ببضعة أيام فى سياتل. بحلول الأسبوع الثانى من نوفمبر، كان كل شىء جاهزًا لضغط زر عملية استعادة المال المسلوب.



فى التاسعة تمامًا من صباح يوم الجمعة أجرت سو اتصالها الأسبوعى للمقر الرئيسى. أدخلت كودها الشخصى قبل أن يتم تحويلها إلى الموظف المالى. الاختلاف الوحيد هذه المرة أنها كان بوسعها أن تسمع صوت ضربات قلبها. كررت كودها قبل أن تبلغ موظف الائتمان بمقدار النقود السائلة التى تطلبها من أجل الأسبوع التالى وكان مبلغًا كبيرًا بما يكفى لىسمح لها بتغطية أية سحوبات من أية حسابات ادخارية بمكتب البريد، وكذلك المعاشات وطلبات البريد النقدية الأخرى، وبالرغم من أن هناك محاسبًا من المقر الرئيسى يراجع على الدوام الدفاتر عند نهاية كل شهر، فلا بد من أن هناك فسحة من الحرية مسموحًا بها خلال فترة الاستعداد للأعياد الوشيكه. وعلى هذا، فالتدقيق البالغ سيجرى فى يناير للتأكد من أن الدفاتر متوازنة، غير أن أيًا من سو أو كريس لم يكن لديه النية بأن يكون موجودًا فى المكان نفسه خلال شهر يناير. وخلال الأعوام الستة الماضية كانت دفاتر سو دائمًا متوازنة ومضبوطة، وكان المقر الرئيسى يعتبرها المديره المثالية.

كان على سو أن تراجع السجلات لكى تتذكر المبلغ الذى طلبته فى الأسبوع نفسه من العام السابق أربعون ألف جنيه،

الرجل الذى سرق مكتب بريد

والذى اتضح أنه أكثر مما تريد بثمانمائة جنيهه، وهذا العام طلبت ستين ألفاً وانتظرت تعليقاً من مدير الائتمان، لكن الصوت الذى أتاها من المقر الرئيسى لم يكن لا مندهشاً ولا قلقاً. وأرسل المبلغ كاملاً إليها بسيارة مؤمنة يوم الاثنين التالى.

على مدار الأسبوع تعهد كريس وسو بواجباتهما نحو جميع عملائهما؛ فعلى كل حال لم يكونا ينتويان أن يقصرا فى أى من عاداتهما أو واجباتهما، لكنهما مع ذلك وجدا نفسيهما أمام مبلغ فائض عن الحاجة قيمته ٢١ ألف جنيه مع نهاية الأسبوع الأول. تركا النقود مغلقة عليها فى الخزانة، فى حالة ما إن قرر مسئول صعب الإرضاء من المقر الرئيسى أن يجرى تفتيشاً مفاجئاً.

ما إن أغلقت سو الباب الأمامى وأنزلت الستائر فى السادسة مساءً، لم يكن يتحدث أى منهما إلا باللغة البرتغالية، فيما أمضيا بقية المساء يملآن الطلبات البريدية، ويكشطون بطاقات الخدش ويدخلون أرقام اليانصيب، وكثيراً ما كانا يسقطان فى النوم وهما يعملان.

فى كل صباح كان كريس يستيقظ مبكراً ويصعد إلى سيارته الروفر، ومعه ستاميس؛ رفيقه الوحيد. كان يرتحل شمالاً، وشرقاً، وجنوباً، وغرباً يوم الاثنين إلى مكتب بريد لنكولن، والثلاثاء إلى مكتب لاوث، والأربعاء سكيجنيس، والخميس إلى هال، والجمعة أمتجهام؛ حيث كان يحوّل سندات بريدية عديدة إلى نقود سائلة، وكذلك يجمع مغانمه من بطاقات الخدش وبطاقات اليانصيب، مما أتاح له أن يكمل مدخراتهما المكتسبة حديثاً مضيفاً إليها بضع مئات أخرى من الجنيهات فى كل يوم.

فى يوم الجمعة الأخير من شهر نوفمبر، الأسبوع الثانى، قدمت سو طلباً بمبلغ سبعين ألف جنيه من المكتب الرئيسى؛

بحيث أمكنهما فى يوم السبت التالى أن يضيفا اثنين وثلاثين ألفاً أخرى لمكاسبهما الخفية.

فى أول أيام الجمعة من شهر ديسمبر، رفعت سو المبلغ إلى ثمانين ألف جنيه؛ وكم اندهشت حين تبينت أنه لم يكن هناك أية تساؤلات من جانب المقر الرئيسى؛ فعلى كل حال، ألم يتم تكريم سو هاسكنز بصفتها المديرية المثالية للعام، مع التقدير الخاص من مجلس الإدارة؟ وبكل التزام وصلت عربية مؤمنة لتتقل إليهما المبلغ كاملاً، نقوداً سائلة، فى وقت مبكر من نهار الاثنين.

أسبوع آخر من الأرباح المتزايدة سمح لسو هاسكنز أن تضيف تسعة وثلاثين ألفاً إضافية إلى المبلغ المكنوز دون أن يوجد على المائدة لاعبون آخرون يطلبون رؤية ما بين يديها. كانا يعدان الآن المبلغ الزائد عن الحاجة وقيمته مائة ألف جنيه، والذى كان مصفوفاً فى كومات صغيرة منتظمة من الأوراق النقدية المستخدمة، التى ترقد فوق أربعة جوازات سفر دفنت فى قاع الخزانة.

لم يكن كريس يكاد يغمض عينيه فى الليل؛ إذ إنه واصل التوقيع على سندات بريدية لا آخر لها، وراح يخدش أكواماً من بطاقات الخدش، وقبل أن يدخل إلى الفراش، يملأ أوراق يانصيب عديدة بتركيبات لا نهائية من الأرقام. ويومياً كان عليه أن يزور كل مكتب بريد فى نطاق خمسين ميلاً، جامعاً مغانمه، ولكن بالرغم من عملهما الدعوب وتفانيهما، وبحلول الأسبوع الثانى من شهر ديسمبر لم يجمع السيد هاسكنز وزوجته أكثر من نصف المبلغ المطلوب استعادته أى المائتى وخمسين ألفاً التى استثمرها فى الأصل.

نبهت سو كريس إلى أن عليهما أن يجازفا مجازفة أكبر؛ إذا كان مازالا يطمحان لجمع المبلغ الكامل بحلول إلعام الجديد.

الرجل الذى سرق مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

فى يوم الجمعة الثانى من شهر ديسمبر، الأسبوع الرابع، اتصلت سو بالموظف المختص فى المقر الرئيسى، وطلبت مبلغ ١١٥ ألف جنيه.

قال الصوت على الطرف الآخر من الخط: "لديكم موسم مزدحم للغاية". أول علامة ريبية، هكذا قالت سو لنفسها، ولكنها كانت قد أعدت جيداً الرد المرسوم.

قالت سو له: "لا تتخيل مدى انشغالنا، ولكن لا تنس أننا فى كليثوربىس لدينا أشخاص يتقاعدون أكثر من أى مدينة أخرى على الساحل فى بريطانيا كلها".

أتاها الصوت من الطرف الآخر للخط: "المرء يتعلم شيئاً جديداً كل يوم"، ثم أضاف: "لا تقلقى، سيكون المال لديك يوم الاثنين. واصلى عمالك الرائع".

وعده سو قائلة: "سأواصل"، مما شجعها على طلب مبلغ مائة وأربعين ألفاً فى الأسبوع الأخير قبل العام الجديد، منتبهة إلى أن أى مبلغ يزيد عن المائة والخمسين ألفاً لابد أن يراجعه المكتب الرئيسى بلندن.

عندما أنزلت سو الستائر فى السادسة من عشية العام الجديد، كان كل منهما منهكاً كل الإنهاك.

كانت سو هى أول من تعافى من الإنهاك. ذكرت زوجها بينما مرت من أمام الخزينة المكتظة عن آخرها: "لا يمكننا أن نضيع دقيقة واحدة". أدخلت الكود، وفتحت الباب وسحبت كل شئ من حسابهما الجارى، ثم وضعت المال على المنضدة فى رزم منتظمة - أوراق من فئات الخمسين، والعشرين، والعشرة، والخمسة - قبل أن يشرعا فى عد مغانمهما.

حسب كريس الرقم النهائى وتأكد من أن لديهما فى حسابهما ٢٦٧ ألفاً و٣٠٠ جنيه قاما بإعادة مبلغ ١٧ ألفاً و٣٠٠ جنيه من جديد للخزينة، وأغلقا بابها. فعلى كل حال،

لم ينتويا أبداً أن يجنبا أرباباً - فهكذا تصير سرقة حقيقية. بدأت سو تحيط كل ألف برباط مطاطى، بينما ينقل كريس المائتى والخمسين ألفاً إلى الكيس القماشى الخشن القديم الذى ينتمى للقوات الجوية. وعند الثامنة صباحاً صارا متأهبين للانطلاق. ضبط كريس جهاز الإنذار، وتسلس بهدوء للخارج من الباب الخلفى ووضع الكيس القماشى فى حقيبة السيارة، أعلى أربع حقائب أخرى قد حزمته زوجته فى وقت سابق من ذلك الصباح. لحقت به فى مقدمة السيارة، وعندئذٍ أدار كريس المحرك.

بعد أن جذبت سو الباب لتغلقه قالت: "لقد نسينا شيئاً ما". وهنا قال بصوت واحد: "ستامبس". أوقف كريس محرك السيارة، وخرج منها وعاد لمكتب البريد، وأعاد إدخال الكود، وأبطل عمل جهاز الإنذار وفتح الباب الخلفى وراح يبحث عن ستامبس. وجده غارقاً فى النوم بالمطبخ، وتردد كثيراً قبل أن يأخذه من سلة نومه الدافئة إلى المقعد الخلفى للسيارة. ألم ينتبها أنها عشية العام الجديد؟

أعاد كريس ضبط جهاز الإنذار وأغلق الباب للمرة الثانية. وفى الثامنة والثلث صباحاً انطلق السيد هاسكنز وزوجته فى رحلتها إلى آشفورد بكننت. تبينت سو أن أمامهما أربعة أيام طيبة قبل أن ينتبه أى شخص لغيابهما. كان أول يوم فى العام الجديد ويوم تلقى الهدايا، أما الأحد والاثنين فكانا إجازة البنوك، والتي ستعود للعمل نظرياً صباح الثلاثاء، وفى ذلك الوقت سيكونان يتفرجان على عقارات للإيجار فى الجراف. لم يكداً أى من الاثنين ينطق بكلمة خلال الرحلة الطويلة إلى كنت، ولا حتى باللغة البرتغالية. لم تكن سو تصدق أنهما نجحا فى الإفلات بما لديهما، بل إن كريس كان أكثر منها دهشة أمام نجاحهما فى ذلك.

الرجل الذى سرق مَكْتَبَ بَرِيدِهِ

ذكرته سو قائلة: "لم نفلح تمامًا بعد، ليس قبل أن نقود سيارتنا نحو ألبوفيرا، ولا تنسى يا سيد أليارد، لم نعد أنا وأنت نحمل الاسم نفسه كزوج وزوجة".

"هل سنقع فى الخطيئة بعد كل تلك السنوات معاً يا سيدة بروير؟".

أوقف كريس السيارة أمام منزل ابنتهما بعد منتصف الليل مباشرة. فتحت تريسى الباب الأمامى لترحب بأبهما، بينما نقل كريس إحدى الحقائب وكذلك الكيس القماشى من مؤخرة السيارة. لم تر تريسى والديها قبل ذلك قط فى هذه الحالة من الإنهاك التام، وشعرت كأنهما قدما فى العمر كثيراً منذ أن رأتهما لآخر مرة فى الصيف الماضى. لعلها الرحلة الطويلة وحسب. اصطحبتهما إلى المطبخ، وأجلستهما وأعدت لكل منهما قرح شاي. تحدثا بالكاد، وعندما قادتهما تريسى فى نهاية الأمر إلى الفراش، لم يدعها أبوها تحمل الكيس القماشى لتضعه فى غرفة نوم الضيوف.

ظلت سو تصحو من نومها كلما سمعت صوت سيارة تتوقف هناك بالشارع، وتتساءل عما إذا كانت هذه السيارة عليها الكلمة المضيفة بالنور وبحروف غليظة؛ "شرطة". وكان كريس ينتظر أن يقرع جرس الباب الأمامى قبل أن يسرع أحدهم فوق الدرج صعوداً للدور العلوى ويجر الكيس القماشى من تحت الفراش، ويقبض عليهما ويقودهما إلى أقرب قسم شرطة.

وبعد ليلة من السهاد انضموا إلى تريسى بالمطبخ لتناول الإفطار.

قالت تريسى: "عام سعيد" وقبّلت كلاً منهما على خده. لم يرد عليها أى منهما. كيف نسيا أنه صباح العام الجديد؟ بدا كلاهما محرّجاً بينما يحدقان فى العلبتين المغلقتين بورق الهدايا وقد وضعتهما ابنتهما أمامهما على المائدة. لم يتذكرا أن يشتريا هدية من أجل تريسى، وبدلاً من ذلك منحاهما

نقوداً، وهو الشيء الذى لم يفعلاه منذ أن كانت مراهقة. تمت تريسى أن يكون الأمر لا يتجاوز ازدحام موسم الأعياد، وانشغالهما، وتحمسهما من أجل سفرهما إلى الولايات المتحدة؛ مما تسبب فى هذا السلوك غير المعهود منهما.

فى نهار اليوم التالى تحسن الحال قليلاً. بدأ كريس وسو أكثر استرخاء، بالرغم من أنهما كثيراً ما خلدا إلى نوبات طويلة من الصمت. اقترحت عليهما تريسى بعد تناول الغداء أن يأخذا ستامبس ليجرى عبر الكثبان وليحصلوا على بعض الهواء النقى، وخلال التمشية الطويلة كان أحدهما يبدأ فى النطق بجملة ثم يعود للصمت من جديد. بعدها بدقائق كان الآخر يكمل جملة الأول.

شعرت تريسى فى صباح الأحد أن كلاهما قد تحسنت حالته كثيراً، بل وراحا يثرثران حول رحلتها إلى أمريكا. لكن هناك شيئان أصابها بالحيرة. حين رأت والديها ينزلان الدرج وهما يحملان الكيس القماشى يتبعهما ستامبس بعد أن استيقظا، فإنها تكاد تقسم أنها سمعتهما يتحدثان باللغة البرتغالية. وما الذى يدعوها لاصطحاب ستامبس إلى أمريكا، بينما قد عرضت عليهما هى بالفعل أن تعتنى بالكلب أثناء رحلتها؟

أنتها المفاجأة التالية عندما قررا أن ينطلقا بالسيارة إلى مطار هيثرو بعد تناول الإفطار. حين وضع والدها الكيس القماشى والحقيبة الأخرى فى حقيبة السيارة، أدهشها أن ترى ثلاث حقائب كبيرة الحجم موضوعة هناك بالفعل. لماذا يزعجان نفسيهما بكل تلك الأمتعة بينما لن يتغيبا عن الديار لأكثر من أسبوعين؟

وقفت تريسى على الرصيف ولوحت لهما مودعة، بينما انحرفت سيارة أبويها نحو الطريق. حين وصلت السيارة الروفر القديمة إلى نهاية الشارع انعطفت نحو اليمين بدلاً من جهة اليسار، وهو ما يأخذهما إلى الاتجاه العاكس لهيثرو. هناك

الرجل الذى سرق مَكتَبَ بَريده

خطأ ما. تناست تريسي الغلطة، مدركة أنهما سيصححانها قبل أن يصلا إلى الطريق السريع بوقت طويل.

ما إن وصل كل من كريس وسو إلى الطريق السريع، اتبعا العلامات المرشدة إلى دوفر. زاد توتر كل منهما أكثر فأكثر دقيقة بعد أخرى، مدركين أنهما الآن لم يعد لديهما خط رجعة. ستامبس وحده هو الذى بدا أنه يستمتع بالمغامرة وقد راح يحدق من الزجاج الخلفى ويهز ذيله.

ومرة أخرى، راجع السيد ألبيارد والسيدة بروير خطتهما. عندما يصلان إلى المرفأ، ستنزل سو من السيارة وتنضم إلى طابور المسافرين بدون سيارات فى انتظار أن يصعدوا على متن العبارة، فى حين سيقود كريس السيارة إلى المنحدر المخصص للمسافرين بسياراتهم ويصعد بها على متن العبارة. اتفقا على أن يلتقيا من جديد بعد أن يرسو القارب فى كالى، وكان على كريس عندها أن يقود السيارة إلى شاطئ المرفأ.

توقفت سو فى نهاية الممر الواصل بين البر والعبارة وانتظرت فى قلق بأخر الطابور بينما تراقب حافة سيارتهما الروفر تتوجه نحو مدخل المخزن الخاص بالسفينة. تسارعت دقات قلبها حين رأت ضابط الجمارك يعيد تفحص جواز سفر كريس، ويدعوه للخروج من السيارة وأن يقف إلى الجانب. كان عليها أن تمنع نفسها من الركض إليهما لتسمع حديثهما لم يكن بوسعها المخاطرة بذلك الآن وقد صارا اثنين غريبين عن بعضهما البعض.

قال ضابط الجمارك: "صباح الخير يا سيد ألبيارد"، ثم أضاف بعد أن نظر إلى المقعد الخلفى للسيارة: "أتريد أن تأخذ معك الكلب للخارج؟".

فأجابه كريس: "بلى؛ فنحن لا نساغر إلى أى مكان بدون ستامبس".

جيفرى آرشر

تفحص ضابط الجمارك مرة أخرى جواز سفر السيد
أبليارد بمزيد من العناية: "ولكنك لا تملك الوثائق اللازمة
لتصطحب الكلب معك للخارج".

أحس كريس بقطرات من العرق تجرى على جبينه؛ فقد
كانت أوراق ستامبس مازالت ملحقة بجواز سفر السيد هاسكنز،
التي تركها وراءه في كليثوريس.

قال كريس: "رباه! لا بد أنني تركتها بالبيت".

"يا له من حظ سيئ يا سيدى. أرجو ألا تكون قادمًا من
بعيد لأنه ليس هناك عبارة أخرى قبل هذا الوقت نفسه من
نهار الغد".

نظر كريس في خذلان وعجز هناك نحو زوجته، قبل أن
يصعد إلى سيارته من جديد. ثم ألقى بنظرة نحو ستامبس
الذى كان نائمًا بكل وداعة في المقعد الخلفى، غافلاً كل الغفلة
عن المشكلة التى تسبب بها. عاد كريس بالسيارة ولحق بسو
التي بلغ بها التوتر مداها، والتي كانت تنتظر بلهفة شديدة
لتعرف لماذا لم يسمحوا له بالركوب. وما إن شرح لها كريس
المشكلة، فكان كل ما قالت: "لا يمكننا المجازفة بالرجوع إلى
كليثوريس".

قال كريس: "أتفق معك، علينا جميعاً أن نعود إلى آشفورد،
ولنأمل أن نجد طبيباً بيطرياً مازال يعمل فى أيام الإجازة".
قالت سو: "لم يكن هذا جزءاً من خطتنا".

قال كريس: "أعلم، لكننى غير مستعد لترك ستامبس
وراءنا"، أو مات سو بالموافقة.

دفع كريس السيارة على الطريق الرئيسى، وبدأ رحلة
العودة إلى آشفورد. وصل السيد هاسكنز وزوجته فى الموعد
المناسب لمرافقة ابنتهما فى الغداء. كانت تريسى سعيدة بأن
والديها كانا قادرين على أن يمضيا معها يومين آخرين، لكنها
كانت لا تزال غير قادرة على أن تفهم لماذا لا يمكنهما أن يتركا

الرجل الذى سرق مكتب بريده

ستامبس معها؛ فعلى كل حال لن يفادرا البلاد لما تبقى من حياتهما.

أمضى كريس وسو نهائراً آخر دون كلام، وليلة إضافية بلا نوم فى آشفورد؛ وعاد الكيس القماشى الذى يحتوى على ربع مليون جنيه ليُدسّ أسفل الفراش.

يوم الاثنين وافق طبيب بيطرى فى المنطقة عن طبيب خاطر أن يقدم لـ ستامبس كل الحقن الضرورية، ثم ألحق شهادة بذلك لجواز سفر السيد أبليارد، ولكن لم يجز هذا فى الوقت المناسب لكى يلحقا بالعبارة الأخيرة.

ليلة الاثنين لم يغمض للزوجين هاسكنز جفن، وبمجرد انطفاء الأضواء فى الشوارع فى الصباح التالى، كان كل منهما يعلم أنهما لم يعدا بوسعهما المضى قدماً فى ذلك. رقدا مستيقظين، يعدان خطة جديدة باللغة الإنجليزية هذه المرة. ترك كريس وسو ابنتهما أخيراً بعد تناول الإفطار فى الصباح التالى. قادا سيارتهما حتى نهاية الطريق وفى هذه المرة انعطفا جهة اليسار وليس اليمين كالمرة السابقة، مما أراح تريسى، وتوجها مباشرة نحو كليثوريس. وحين مرا مسرعين بمخرج هيثرو كانت خطتهما البديلة قد تمت.

قالت سو: "فى اللحظة التى نصل فيها البيت، سنعيد المال كله إلى الخزينة من جديد".

تساءل كريس: "ولكن كيف لنا أن نفسر وجود هذا المبلغ كله من النقود السائلة عندما يجرى محاسب مكتب البريد تفقده السنوى خلال الشهر القادم؟".

"بحلول الوقت الذى سيحضرون فيه للفحص وتفقد ما بقى فى الخزينة، مادمننا لن نطلب أى أموال أخرى، فلا بد أنه سيكون بمقدورنا التخلص من أغلب هذه النقود بمجرد إجراء تعاملاتنا المالية المعتادة".

"وماذا عن السندات البريدية التى حولناها إلى نقود سائلة؟"

ذكرت سوزوجها قائلة: "مازال هناك من النقود السائلة فى الخزينة ما يكفى لتغطيتها".

"ولكن ماذا عن بطاقات الخدش وأوراق اليا نصيب؟"

"سيكون علينا أن نعوض الفرق من مالنا الخاص - وبهذه الطريقة لن يساورهم أى شك".

قال كريس: "أوافقك"، وقد بدا مستريحاً ومطمئناً للمرة الأولى منذ أيام، وهنا تذكر جوازات السفر.

قالت سو: "سوف نتخلص منها بمجرد الوصول للبيت".

فى اللحظة التى عبر فيها الزوجان هاسكنز حدود لنكولن شاير، كان عليهما أن يتخذا قراراً بما إذا كانا سوف يستمران فى إدارة مكتب البريد، بالرغم من الوضع المنهار. كانت سو قد توصلت بالفعل إلى عدة أفكار لأغراض إضافية يمكن لهما بيعها من خلال المكتب، بينما يحاولان الاستفادة القصوى من الترخيص الذى تبقى لديهما.

استقرت ابتسامة على شفتى سو عندما انعطفت كريس أخيراً نحو فيكتوريا كريست، وتلاشت تلك الابتسامة على الفور عندما رأت الأضواء الزرقاء الواضحة. حين توقفت السيارة الروفر القديمة أحاط بها ثلة من رجال الشرطة.

قالت سو: "اللعة!" وهى كلمة نابية بالنسبة لرئيسة اتحاد الأمهات، هذا ما دار بخلد كريس، ولكن إحقاقاً للحق كان يوافقها على ما تلفظت به.

ألقي القبض على السيد هاسكنز وزوجته مساء يوم التاسع والعشرين من ديسمبر، وتم اقتيادهما إلى قسم شرطة كليثوريس، ووضع كل منهما فى غرفة تحقيق منفصلة. لم يكن على أفراد الشرطة المحلية أن يستخدموا معهم لعبة الشرطى الطيب ثم الشرطى القاسى؛ لأن كلاً منهما اعترف

الرجل الذى سرق مكتب بريده

فى الحال. أمضيا الليلة فى زنزانتي منفصلتين، وفى الصباح التالى وُجِهُت إليهما تهمة الاستيلاء على مائتين وخمسين ألف جنيه، وأنهما استغلا ملكيتهما لمكتب البريد ليحصلوا بالتزوير على أربعة جوازات سفر.

وتم إعلانهما مذنبين فى كلتا التهمتين.

أطلق سراح سوهاسكنز من سجن موريتون هول بعد قضائهما أربعة أشهر من فترة العقوبة، ولحق كريس بها بعد ذلك بعام. وبينما كانا فى السجن عمل كريس على وضع خطة أخرى. وبالرغم من ذلك فحين تم إطلاق سراحه لم تشعر شركة بريطانيا فايننس بالميل لإعادة التعامل معه، وللا نصاف، فقد كان السيد ترماين قد تقاعد.

باع الزوجان هاسكنز عقارهما فى فيكتوريا كريستت بمبلغ مائة ألف جنيه. بعد ذلك بأسبوع صعدا إلى سيارتهما الروفر القديمة وقاداها حتى دوفر؛ حيث استقلا العبارة من هناك بعد تقديم جوازات السفر الصحيحة. وما إن عثرا على الموقع المناسب على الشاطئ فى ألبوفيرا، قاما بافتتاح متجر للسماك والبطاطس. لم يحقق مطعم الزوجين هاسكنز رواجًا عظيمًا بين السكان المحليين حتى الآن، ولكن مع النظر إلى المائة ألف بريطانى الذين يزورون الجراف كل سنة، فمن المؤكد أنه لن يعوزهما الزبائن.

كنت واحداً ممن جازفوا بالمساهمة بمبلغ استثمارى صغير فى مشروعها الجديد، ويسرنى أن أقول إننى استرددت كل بنس بجانب الفائدة. يا له من عالم غريب! ولكن كما لاحظ القاضى جراى، فإن السيد هاسكنز وزوجته لم يكونا مجرمين. ملاحظة واحدة أخيرة. لقد مات ستامبس بينما كان كريس وسو فى السجن.

الماسٲرو



الإيطاليون هم الشعب الوحيد من الشعوب التي أعرفها الذي لديه القدرة على أن يخدم مائدتك دون خضوع ظاهر. أما الفرنسيون فسوف يسكبون بكل سرور الصلصة على رابطة عنقك المفضلة، دون أدنى إشارة اعتذار، وهم يلعنونك في الوقت نفسه بلغتهم الأم. لن يتحدث الصينيون إليك على الإطلاق، أما اليونانيون فلا يجدون أى بأس فى أن يتركوك لمدة ساعة قبل أن يقدموا لك قائمة الطعام. ولن يألوا الأمريكيون جهداً فى أن يخبروك أنهم ليسوا نادلين على الإطلاق، لكنهم ممثلون عاطلون عن العمل مؤقتاً، ثم سيشرعون فى قراءة الأطباق الخاصة على القائمة وكأنهم يؤدون دوراً أمام لجنة اختبار. يميل الإنجليز إلى أن يقحموك فى محادثة طويلة، تاركين لديك الانطباع بأن عليك أن تتناول عشاءك معهم هم، وليس مع ضيفك، أما عن الألمان... حسناً، متى كانت آخر مرة أكلت فيها فى مطعم ألماني؟

وهكذا فإن الإيطاليين لا يتركون شيئاً للشعوب الأخرى ويجمعون الفتات. فهم يجمعون بين سحر الأيرلنديين، والخبرة المطبخية للفرنسيين ودقة السويسريين، وبالرغم من قدرتهم على تقديم فاتورة لا تبدو منطقية أبداً، فإننا نسمح لهم بالاستمرار فى سرقتنا.

يصدق هذا بلا خلاف على ماريو جامبوتى.

ينتمى ماريو إلى فصيل كبير من أبناء فلورنسا ممن لا يحسنون الغناء، أو الرسم، أو لعب كرة القدم، وعلى هذا فقد انضم بكل سعادة إلى أبناء بلده المقيمين بلندن؛ حيث افتتح

مطعماً مميزاً.

وكلما ذهبت إلى مطعمه الصغير حديث الطراز فى فولهام من أجل تناول الغداء، يخفى انزعاجه بشكل ما حين أطلب حساء الخضراوات والشعيرية، والسياجيتى بالطريقة البولونية.

يعلن: "يا له من اختيار ممتاز يا مايسترو" دون أن يتجشم عناء تسجيل طلبى على دفتره الصغير. لاحظوا لقب "مايسترو"، فهو لم يقل لى فخامتك، والذي سيعتبر تملقاً. وليس سيدى، والذي سيكون سخيلاً بعد عشرين عاماً من الصداقة، ولكن "مايسترو"، اسم تدليل ودود بشكل خاص، كما أننى استحققتة بناء على سلطة موثوق بها (زوجته) لأنه هو نفسه لم يقرأ أى كتاب من كتبى.

عندما كنت سجيناً بالسجن المفتوح فى نورث سى كامب، كتب ماريو رسالة إلى مدير السجن يقترح عليه فيها أن يسمح له بالحضور كل يوم جمعة ليعد لى وجبة غداء. وجد مدير السجن فى طلبه مصدرراً للتسلية، وكتب له ردّاً رسمياً، شارحاً أنه كان سيرحب بهذا الفضل من جانبه، لولا القوانين العقابية العديدة التى سيتم خرقها بذلك، ناهيك عن إثارة لا شك فيها للصحف الصفراء التى ستنتطلق فى نوبة هياج من العناوين. عندما أرانى مدير السجن نسخة من رده، كان مدهشاً لى أنه قد وقع الرسالة بالخلص لك، مايكل.

تساءلت: "هل أنت أيضاً زبون لدى ماريو؟"

أجاب مدير السجن: "كلا، بل هو من كان واحداً من زبائنى هنا".

يقع مطعم ماريو على طريق فولهام فى تشيلسى، ولعل شعبية المطعم تعود، بقدر كبير منها، إلى زوجته؛ تريزا، التى تدير المطبخ، فى حين يبقى ماريو على الدوام بواجهة المطعم.

اعتدت تناول الغداء هناك يوم الجمعة، في الغالب بصحبة ابني الاثنين.

وعلى مدار السنوات أدركت أن الكثير من الزبائن لا يتغيرون؛ مما يترك الانطباع بأننا جميعاً أعضاء في نادي ممنوع على من خارجه؛ حيث من المستحيل تقريباً على أي شخص أن يحجز مائدة ما لم يكن عضواً. وبالرغم من ذلك فقد كان البرهان الحقيقي على شعبية ورواج مطعم ماريو أنه لا يقبل الدفع بالبطاقات الائتمانية فهو يرحب بالزبائن من أصحاب الشيكات والنقود السائلة والحساب الجاري، ولكن عبارة لا للبطاقات الائتمانية قد طبعت بالحروف الغليظة في طرف كل قائمة طعام.



خلال شهر أغسطس يفلق المطعم أبوابه؛ بحيث يتسنى لآل جامبوتى العودة إلى مدينتهم الأم فلورنسا والاتحاد من جديد مع جميع الفروع الأخرى لعائلة جامبوتى.

إن ماريو إيطالى حتى النخاع؛ حيث يمكن رؤية سيارته الفيرارى الحمراء متوقفة أمام المطعم، ولديه يخت - كما يؤكد لى ابنى جيمس - يرسو فى مونت كارلو، وأطفاله تونى، وماريا، وروبرتو، يتعلمون فى مدارس سان باول، وتشلتنتهام وسامر فيلدز على الترتيب. فعلى كل حال، من المهم أن يختلطوا بنمط الأشخاص الذين من المتوقع أن يسلبوهم مالهم فى وقت ما من المستقبل، وحين أرى أسرة جامبوتى فى دار الأوبرا من أجل الاستماع إلى أحد مؤلفات الإيطاليين فيردى وبوتشيني، وليس فاجنر أو فيير فإنهم يكونون على الدوام جالسون فى مقصورتهم الخاصة.

وهكذا، فلعلك تتساءل، كيف إذن ينتهى الحال بهذا الرجل الماكر الذكى أن يخدم فى سجون جلالة الملكة؟ هل تورط فى بعض المناوشات التى أثيرت بعد مباراة كرة قدم بين فريقى آرسنال وفيورينيتنا؟ هل تجاوز السرعة المسموحة ذات مرة وهو يقود سيارته الفيرارى تلك؟ ربما نسى أن يدفع ما عليه من ضرائب؟ لا شىء مما سبق. لقد خرق قانوناً إنجليزياً بفعل شىء لا يعد فى أرض أسلافه أكثر من كونه جزءاً مقبولاً من الحياة اليومية.

دخل إلى مجرى الأحداث السيد دينيس كارتر ايت، الذى يعمل فى مكان آخر من مؤسسات جلالة الملكة.

كان السيد كارتر ايت مفتشاً فى مصلحة جمع الضرائب البريطانية، وهذا الرجل نادراً ما كان يتناول طعامه بأحد المطاعم، وبكل تأكيد لم يكن واحداً من زبائن ماريو المحظوظين. ومتى مال هو وزوجته دوريس لتناول طعام إيطالى فقد كان معنى هذا عادة أن يتناولوا البيتزا، ومع ذلك فقد اهتم اهتماماً كبيراً بالسيد جامبوتى، وبالطريقة التى يعيش بها هذا العيش الرخى بالنظر لمقدار ما كان يعلنه لمكتب الضرائب المحلى التابع له. فعلى كل حال، كان يظهر أرباحاً قدرها ١٧٢ ألفاً من

الجنيهات، على أساس رأسمال لا يزيد على المليونين. وهكذا، وبعد خصم الضرائب، فإن السيد جامبوتى كان لا يربح هو شخصياً وقد تأكد دينيس من الأرقام بكل حرص أكثر من مائة ألف جنيه. ومع الأخذ بالاعتبار امتلاك منزل فى تشيلسى، وثلاثة أبناء يذهبون إلى مدارس خاصة وسيارة فيرارى، دون ذكر اليخت الذى يرسو فى مونت كارلو، ومن يعلم ماذا هناك أيضاً فى فلورنسا، فكيف له أن يحوز ذلك كله؟ إن السيد كارترايت، وهو رجل ذو عزم وتصميم، قد عقد عزمه على أن يكتشف السر.

راح مفتش الضرائب يفحص جميع الأرقام المسجلة فى دفاتر مطعم ماريو، وكان عليه أن يعترف أنها مضبوطة، والأتكى من ذلك أن السيد ماريو كان يدفع ما عليه من ضرائب دائماً فى الوقت المحدد، ومع ذلك لم يكن لدى السيد كارترايت أدنى شك فى أن السيد جامبوتى لا بد أنه يسرب مبالغ ضخمة من المال، ولكن كيف؟ لا بد أن هناك شيئاً فاته. قفز كارترايت من فراشه فى منتصف الليل وصاح بصوت عال: "لا بطاقات الثمانية"، وأيقظ زوجته.

فى الصباح التالى، راجع كارترايت الدفاتر مرة أخرى، كان على حق، لم يكن هناك أية بنود تخص البطاقات الائتمانية. وبالرغم من ذلك فقد كانت كل الشيكات مسددة، وكل حسابات الزبائن مستوفاة، والمبلغ الصغير من المال الذى ظهر لا يتناسب تماماً مع المكتسبات الإجمالية.

لم يكن السيد كارترايت غافلاً عن أن رؤساءه لن يسمحوا له بإهدار المزيد من الوقت فى تناول الطعام فى مطعم ماريو من أجل أن يحل لغز الطريقة التى يخفى بها السيد ماريو مثل تلك المبالغ المالية الكبيرة من حساباته. وافق السيد بوكانا على مفضل على أن يمنح دينيس مبلغاً مقدماً قيمته مائتا جنيه لكى يحاول أن يكتشف ما الذى كان يحدث بالداخل لا بد من

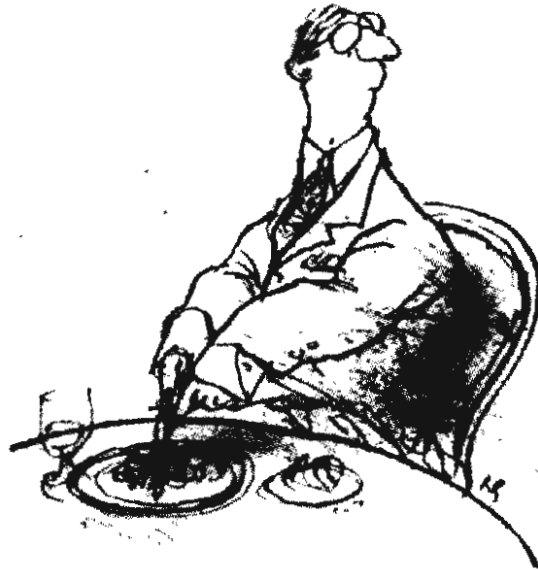
جيفرى آرشر

تبرير إنفاق كل بنس بل إن رئيسه لم يوافق على ذلك إلا بعد أن أوضح دينيس له أنه لو استطاع أن يجمع أدلة كافية ليسجن جامبوتى، فلنتخيل كيف سيشعر كثيرون آخرون من مالكي المطاعم بأنهم ملزمون بالإعلان عن مكاسبهم الحقيقية.

فوجئ السيد كارترأيت أنه يلزمه شهر ليحجز مائدة فى مطعم ماريو، ولم يتم ذلك إلا بعد عدة اتصالات، أجراها على الدوام من المنزل، حتى استطاع أخيراً أن يضمن حجراً. طلب من زوجته دوريس أن تصحبه، آملاً أن يبدو الأمر أقل إثارة للريبة عما لو أنه جلس بمفرده، وراح يدون الملاحظات. وافق مشرفه على هذه الذريعة، لكنه أخبر دينيس بأن عليه أن يتكفل بنصف قيمة الفاتورة، من جيبه الخاص.

أكد دينيس لمشرفه قائلاً: "لم يخطر بعتلى أبداً أن أفعل غير هذا".

خلال تناول وجبة من حساء البقول التوسكانى وطبق الجنوشى كان دينيس يتمنى أن يقوم بأكثر من زيارة لمطعم



ماريو ظل يتابع مالك المطعم بعين يقظة فيما كان يدور حول الموائد؛ ليثرثر في محادثات صغيرة ويستجيب لأهون مطالب زبائنه. لم تستطع زوجته أن تمنع نفسها من الانتباه لشروده، لكنها قررت ألا تعلق على ذلك، بما أنه من النادر أن يدعوها زوجها لتناول الطعام بالخارج، باستثناء يوم عيد ميلادها.

بدأ السيد كارتر ايت يسجل في ذاكرته أنه يوجد ثمان وثلاثون مائدة تتناثر في المطعم (وقد تأكد من ذلك المرة بعد الأخرى) ومائة وعشرون غطاء مائدة تقريباً. كما لاحظ أيضاً بينما كان يحتسى قهوته في تأن بالغ أن ماريو أفلح في تنظيم جلستين لضيوف مختلفين على موائد عديدة. كما أعجب بالسرعة التي يتمكن بها ثلاثة نادلين من تنظيف إحدى الموائد، واستبدال مفارشها ومناديلها؛ بحيث تبدو في غضون دقائق كما لو أن أحداً لم يجلس إليها بالمرّة.

عندما قدم السيد ماريو الفاتورة دفعها دينيس بنقود سائلة وأصر على أن يأخذ إيصالاً بالدفع. عندما غادر المطعم، قادت دوريس السيارة إلى البيت؛ مما أتاح لـ دينيس أن يدون كل الأرقام المهمة في دفتره الصغير بينما لا تزال حاضرة في ذاكرته.

قالت زوجته معلقة بينما هما في رحلة العودة إلى رامفورد: "كم كانت وجبة شهية، كم أتمنى أن يكون بمقدورنا الذهاب إلى هناك مرة أخرى".

وعدها قائلاً: "سوف نذهب الأسبوع القادم"، ثم سكت لبرهة، قبل أن يضيف: "إذا استطعنا الحصول على مائدة".

قام السيد كارتر ايت وزوجته بزيارة المطعم مرة أخرى بعد ذلك بثلاثة أسابيع، وهذه المرة لتناول وجبة العشاء. وكم تأثر دينيس عندما تذكر ماريو اسمه، ليس هذا وحسب ولكنه أجلسهما إلى المائدة نفسها. وبهذه المناسبة، فقد لاحظ كارتر ايت أن ماريو

كان بمقدوره أن يجلس زبائنه فى أماكنهم المعتادة فى أول المساء بنجاح تام؛ وفى منتصف المساء بينما يملأ الزبائن المكان؛ وفى وقت متأخر من المساء والمكان نصف ممتلئ؛ بينما تستمر الطلبات ولا تتوقف قبل الحادية عشرة مساءً.

قدر السيد كارتررايت بأن حوالى ثلاثمائة وخمسين زبوناً يدخلون ويخرجون من المطعم فى كل مساء، وإذا أضفت إلى هذا زبائن وجبة الغداء، فإن الإجمالى يقترّب من الخمسمائة زبون كل يوم. كما أنه قدر أن نصفهم تقريباً يدفعون نقداً، لكنه مازال لا يملك أى وسيلة لإثبات هذا.

بلغت فاتورة عشاء دينيس ٧٥ جنيهاً (نظير تناول الطعام فى أحد المطاعم مساءً أكثر من الغداء، ولو أنها تقدم الطعام نفسه فى الحالين). قدر السيد كارتررايت أن كل زبون يدفع ما بين ٢٥ و ٤٠ جنيهاً، وهذا على أقل تقدير. وعلى هذا فإنه فى أى أسبوع، لابد أن ماريو قد خدم على الأقل ثلاثة آلاف زبون، مما يعود عليه بدخل ٩٠ ألف جنيه تقريباً كل أسبوع، مما كان يزيد عن أربعة ملايين كل عام، حتى مع خصم حساب شهر أغسطس.

عندما عاد السيد كارتررايت إلى مكتبه فى الصباح التالى، راح يراجع من جديد دفاتر حسابات المطعم. كان السيد جامبوتى يعلن إجمالى رأس مال يستثمر فى مشروع قيمته مليونان و ١٢٠ ألفاً، ويكشف عن ربح قدره، بعد خصم النفقات، ١٧٢ ألفاً. وعلى هذا فما الذى كان يحدث للمليونين الآخرين؟

بقى السيد كارتررايت متحيراً. أخذ دفاتر الحسابات معه إلى البيت فى المساء، وواصل فحص ومراجعة الأرقام لفترة طويلة من الليل.

"وجدتها!" هكذا صاح قبيل ارتداء منامته. إن أحد بنود النفقات لم يكن مضبوطاً. طلب فى الصباح التالى موعداً لمقابلة مشرفه. أشار دينيس بسبابته نحو أحد بنود قائمة

النفقات، وقال للسيد بوكانان: "سأحتاج إلى أن أضع يدي على تفاصيل هذه الأرقام الأسبوعية بالذات" ثم أضاف قائلاً: "والأهم ألا يدرك السيد جامبوتى ما أقوم به". صرح له السيد بوكانان بأن يتغيب عن الحضور إلى المكتب طالما أن الأمر لا يستدعى أية زيارات أخرى لمطعم ماريو.

أمضى السيد كارترأيت أغلب وقته خلال إجازة نهاية الأسبوع يطور من خطته ويجودها، مدركاً أن أهون إشارة توحى للسيد جامبوتى بما يجهز له سوف تتيح له ما يكفى من الوقت لمحو أى أثر يمكن تعقبه من خلاله.

استيقظ السيد كارترأيت مبكراً صباح يوم الاثنين وقاد سيارته حتى فولهام، غير حريص على الذهاب للمكتب لتسجيل حضوره. أوقف سيارته السكودا على جانب من أحد الشوارع، فى موقع يمنحه رؤية واضحة لمدخل مطعم ماريو. أخرج دفتر ملاحظاته من جيب داخلى وبدأ يدون أسماء كل مورد مؤن وتاجر زار المحل فى ذلك الصباح.

أولى الشاحنات الصغيرة التى وصلت وتوقفت عند الخط الأصفر المزدوج قبالة الباب الأمامى للمطعم كانت تخص شركة معروفة لتوريد الخضراوات، تبعتها بعد دقائق قليلة سيارة الجزائر. كان بائع الزهور الأنيق هو صاحب الدور التالى لتسليم بضاعته، وتبعه تاجر المشروبات، ثم تاجر السمك وأخيراً وصلت الشاحنة التى كان السيد كارترأيت بانتظارها شاحنة غسل المفروشات. أخرج السائق منها ثلاثة صناديق كبيرة، أوصلها إلى داخل المطعم وخرج عائداً، حاملاً ثلاثة صناديق أخرى إلى الشاحنة وقاد شاحنته منصرفاً بعد ذلك مباشرة. لم يكن السيد كارترأيت فى حاجة إلى أن يتبع الشاحنة؛ لأن اسم الشركة وعنوانها ورقم هاتفها كانت كلها مطبوعة على كلا جانبي السيارة.

عاد السيد كارترايت إلى المكتب، واستقر خلف مكتبه قبيل منتصف النهار، وعلى الفور أبلغ مشرفه بما تم وطلب منه إذناً رسمياً بعمل تفتيش مفاجئ على الشركة المعنية. ومرة أخرى صرح له السيد بوكانان بذلك، ولكن مع نصحه هذه المرة بتوخى الحذر، كما نصح السيد كارترايت بأن يجرى تفتيشاً روتينياً معتاداً؛ بحيث لا تكتشف الشركة المعنية ما كان يبحث عنه حقاً. أضاف بوكانان: "قد يقتضى هذا وقتاً أطول ولكنه سوف يمنحنا فرصة أفضل للنجاح على المدى البعيد. سوف أرسل إليهم رسالة قصيرة اليوم، وبعدها تستطيع أن ترتب لقاء معهم، واترك لهم حرية تحديد الموعد".



حرص دينيس على تنفيذ اقتراح مشرفه، وهكذا لم يظهر في مقر شركة ماركو بولو للتنظيف الجاف والفسيل لمدة ثلاثة أسابيع أخرى، وعند ذهابه إلى هناك، وفقاً لموعد محدد، أوضح للمدير أن زيارته ليست سوى فحص روتيني، وأنه لا يتوقع العثور على أي مخالفات.

أمضى دينيس بقية نهاره يراجع ويدقق في كل حساب من حسابات زبائنهم، ولا يتوقف لتدوين ملاحظات تفصيلية إلا عندما يقابل صفحة تخص مطعم ماريو. وبحلول منتصف

النهيار كان قد جمع كل الأدلة التي يحتاج إليها، لكنه لم يغادر شركة ماركو بولو حتى الساعة الخامسة؛ بحيث لا يرتاب أحد في شيء. قبل أن يغادر دينيس في نهاية اليوم أسر للمدير أنه راضٍ كل الرضا عن دفاتر حساباتهم وأنه لن توجه إليهم مساءً أخرى، وما لم يخبرهم به هو أن من ستتم مساءً لته هو واحد من أهم الزبائن لديهم.

في الثامنة من صباح اليوم التالي اتخذ السيد كارترايث مجلسه إلى مكتبه، حريصاً على الانتهاء من تقريره قبل وصول رئيسه.

عند وصول السيد بوكانان في التاسعة إلا خمس دقائق، وثب دينيس ناهضاً عن مكتبه وعلى محياه أمارات الانتصار. كان على وشك أن يعلن ما لديه من أنباء، حين وضع المشرف إصبعاً على شفثيه وأشار له أن عليه أن يلحق به في مكتبه. ما إن أغلق الباب حتى وضع دينيس التقرير على المنضدة وأخذ يعرض على رئيسه تفاصيل تحرياته. انتظر بصبر جميل بينما يفحص السيد بوكانان الوثائق ويتأمل تداعياتها المحتملة. رفع نظره أخيراً عن الأوراق؛ ليشير إلى دينيس أن بوسعه أن يتحدث.

وشرع دينيس في الحديث: "يظهر لنا هذا أنه في كل يوم خلال الاثنى عشر شهراً الماضية كان السيد جامبوتى يرسل مائتى مفرش مائدة وأكثر من خمسمائة مندبل مائدة إلى شركة ماركو بولو، وإذا نظرت فقط سيادتكم إلى هذه الصفحة" - وأضاف مشيراً إلى دفتر حسابات مفتوح على الجانب الآخر من المكتب - "فسوف تلاحظ أن جامبوتى لم يكن يعلن إلا عن مائة وعشرين حجراً في اليوم الواحد، من أجل حوالى ثلاثمائة زيون". وتوقف دينيس قليلاً قبل أن يعلن ضربته القاضية كمحاسب: "لماذا يحتاج إلى أن يرسل إلى الغسيل كل عام أكثر من ثلاثمائة مفرش مائدة

وخمسة وأربعين ألف منديل مائدة إلا إذا كان يستقبل خمسة وأربعين ألفاً زبون آخر؟" ثم توقف من جديد. "إنه يمارس غسيل الأموال"، قالها دينيس دون أن يخفى رضاه عن التورية المضمنة في عبارته.

قال رئيس القسم: "أحسنت صنفاً يا دينيس، أعد تقريراً كاملاً وسوف أتأكد من تحويله لقسم جرائم الغش والاحتيال".

حاول ماريو محاولات شتى دون أن ينجح في أن يفسر لمحامييه المحبط السيد جيرالد هندرسن سبب إرساله ثلاثة آلاف من مفارش المائدة وهـ؛ ألفاً من المناديل للغسيل. لم يكن لدى المحامي إلا نصيحة واحدة يقدمها له: "فلتعترف بجرمك، وسوف أرى إن كان بوسعى الوصول لتسوية من أجل تخفيف الحكم".

نجحت مصلحة الضرائب البريطانية في المطالبة باسترداد مليونى جنيه كضرائب على مطعم ماريو، وحكم القاضى على ماريو جامبوتى بالسجن لمدة ستة شهور، وانتهى الأمر بالسجن المشدد لمدة أربعة أسابيع لا أكثر فقد أعفى من باقى المدة لحسن



المايسترو

سيره وسلوكه بالسجن؛ ولأنها كانت سابقته الأولى فقد وضع تحت المراقبة لمدة شهرين.

بل إن محاميه المحنك السيد هندرسن نجح فى إدراج القضية بحيث تنظر أمام المحكمة خلال الأسبوع الأخير من شهر يوليو. وفسر الأمر للقاضى بأن ذلك هو الوقت الوحيد الذى سيتمكن فيه النائب العام القادم بالمثل أمام سيادته. وافق جميع الأطراف على موعد ٣٠ يوليو.

وبعد أسبوع أمضاه ماريو فى سجن بلمارش المشدد الحراسة بجنوب لندن، تم نقله إلى سجن معسكر مفتوح ببحر الشمال فى لنكولنشاير؛ حيث أكمل تنفيذ حكمه. اختار محامى ماريو هذا السجن لأنه لم يكن يميل لأن يلتقى مصادفة بأحد زبائنه القدامى هناك فى مستنقعات لنكولنشاير.

وفى هذه الأثناء، استقل أفراد أسرة جامبوتى طائرة إلى فلورنسا لقضاء شهر أغسطس؛ حيث عجزوا أن يقدموا للجدات مبرراً وجيهاً لعدم قدوم ماريو هذه المرة معهم.

أطلق سراح ماريو من معسكر بحر الشمال فى التاسعة من صباح أول أيام شهر سبتمبر.

وبعد أن اجتاز البوابة الأمامية وجد ابنه تونى يجلس أمام مقود سيارته الفيرارى، بانتظار أن يصطحب والده للمنزل. وبعد ثلاث ساعات كان ماريو يقف بالباب الأمامى لمطعمه ليقدم التحية لأول الزبائن، وقد علق كثير من الزبائن حول فقدانه لبعض الأبطال من وزنه أثناء سفره فى الإجازة، بينما أشار آخرون إلى أن بشرته قد اكتسبت سمرة، وجسده صار أكثر رشاقة وأكثر لياقة.

بعد إطلاق سراح ماريو بستة أشهر، قرر مشرف مصلحة الضرائب الذى تمت ترقيته مؤخراً لهذا المنصب أن يجرى

تفتيشًا مفاجئًا آخر على شركة ماركو بولو للتنظيف الجاف. فى هذه المرة ظهر دينيس، المشرف الجديد، دون إشعار مسبق. وأجرى عينه الخبيرة على الدفاتر؛ ليتبين أن ماريو صار يرسل حاليًا ١٢٠ مفرش مائدة للتنظيف كل يوم، بالإضافة إلى ٣٠٠ منديل مائدة، بالرغم من حقيقة أن المطعم كان يتمتع فيما يبدو بنفس الشعبية. فكيف أفلح فى الإفلات هذه المرة؟

فى الصباح التالى أوقف دينيس سيارته السكودا بطريق فولهام من جديد، بما يتيح له رؤية غير مشوشة للباب الأمامى لمطعم ماريو. كان على ثقة بأن ماريو لا بد أن يستخدم الآن أكثر من شركة واحدة للتنظيف الجاف، ولكن ما خيب ظنه أن الشاحنة الوحيدة التى جاءت لتتسلم المفارش ثم غادرت فى ذلك اليوم كانت هى شاحنة شركة ماركو بولو.

قاد السيد كارتر ايت سيارته عائداً إلى رامفورد فى الثامنة مساءً، وهو فى حيرة تامة، ولو أنه ظل يراقب المطعم إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، لكان قد رأى الكثير من النادلين يغادرون المطعم حاملين حقائب رياضية منتفخة تبرز من فتحاتها مضارب الاسكواش. هل سبق لك أن رأيت أى نادل إيطالى يلعب الاسكواش؟

كان العاملون بمطعم ماريو سعداء بأن زوجاتهم يستطيعن كسب بعض النقود الإضافية بالقيام بغسل قليل من المفارش والمناديل كل يوم، وخصوصاً أن السيد جامبوتى قد زود كلاً منهن بغسالة فاخرة.

حجزت مائدة بمطعم ماريو لتناول الغداء هناك يوم الجمعة التالية على إطلاق سراحى من السجن. كان يقف بعتبة الباب، بانتظارى لتحتيتى، وفى الحال قادونى إلى مائدتى المعتادة فى ركن بجوار النافذة، كما لو أننى لم أتغيب قط.

المايسترو

لم يتجشم ماريو عناء تقديم قائمة الطعام لى؛ ذلك أن زوجته قد ظهرت من المطبخ وهى تحمل طبقاً كبيراً من الإسباجيتى، وضعتة على المائدة قبالتى. وتبعها تونى ابن ماريو مباشرة وبين يديه إناء صلصة البولونيز التى يتصاعد منها الدخان، ثم ابنته ماريا ومعها قطعة كبيرة من جبن البارميزان ومبشرة لبشر الجبن.

اقترح ماريو وهو يفتح سداة إحدى الزجاجات : "زجاجة من عصير المانجو الممتاز"، ثم أصر : "تحية من المطعم". قلت : "شكراً لك يا ماريو، بالمناسبة، إن مدير سجن معسكر بحر الشمال حملنى أطيب أمنياته لك".

تنهد ماريو قائلاً : "يا مايكل البائس، أى حياة مؤسفة يعيشها! هل يمكنك أن تتخيل، مجرد أن تتخيل شخصاً يعيش عمره كله دون أن يتناول شيئاً غير طعام السجن البائس، المكون من فئران فى الطبق الرئيسى وبكتيريا السلمونيللا للتحلية؟"، وابتسم وهو يصب لى العصير قائلاً : "مهما كان يا مايسترو، أرجوك أن تعتبر نفسك فى بيتك".

لا تشرب الماء



قال لي كارل: "إذا أردت أن تقتل شخصاً ما فلا تفعل ذلك في إنجلترا".

سألته ببراءة: "ولم لا؟".

فقال كارل زميلي بالسجن محذراً: "لأنه لا توجد فرصة لأن تفلت بفعلتك دون عقاب"، وواصل بيثما نسير على محيط باحة التمرينات البدنية: "سوف تحظى بفرصة أفضل كثيراً في روسيا".

قلت مؤكداً: "سأحاول ألا أنسى هذا".

أضاف كارل: "ولعلمك لقد عرفت رجلاً من بلادكم أفلح في أن يفلت دون عقاب على جريمة قتل، ولكن هذا كلفه الكثير".

كانت تلك هي ساعة الاختلاط؛ الخمس والأربعون دقيقة المنتظرة التي يُطلق سراح السجناء من الزنازين، ويكون لكل منهم أن يختار بين أن يقضى وقته في الطابق الأرضي وهو في مساحة ملعب كرة السلة تقريباً فيجلس هناك ليثرثر أو يمارس تنس الطاولة أو يشاهد التلفاز، وبين أن يخرج ليتنسم الهواء النقي ويتمشى حول محيط الياحة التي تقارب في مساحتها مساحة رقعة ملعب كرة القدم تقريباً. وعلى الرغم من أنني أكون محاطاً بسور إسمنتي يعلوه سلك شائك يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً دون القدرة على التطلع إلى أي شيء إلا السماء من فوقى فقد كان هذا الوقت هو أسعد أوقات اليوم بالنسبة لي.

بينما كنت سجيناً فى سجن بلمارش وهو سجن الفئة الأولى من حيث تشديد الحراسة ويقع جنوب شرق لندن كنت أبقي فى زنزانتي المغلقة لمدة ثلاث وعشرين ساعة فى اليوم (تخيل هذا). ولا يسمح للسجين إلا بأن يخرج للمقصف لى يحصل على طعام غدائه (لمدة خمس دقائق)، الذى يتناوله بعد ذلك فى زنزانتة. بعد خمس ساعات يخرج لتسلم عشائه (خمس دقائق أخرى)، وحين ذلك يقدمون له كذلك إفطار الغد فى كيس بلاستيكي بحيث لا يضطرون لإخراجه من جديد إلا فى موعد غداء اليوم التالى. كان وقت الاختلاط هو الوقت الوحيد الذى نخرج فيه من الزنازين إلى جانب أوقات خروجنا لتسلم الوجبات، وحتى ذلك قد يلفى إذا ما قل عدد حراس السجن عن المعتاد (وهو ما كان يحدث مرتين كل أسبوع).

كنت دائماً ما أستغل ذلك المتنفس الذى مدته خمس وأربعون دقيقة فى ممارسة المشى السريع والنشط، لسببين؛ أولهما أنه كان على أن أتمرن لأننى كنت معتاداً قبل دخول السجن على الذهاب لصالة الألعاب الرياضية القريبة من المنزل خمسة أيام أسبوعياً، وثانياً لى لا يتجشم الكثير من السجناء عناء مصاحبتي فى المشى السريع، لكن كارل كان هو الاستثناء الوحيد.

ولد كارل فى روسيا ونشأ فى مدينة بطرسبرج الجميلة. كان قاتلاً مأجوراً، وقد بدأ منذ قريب تنفيذ حكم بالسجن لمدة ٢٢ عاماً لقتله أحد الرفاق من بنى بلده كان قد سبب متاعب لإحدى عائلات المافيا هناك بالوطن. كان يقوم بتقطيع جثث ضحاياه إلى أشلاء صغيرة، ويضع ما تبقى منهم فى محرقة تحيلهم إلى رماد. وبالمناسبة، فى حالة ما إذا احتجت للتخلص من أحدهم، فإن أجرته خمسة آلاف جنيه.

كان كارل رجلاً ضخماً مثل الدب، طوله ست أقدام وعرضه قدمان وله بنية جسدية لرافع أثقال. كان جسمه مغطى

لا تشرب الماء

بالأوشام ولا يتوقف أبداً عن الحديث. وبناء على ما قدمته من وصف له، رأيت أنه من الحكمة ألا أقاطع تدفق حديثه قط. ومثل الكثيرين من المساجين، لم يتحدث كارل عن جريمته هو، والقاعدة الذهبية في السجن إن حدث وانتهى بك الأمر خلف قضبانه هي ألا تسأل أبداً أي سجين عما أدى به إلى هناك، إلا إذا أثار هو الموضوع. ومع ذلك، فقد روى لي كارل حكاية رجل إنجليزي مر بمدينة بطرسبرج؛ حيث كان كارل، حسب زعمه، شاهد عيان على الأحداث أثناء عمله سائقاً لدى أحد الوزراء. وبالرغم من أننا كنا، أنا وكارل، نزيلين في عنبرين مختلفين؛ فقد كنا نلتقى بانتظام خلال الاستراحة. ولكن الأمر اقتضى جولات عديدة حول الباحة قبل أن أعرف منه قصة ريتشارد بارنزلي.



لا تشرب الماء. حدق ريتشارد بارنزلي (ديك) في البطاقة البلاستيكية الصغيرة التي وضعت فوق حوض الاغتسال في حمامه. لا يتوقع المرء وجود مثل هذا النوع من التحذيرات إذا كان نزياً بفندق خمس نجوم، إلا إذا كان بالطبع في مدينة بطرسبرج. بجانب الملاحظة وضعت زجاجتا مياه من نوع إيفيان. حين سار ديك عائداً إلى غرفة نومه الفسيحة وجد زجاجتين أخريين موضوعتين على كلا جانبي الفراش المزدوج، وزجاجتين أخريين على المنضدة المجاورة للنافذة. لقد اتخذت الإدارة كل الاحتياطات اللازمة.

سافر ديك حتى بطرسبرج من أجل إتمام تعاقد مع الروسيين. فقد اختيرت شركته لإنشاء خط أنابيب سوف يمتد من جبال الأورال حتى البحر الأحمر، قدمت شركات عديدة أخرى، أكثر رسوخاً من شركته، عروضها للفوز بالمشروع، وعلى خلاف الاحتمالات الوجيهة، فقد فازت شركة ديك بالمقولة،

غير أن هذه الاحتمالات صارت لصالحه ما إن ضمن ديك لأناطول تشينكوف، وزير الطاقة، الصديق الشخصى للرئيس، أن يتلقى مبلغ مليونى دولار كل عام حتى نهاية حياته والعملتان الوحيدتان التى يتاجر بهما الروس هما الدولار والموت خصوصاً أن المال سوف يودع بحساب مرقم.

قبل أن يفتح ديك شركته الخاصة، بارنزلى للإنشاءات، تعلم أسرار مهنته بالعمل فى كل من نيجيريا لحساب شركة بشتل، وفى البرازيل لحساب شركة ماكابلاين، وفى السعودية لحساب شركة هانوفر، وخلال تلك الفترة كان قد تعلم حيلة أو اثنتين حول الرشاوى. أغلب الشركات العالمية تعتبر الرشوة ببساطة كأنها نوع من الضرائب، وتعد ما يلزمها من مال كلما قدموا عطاء للفوز بأحد المشروعات. والسرد دائماً هو أن تعرف مقدار المال الذى يجب تقديمه للوزير، والمقدار القليل اللازم للتعامل مع معاونيه.

كان أناطول تشينكوف وهو أحد الوزراء المعينين من قبل الرئيس بوتين مفاوضاً صعب المراس، ولكنه كان برتبة ميajor فى المخابرات الروسية تحت نظام حكم سابق. ومع ذلك فحين تعلق الأمر بفتح حساب فى سويسرا، كان من الواضح أن الوزير مبتدئ وبلا خبرة. وقد أحسن ديك استفلال هذا؛ فعلى كل حال لم يسبق لتشينكوف أن سافر خارج الحدود الروسية قبل أن يدخل إلى اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى. اصطحبه ديك فى رحلة جوية إلى جنيف خلال إجازة نهاية الأسبوع، بينما كان هو فى زيارة رسمية إلى لندن من أجل محادثات تجارية. فتح له حساباً مرقماً ببنك بيكيت وشركاه، وأودع فيه مائة ألف - كمبلغ مبدئى - ولكنه أكثر مما جناه تشينكوف طوال حياته. كان الهدف من هذا الطعم حلو المذاق التأكد من أن الحبل السرى سيبقى بينهما حتى توقيع العقد؛ العقد الذى سيتيح لـ ديك أن يتقاعد بدخل يتجاوز

كثيراً المليونين سنوياً.

عاد ديك إلى الفندق ذلك الصباح بعد اجتماعه الأخير بالوزير، وقد صار يراه يومياً خلال الأسبوع الماضي، أحياناً في أماكن عامة، والأغلب على انفراد في أماكن خاصة. لم يكن الأمر يختلف عندما زار تشينكوف لندن. لا أحد منهما وثق في الآخر، ولكن ديك لم يشعر بالارتياح لأي شخص على استعداد لتقاضى رشوة؛ لأن هناك دائماً شخصاً آخر يسره أن يدفع له نسبة مئوية أفضل، وعلى الرغم من ذلك، شعر ديك بمزيد من الثقة هذه المرة، ذلك أن كلاهما بدا راغباً في توقيع العقد من أجل حلم التقاعد نفسه.

كما نجح ديك في تقوية العلاقة بينهما عن طريق بعض الخدمات الإضافية التي سرعان ما اعتادها تشينكوف. سيارة رولزرويس تقله من مطار هيثرو إلى فندق سافوي. وعند وصوله كان يتم استقباله في الجناح المطل على النهر من الفندق، وكانت تظهر النساء كل ليلة في جناحه بكل الأشكال والأحجام.

عندما غادر ديك فندق سانت بطرسبرج بعد ذلك بساعة ونصف، كانت سيارة الوزير إيم دابليو متوقفة أمام الباب الأمامي لتصحبه إلى المطار، وعندما جلس بالمقعد الخلفي، اندهش حين وجد تشينكوف بانتظاره؛ فلم تمض سوى ساعة واحدة على تفرقهما بعد اجتماع الصباح.

سأله في قلق: "أئمة مشكلة يا تشينكوف؟"

قال تشينكوف: "على العكس، لقد تلقيت مكاملة من الكرملين للتو، وقد أحسست أنه لا ينبغي علينا مناقشتها هاتفياً، أو حتى في مكاتبى. سوف يقوم الرئيس بزيارة سانت بطرسبرج في السادس عشر من مايو وقد أعلن رغبته في ترأس مراسم توقيع العقود". قال ديك: "لكن هذا لا يتيح لنا إلا ثلاثة أسابيع أو أقل من

أجل إتمام التعاقد".

ذكره تشينكوف قائلاً: "لقد أكدت لى أثناء اجتماعنا هذا الصباح أنه لم يتبق إلا القليل الذى يجب القيام به والمروء فوقه وهو تعبير غريب لم يسبق لى أن سمعت به قبل أن تكون قادراً على إنهاء إجراءات التعاقد. توقف الوزير لبرهة وأشعل سيجاره الأول لهذا اليوم قبل أن يضيف قائلاً: "مع وضع هذا فى الاعتبار يا صديقى العزيز، فإننى أتطلع لرؤيتك تعود إلى سانت بطرسبرج خلال ثلاثة أسابيع". بدت عبارة تشينكوف عادية وبسيطة، ولكن فى حقيقة الأمر، لقد لزمهما ثلاثة أعوام ليصل هذان الرجلان إلى هذه المرحلة، والآن لم يتبق إلا أسابيع ثلاثة قبل إبرام الصفقة أخيراً.

لم يجبه ديك؛ فقد كان مازال يفكر فى كل ما يجب إنجازه ما إن تلمس طائرته أرض مطار هيثرو.

سأله تشينكوف مقاطعاً تتابع أفكاره: "ما أول شىء سوف تقوم به بعد إبرام الصفقة؟"

"سأقدم عرضاً للحصول على تعاقد إنجاز المرافق الصحية فى هذه المدينة، فأياً كان الشخص الذى سيفوز بها فلا شك أنه سيفوز بثروة أضخم بكثير.

نظر الوزير حوله بحدة، وقال بجديّة: "إياك وإثارة هذا الموضوع فى أماكن عامة على مسامع الناس؛ فهى مسألة بالغة الحساسية".

تحلى ديك بالصمت.

"واعمل بنصيححتى، لا تشرب الماء. فى العام الماضى فقدنا عددًا لا يحصى من مواطنينا الذين تعاقدوا على...".

تردد الوزير، وأحجم عن إضافة مزيد من المصادقية على قصة زينت بعناوينها الصفحات الأولى لكل صحيفة فى الغرب.

تساءل ديك: "كم يبلغ ذلك العدد الذى لا يحصى؟"

"صفر" هكذا أجابه الوزير، ثم أضاف بينما توقفت السيارة أمام خط أحمر مزدوج خارج مدخل مطار بولكوفو الثاني: "أى ولا واحد، أو ذلك على الأقل ما صرحت به الإحصاءات الرسمية التى أصدرها وزير السياحة"، ثم انحنى للأمام وقال: "كارل، خذ أمتعة السيد بارنزلى لكى تسجلها على الطائرة بينما أنتظرك هنا".

مال ديك للأمام وصافح الوزير للمرة الثانية هذا الصباح. قال: "شكرًا لك يا أناتول على كل شيء، أراك بعد ثلاثة أسابيع".

قال تشينكوف بينما خرج ديك من السيارة: "عمرًا مديدًا وسعيدًا يا صديقى".

سجل ديك بياناته فى مكتب المغادرة قبل ساعة من موعد رحلته إلى لندن.

انبعث صوت ذورنين من مكبر الصوت: "هذا هو النداء الأخير للرحلة ٩٠٢ المغادرة إلى لندن، مطار هيثرو".
سأل ديك الموظف: "هل هناك أية رحلة أخرى مغادرة إلى لندن الآن؟".

أجاب الرجل من وراء مكتب التسجيل: "نعم، الرحلة ٩٠٢ قد تأخر موعدها وستنطلق الآن، لكنهم على وشك إغلاق البوابة".

سأل ديك، بينما مرر ورقة نقدية فئة ألف روبية فوق المنضدة قائلاً: "أيمكنك أن تضعنى عليها؟".

حطت الطائرة التى استقلها ديك على أرض مطار هيثرو بعد ذلك بثلاث ساعات ونصف؛ وما إن تسلم أمتعته من الناقل الدوار، دفع أمامه عربة نقل الأمتعة عبر القناة الخالية ودخل قاعة الوصول.

كان سائقه الخاص، ستان، منتظرًا بالفعل بين مجموعة من المسائقيين، أغلبهم يمسكون بطاقات كتبت عليها أسماء. ما

إن لحظ ستان سيده حتى اتجه نحوه فى الحال وأراحه من الحقيبة الكبيرة وحقيبة الكتف.
"إلى المنزل أم إلى المكتب؟"، هكذا سأله ستان بينما سارا نحو موقف السيارات المحدد الوقت.
تفقد ديك ساعته: تجاوزت الرابعة بقليل. قال: "المنزل، سأعمل هنا بالسيارة".

ما إن انطلقت سيارة ديك الجاجوار من الموقف لتبدأ رحلتها إلى فرجينيا ووتر حتى اتصل بمكتبه.
انبعث صوت يقول: "مكتب ريتشارد بارنزلى".
قال ديك: "مرحباً يا جيل، إنه أنا. لقد تمكنت من اللحاق برحلة مبكرة، وأنا فى طريقى للمنزل. هل هناك أى شىء على أن أقلق بشأنه؟"

أجابت جيل: "كلا، كل شىء يجرى على ما يرام، جميعنا ننتظر حتى نعرف كيف سارت الأمور فى سانت بطرسبرج".
"لا يمكنها أن تكون أفضل من هذا. يريدنى الوزير أن أعود إليهم فى السادس عشر من مايو لتوقيع العقد".
"ولكن هذا بعد أقل من ثلاثة أسابيع".

"مما يعنى أنه سيكون علينا جميعاً أن نتحرك بسرعة. رتبى إذن لاجتماع مجلس إدارة فى وقت مبكر من الأسبوع القادم، ثم حددى لى موعداً للقاء سام كوين غداً صباحاً قبل أى شىء آخر. لا يمكننى تحمل نتائج أية هفوات فى هذه المرحلة".
"هل يمكننى أن أسافر معك إلى سانت بطرسبرج؟"

ليس هذه المرة يا جيل، ولكن ما إن يتم توقيع العقد أى بعد عشرة أيام بالتمام، عندئذ سأخذك إلى مكان أفضل من سانت بطرسبرج".

جلس ديك هادئاً فى المقعد الخلفى للسيارة، وراح يراجع كل شىء يجب تنفيذه قبل أن يعود إلى سانت بطرسبرج، وعندما

عبر السائق ستان البوابات الحديدية وتوقف أمام القصر بطرازه المعماري الذي يعود للعصر الجورجي الحديث كان ديك قد عرف على التحديد ما ينبغي عمله. قفز خارجاً من السيارة وركض إلى داخل المنزل. ترك الأمتعة لكي يخرجها ستان من السيارة ثم لتفرغها مديرة منزله بعد ذلك. اندهش ديك لعدم رؤيته زوجته تقف أعلى السلم الخارجى للمنزل، بانتظار أن تقدم له التحية، لكنه تذكر عندها أنه لحق برحلة طيران مبكرة، وأن زوجته مورين لم تكن تتوقع عودته قبل ساعتين أخريين على الأقل.

صعد ديك للدور العلوى ركضاً إلى غرفة نومه، وتخلص من ملابسه بسرعة، وأسقطها في كومة على الأرض. دخل الحمام واتجه صوب الدش، تاركاً زخات المياه الدافئة أن تخلصه ببطء من وعاء سانت بطرسبرج وأيروفلوت.

بعد أن ارتدى بعض الملابس المريحة، تفقد ديك مظهره في المرأة. إنه في الثالثة والخمسين من العمر، وقد شب المشيب في شعره بثبات، وعلى الرغم من محاولته شد معدته إلى الداخل، كان يعلم أن عليه أن ينقص وزنه بضعة أرطال، بما يسمح له أن يشد حزام سرواله أضيق بثقبين - ما إن يتم توقيع هذا التعاقد ويصير لديه بعض الوقت الفائض - هكذا وعد نفسه.

غادر غرفة النوم، وهبط نحو المطبخ. طلب من الطاهية أن تعد له طبق سلطة، ثم تمشى إلى غرفة المكتب، والتقط صحيفة التايمز، وألقى نظرة على العناوين الرئيسية. رئيس جديد لحزب المحافظين، ورئيس جديد لحزب الديمقراطيين الليبراليين، وقد انتخب الآن جوردون براون لرئاسة حزب العمل. ما من حزب واحد من الأحزاب الكبرى سيخوض الانتخابات التالية تحت رئاسة الزعيم نفسه.

رفع ديك بصره عن الصحيفة حين دق جرس الهاتف. سار حتى المكتب الذي تستخدمه زوجته والتقط السماعة، فسمع

صوت جيل على الطرف الآخر من الخط.
قالت له: "تم تحديد اجتماع مجلس الإدارة يوم الخميس
التالى فى العاشرة صباحاً، وقد رتبت لك كذلك موعداً مع
سام كوين بمكتبه فى الثامنة من صباح الغد". أخرج ديك
قلمًا من جيب داخلى لسترته، ثم أضافت جيل: "وقد أرسلت
رسالة إلكترونية لكل أعضاء مجلس الإدارة للتذكير بأهمية
الاجتماع".

"فى أى موعد قلت سألتقى بسام غدًا؟"
"الثامنة صباحاً بمكتبه. عليه أن يكون بالمحكمة الساعة
العاشرة من أجل عميل آخر".

قال ديك: "رائع"، ثم فتح جارور مكتب زوجته والتقط
أول ورقة كانت بمتناول يده. كتب: سام، مكتبه، ٨، الخميس
اجتماع الإدارة، ١٠. وأضاف قائلاً: "أحسنت عملاً يا جيل، من
الأفضل أن تحجزى لى بفندق جراند بالاس، وترسلى للوزير
رسالة إلكترونية لتنبهيه إلى الموعد الذى سأصل فيه".
أجابت جيل: "لقد قمت بذلك بالفعل. وقد حجزت لك
أيضاً على رحلة متجهة إلى سانت بطرسبرج بعد ظهر يوم
الجمعة".

"أحسنت عملاً. أراك بالعمل فى العاشرة صباحاً". وضع
ديك سماعة الهاتف، وسار إلى غرفة مكتبه، وعلى وجهه
ابتسامة عريضة. كان كل شىء يمضى على ما يرام.

عندما وصل إلى غرفة مكتبه، نقل ديك تفاصيل مواعيد
إلى دفتر يومياته. كان على وشك أن يلقي بالورقة إلى سلة
المهملات عندما قرر فقط أن يتفقدتها ليرى إن كانت تتضمن
أى شىء له أهمية. فض الورقة، وبدأ يقرأ ما فيها. تحولت
ابتسامته إلى تقطبية عبوس، قبل أن يصل إلى الفقرة الأخيرة
بوقت طويل، وبدأ يقرأ الرسالة من جديد، التى كتب عليها

لا تشرب الماء

أنها رسالة خاصة وشخصية.

عزيزتى السيدة بارنزلى،

هذا توكيد لموعدهنا بمكتبنا يوم الجمعة، ٣٠ أبريل: حيث سوف نستكمل التوصل لقراراتنا بشأن الموضوع الذى أثرته معى الثلاثاء الماضى؛ وبعد أن راجعت التداعيات الكاملة لقرارك طلبت من شريكى الأساسى أن يشرفنا فى هذه الجلسة. كلانا نتطلع لرؤيتك يوم الثلاثاء من الشهر الحالى.

المخلص

آندرو سيموندز

وعلى الفور التقط ديك سماعة الهاتف على مكتبه؛ وأدار رقم سام كوين، على أمل ألا يكون قد غادر مكتبه مسبقاً وقد أنهى يوم عمله. عندما أجاب سام كوين على خطه الخاص، كان كل ما قاله ديك هو: "هل سمعت بمحام يدعى آندرو سيموندز؟". قال سام: "أعرفه بالاسم فقط، ولكن ذلك لأننى لست مختصاً بقضايا الطلاق".

قال ديك: "الطلاق؟"، ثم سمع صوت سيارة تقترب على المشى المفروش بالحصباء. ألقى نظره خارج النافذة ليرى السيارة الفولكسفاجن تدور فى حلقة وتتوقف قبالة الباب الأمامى. راقب ديك زوجته وهى تخرج من السيارة، ثم أردف قائلاً: "سأراك غداً فى الثامنة صباحاً يا سام، ولن يكون التعاقد الروسى هو الأمر الوحيد على جدول عملنا".

فى الصباح التالى أوصل السائق ديك حتى مكتب سام كوين فى لينكولنزان فيلد قبل الثامنة تماماً ببضع دقائق. نهض المحامى الخاص ليقدم التحية لعميله ما إن دخل الغرفة. أوماً

له ليستريح ويتخذ مقعداً على الجانب الآخر من المكتب.
وقبل أن يستريح فى جلسته فتح ديك حقيبة أوراقه. أخرج
الرسالة ومدّها نحو سام. قرأها المحامى ببطء، قبل أن يضعها
أمامه على المكتب.

قال سام: "لقد فكرت بالمشكلة ليلة أمس، وقد تبادلت الرأى
فى عجالة مع أنا رنتول، شريكنا المختصة بقضايا الطلاق.
وقد أكدت لى أن سيموندى هذا لا يتولى إلا قضايا النزاعات
الزوجية، فمع النظر لهذه المعلومة، يؤسفنى أن أقول لك إننى
مضطر إلى أن أطرح عليك بعض الأسئلة الشخصية للغاية".
أوماً ديك برأسه دون تعليق.

"هل سبق لك أن ناقشت مسألة الطلاق مع مورين؟"
قال ديك بصرامة: "كلا، ولكن تحدث بيننا مشاجرات
بين الحين والآخر، ولكن هل يوجد زوجان عاشا معاً أكثر من
عشرين عاماً دون أن يتشاجرا بين الحين والآخر؟"
"هذا كل ما هنالك؟"

"وقد هددت مرة بأن تتركنى، ولكننى اعتقدت أن الأمر قد
مضى وانقضى". توقف ديك لبرهة ثم أردف: "إننى مندهش،
وحسب، من أنها لم تفتح الموضوع معى قبل أن تذهب لاستشارة
محام".

قال سام: "هذا كله شديد الشيوع، أكثر من نصف الأزواج
الذين ترفع ضدّهم دعاوى للطلاق يقولون إنهم لم يروا نُدْره
تقترب من حياتهم".

اعترف ديك: "لابد أننى من هذه الفئة، والآن ماذا عسائى
أن أفعل بعد ذلك؟"

"ليس بوسعك أن تفعل الكثير قبل أن تتحرك هى بصورة
رسمية، ولا أظن أننا سوف نستفيد أى شىء إذا ما أثرت الموضوع
معها. فعلى كل حال، قد لا يسفر أى شىء عن هذا. ومع ذلك
فهذا لا يعنى أننا لا يجب أن نستعد. والآن، على أى أساس قد

له ليستريح ويتخذ مقعداً على الجانب الآخر من المكتب.
وقبل أن يستريح فى جلسته فتح ديك حقيبة أوراقه. أخرج
الرسالة ومدّها نحو سام. قرأها المحامى ببطء، قبل أن يضعها
أمامه على المكتب.

قال سام: "لقد فكرت بالمشكلة ليلة أمس، وقد تبادلت الرأى
فى عمالة مع أنا رنتول، شريكنا المختصة بقضايا الطلاق.
وقد أكدت لى أن سيموندرز هذا لا يتولى إلا قضايا النزاعات
الزوجية، فمع النظر لهذه المعلومة، يؤسفى أن أقول لك إننى
مضطر إلى أن أطرح عليك بعض الأسئلة الشخصية للغاية".
أوماً ديك برأسه دون تعليق.

"هل سبق لك أن ناقشت مسألة الطلاق مع مورين؟"
قال ديك بصرامة: "كلا، ولكن تحدث بيننا مشاجرات
بين الحين والآخر، ولكن هل يوجد زوجان عاشا معاً أكثر من
عشرين عاماً دون أن يتشاجرا بين الحين والآخر؟"
"هذا كل ما هنالك؟"

"وقد هددت مرة بأن تتركنى، ولكننى اعتقدت أن الأمر قد
مضى وانقضى". توقف ديك لبرهة ثم أردف: "إننى مندهش،
وحسب، من أنها لم تفتح الموضوع معى قبل أن تذهب لاستشارة
محام".

قال سام: "هذا كله شديد الشيوع، أكثر من نصف الأزواج
الذين ترفع ضدهم دعاوى للطلاق يقولون إنهم لم يروا نذره
تقترب من حياتهم".

اعترف ديك: "الابد أننى من هذه الفئة، والآن ماذا عسأى
أن أفعل بعد ذلك؟"

"ليس بوسعك أن تفعل الكثير قبل أن تتحرك هى بصورة
رسمية، ولا أظن أننا سوف نستفيد أى شىء إذا ما أثرت الموضوع
معها. فعلى كل حال، قد لا يسفر أى شىء عن هذا. ومع ذلك
فهذا لا يعنى أننا لا يجب أن نستعد. والآن، على أى أساس قد

"ماذا عساي أن أفعل إذن؟".

"لا تفعل شيئاً قد يثير الشبهات؛ استمر فى متابعة أعمالك كالمعتاد، كما لو أنك لا تعلم شيئاً عما تدبره لك. وفى هذه الأثناء، سوف أرتب استشارة مختصة؛ فعلى الأقل سنكون أفضل استعداداً مما قد يتوقع سيموندرز. وشيء واحد أخير".
قالها سام، وهو ينظر من جديد إلى عيني عميله: "لا مزيد من النزوات العاطفية حتى نجد حلاً لهذه المشكلة. اعتبر ذلك أمراً نافذاً".

راح ديك يراقب زوجته بعين يقظة خلال الأيام القليلة التالية، ولكنها لم تظهر أية إشارة على وجود أى شيء يندب بالشر، وكل ما هنالك أنها أظهرت اهتماماً غير معتاد بسير الأمور فى رحلة سانت بطرسبرج، بل إنها على العشاء فى مساء الخميس سألت زوجها إن كان مجلس الإدارة قد اتخذ قراره بشأن الصفحة.

أجابها ديك مؤكداً: "لقد فعلوا ولا شك، فما إن أوضح لهم سام كل بند، وراجع معهم كل تفصيلة صغيرة، وأجاب عن جميع تساؤلاتهم، حتى وافقوا دون أية اعتراضات وصدقوا على العقد"، ثم صب ديك لنفسه قدحاً ثانياً من القهوة، وقد استولت عليه الدهشة أمام سؤال زوجته التالى.

"لم لا أصحابك فى رحلتك إلى سانت بطرسبرج؟ يمكننا أن نستقل الطائرة معاً يوم الجمعة"، ثم أضافت قائلة: "ونقضى نهاية الأسبوع فى زيارة متحف الهيرميتاج ونزور القصر الصيضى. بل وقد نجد وقتاً كافياً لرؤية مجموعة كاثرين من الكهرمانات - وهو شيء لطالما أردت القيام به".

لم يجبهها ديك فى الحال، مدركاً أنه لم يكن اقتراحاً معتاداً؛ فقد مضت سنوات منذ أن صحبتته مورين فى رحلة عمل. كان أول رد فعل له هو تساؤله فى نفسه عما تدبره زوجته. أجابها أخيراً: "دعيني أفكر فى هذا الأمر". وسها عن قهوته حتى بردت.

بعد دقائق من وصول ديك إلى مكتبه اتصل بسام كوين وحكى له المحادثة مع زوجته.

قال كوين مقترحاً: "لابد أن محاميها سيموندرز نصحها بأن تشهد مراسم توقيع العقد".
"ولكن لماذا؟"

"لكى يتسنى لمورين أن تدعى أمام المحكمة أنها خلال السنوات الماضية لعبت دوراً خطيراً فى نجاحك المهني، وكانت دائماً إلى جوارك تدعمك فى تلك اللحظات المصيرية بحياتك المهنية...".

قال ديك: "سحقاً، لم يكن لديها أدنى اهتمام بكيفية جمع هذه الأموال، كل ما اهتمت به هو كيف يمكنها أن تنفقها".
"...وبالتالى فلا بد أن تطالب بخمسين بالمائة من ممتلكاتك".
اعترض ديك قائلاً: "ولكن هذا قد يبلغ ثلاثين مليون جنيه".

"لابد أن محاميها سيموندرز قد أنجز عمله التحضيرى".
"إذن فسوف أقول لها ببساطة إنها لا يمكنها أن تصحبني فى الرحلة، وأن هذا أمر غير مناسب".

"مما يسمح للسيد سيموندرز أن يغير خططه. فسوف يرسم لك عندئذ صورة رجل بلا قلب، رجل ما أن أصاب نجاحاً حتى استغنى عن زوجته وطرحها خارج حياته، وغالباً ما يسافر إلى الخارج، مصطحباً سكرتيرته التى —".

"حسناً، حسناً، فهتمت المقصود. وهكذا فالسماح لها بالمجئ معى إلى سانت بطرسبرج سيكون هو أهون الضررين".
قال سام ناصحاً: "هذا من ناحية...".

قاطعته ديك قبل أن يكمل جملته قائلاً: "يا للمحامين الملاعين!".

عقب سام على كلامه قائلاً: "من الغريب أن لا تحتاج إلينا إلا حين تقع فى ورطة، إذن دعنا نكن متأكدين هذه المرة أننا نتوقع تحركها التالى".

"وماذا عساه أن يكون؟".

"ما أن تصبح معك فى سانت بطرسبرج فسوف تبدأ فى التقرب إليك".

"لم يجمعنا لقاء زوجى على مدى سنوات".

"ولكنها ستقول: لم أكن أنا السبب فى هذا يا سيدى القاضى".

قال ديك: "سحقاً، لا يمكننى الفوز فى هذه المعركة".

"بل يمكنك الفوز مادمت لا تتبع نصيحة الليدى لونجفورد - فعندما سئلت إن كانت قد فكرت أبداً فى طلب الطلاق من اللورد لونجفورد أجابت قائلة: "الطلاق، أبداً، ولكن القتل هو ما فكرت فيه كثيراً".

بعد أسبوعين وصل السيد ريتشارد وحرمه إلى فندق جراند بالاس فى سانت بطرسبرج. وضع حمال أمتعتيها على نقال، ثم صحبهما إلى جناح مخصوص باسم تولستوى فى الطابق التاسع.

"على أن أدخل الحمام"، هكذا قال ديك مندفعاً إلى داخل الغرفة سابقاً زوجته، بينما غاب زوجها داخل الحمام، نظرت مورين من النافذة، فى إعجاب، إلى القباب الذهبية لمبنى دار العبادة بـ "سانت نيكولاس".

عندما أغلق الباب من خلفه، أزال ديك اللافتة المكتوب عليها لا تشرب الماء المعلقة فوق حوض الاغتسال ودسها فى جيب سرواله الخلفى، ثم فتح غطاء زجاجتى مياة إفيان وسكب ما فيهما بالحوض. ثم أعاد ملء الزجاجتين بمياه الصنبور، قبل أن يحكم غلقهما من جديد ويعيدهما إلى موضعهما فى

لا تشرب الماء

ركن الحوض. فتح الباب وخرج من الحمام.
شرع ديك فى إفراغ محتويات حقيبته، ولكنه توقف عن ذلك ما أن غابت مورين فى الحمام. أولاً، نقل لافطة : لا تشرب المياه من جيبه الخلفى إلى طية جانبية فى حقيبته، ثم شد سحاب هذه الطية، قبل أن ينظر حوله فى جنبات الغرفة. كانت هناك زجاجة صغيرة من مياه إفيان على كل جانب من جانبي الفراش، وزجاجتان كبيرتان على المنضدة القريبة من النافذة. أمسك بالزجاجة المجاورة لجانب زوجته من الفراش واتجه صوب ركن المطبخ الصغير بالطرف الأقصى من الغرفة. صب ديك محتوى الزجاجة فى الحوض، وملأها بمياه الصنبور، ثم أعادها لجانب مورين من الفراش. وبعد ذلك، تناول الزجاجتين الكبيرتين من المنضدة القريبة من النافذة وأعاد الكرة نفسها.

عندما خرجت زوجته من الحمام، كان ديك قد أنهى تقريباً إفراغ محتويات حقيبته، بينما تابعت مورين إفراغ محتويات



حقيبتها اتجه ديك صوب جانبه من الفراش وأدار رقماً فى الهاتف استدعاه من ذاكرته، وبينما كان ينتظر رد الهاتف فتح زجاجة مياه إفيان الموضوعه على جانبه من الفراش، وشرب جرعة منها.

"مرحباً يا أنا تولى، أنا ديك بارنزلى. فكرت أن أعلمك أننا وصلنا توأ إلى فندق جراند بالاس".

أجاب صوت مألوف: "مرحباً بعودتك إلى سانت بطرسبرج، وهل زوجتك بصحبتك هذه المرة؟".

أجاب ديك: "بكل تأكيد، وهى تتلهف للقائك".

قال الوزير: "وأنا أيضاً، احرصا إذن على قضاء نهاية أسبوع طيبة لأن كل شىء جاهز للتنفيذ صباح الاثنين. من المقرر أن يسافر الرئيس بطائرتة مساء الغد، وهكذا سوف يحضر مراسم توقيع العقد".

"العاشره صباحاً فى القصر الشتوى، أليس كذلك؟".

كرر تشينكوف: "العاشره صباحاً، سوف آتى لأصحبكما من الفندق فى الثامنة. المسافة كلها تستغرق نصف ساعة، ولكننا لا نستطيع تحمل نتيجة التأخر على الرئيس".

قال: "سأكون بانتظارك فى بهو الاستقبال بالفندق. أراك حينها". وضع سماعة الهاتف والتفت نحو زوجته قائلاً: "ما رأيك أن ننزل لتناول عشائنا يا عزيزتى؟ أمامنا يوم طويل غداً". ثم ضبط ساعة يده بفارق ثلاث ساعات ثم أضاف: "فمن الحكمة أن ننام مبكراً".

وضعت مورين ثوباً حريراً طويلاً إلى جوارها على الفراش وابتسمت موافقة. حين استدارت لتضع حقيبتها الفارغة فى خزانة الملابس تناول ديك زجاجة المياه من المائدة المجاورة للفراش ووضعها فى جيب سترته، ثم سحب زوجته إلى غرفة تناول الطعام.

قادهما كبير النادلين إلى مائدة هادئة في الركن، وما أن اتخذنا مجلسهما حتى عرض عليهما قائمتى طعام. اختفى وجه مورين خلف الغلاف الجلدى الكبير للقائمة بينما كانت تفكر فى قائمة طعام الفندق؛ مما أتاح لـديك وقتاً كافياً لإخراج زجاجة المياه من جيبه، ورفع غطاءها وملاً كأس زوجته منها. ما أن اختار كل منهما وجبته، حتى راحت مورين تعرض جدول الرحلة المقترح لليومين التاليين. قالت مقترحة: "أعتقد أن علينا أن نبدأ بمتحف الهيرميتاج، أول شيء نفعله فى الصباح، ثم نأخذ راحة لتناول الغداء، ثم نقضى ما تبقى من الأصيل فى القصر الصيفى".

سألها ديك، وهو يرفع غطاء زجاجة المياه الخاصة به: "ماذا عن مجموعة الكهرمان؟ ظننت أنها شيء لا يجب أن يفوتنا". "لقد رتبت لرؤية مجموعة الكهرمان بالفعل والمتحف الروسى فى يوم الأحد".

قال ديك: "يبدو أنك رتبت كل شيء خير ترتيب"، فى حين كان النادل يضع وعاء من حساء البورشت أمام زوجته. أمضت مورين ما تبقى من وقت العشاء فى إخبار زوجها عن الكنوز التى سوف يريانها عند زيارة متحف الهيرميتاج. عندما وقع ديك على فاتورة العشاء كانت مورين قد أتت على شرب زجاجة المياه كاملة.

دس ديك الزجاجة الفارغة فى جيبه، وبمجرد عودتهما إلى غرفتهما ملاًها من ماء الصنبور وتركها فى الحمام. حين خلع ديك ملابسه وصعد للفراش كانت مورين لا تزال تراجع دليلها السياحى.

قال ديك: "أشعر أننى خائر القوى، لا بد أن هذا بفعل فارق التوقيت"، أدار ظهره لها، على أمل ألا تدرك أن الوقت قد تجاوز الثامنة مساءً بقليل بتوقيت إنجلترا.

نهض ديك فى الصباح التالى شاعراً بعطش شديد. نظر نحو زجاجة إفيان الفارغة على جانبه من الفراش وتذكر الأمر فى الوقت المناسب. نزل عن الفراش، وسار نحو الثلاجة واختار زجاجة من عصير البرتقال.

سأل مورين التى لم تستيقظ تماماً: " هل ستذهبين إلى صالة الألعاب هذا الصباح؟"

" هل هناك وقت لذلك؟"

" بالطبع؛ فمتحف الهيرميتاج لا يفتح قبل العاشرة صباحاً، وأحد الأسباب التى تجعلنى أنزل بهذا الفندق هو وجود صالة ألعاب رياضية به."

" وماذا عنك، ألن تذهب؟"

" مازال على إجراء بعض الاتصالات الهاتفية لأتأكد أن كل شىء على ما يرام ليوم الاثنين."

نزلت مورين عن الفراش وغابت فى الحمام، مما أتاح لـ ديك وقتاً كافياً لملء كأسها واستبدال زجاجة المياه المجاورة لجانبها من الفراش.

عندما خرجت مورين بعد بضع دقائق، نظرت لساعة يدها قبل أن تخرج أدواتها ولوازمها الرياضية. قالت بعد أن ربطت حذاءها الرياضى: "سوف أعود بعد أربعين دقيقة".

قال ديك: " لا تنسى أن تأخذى معك بعض المياه"، وناولها إحدى الزجاجتين الموضوعتين على المائدة القريبة من النافذة، وأضاف قائلاً: "فقد لا يكون متوفراً لديهم مياه فى صالة الألعاب".

قالت: " شكراً لك".

كان تعبير وجهها يجعله يتساءل إن كان فى تصرفه هذا إلحاح أو توسل زائدان عن الحد الطبيعى.

بينما كانت مورين فى صالة الألعاب الرياضية، أخذ ديك حماماً، وعندما عاد إلى غرفة النوم، سره أن يرى الشمس

لا تشرب الماء

ساطعة. ارتدى سترة وسروالاً، ولكنه فعل ذلك فقط بعد أن تأكد أن العاملين بالفندق لم يستبدلوا أية زجاجة مياه بينما كان يستحم.

طلب ديك إفطاراً لشخصين، وقد وصل الغرفة بعد عودة مورين من صالة الألعاب بدقائق، وهي ممسكة بزجاجة مياه إفيان نصف ممتلئة.

سأل ديك: " كيف كان تمرينك؟ "

أجابت مورين: " ليس رائعاً، أشعر بشيء من الوهن ". قال ديك مقترحاً: " لعلها متاعب السفر بالطائرة لا أكثر"، واتخذ مكانه على الطرف الآخر من المنضدة. صب لزوجته كأس ماء، وصب لنفسه كأساً آخر من عصير البرتقال. فتح ديك نسخة من الهيرالد تريبيون كان قد بدأ يقرأها بينما ينتظر زوجته وهي ترتدى ملابسها. لن ترشح هيلارى كليتتون نفسها للانتخابات الرئاسية؛ مما أكد ل ديك أنها ستفعل ذلك، خصوصاً وأنها أعلنت ذلك وهي تقف بجوار زوجها.

خرجت مورين من الحمام ترتدى مئزر الفندق. جلست قبالة زوجها واحتست ماء.

قالت مورين: " من الأفضل أن نأخذ معنا زجاجة مياه إفيان في زيارتنا إلى المتحف ". رفع ديك عينيه عن الصحيفة، بينما أضافت زوجته: " الفتاة التي في صالة الألعاب حذرتني من شرب مياه الصنبور تحت أية ظروف ".

تناولت مورين زجاجة من المنضدة القريبة من النافذة، بينما قال: " نعم، صحيح، كان ينبغي على أن أنبهك إلى ذلك. الحرص واجب ".

قبل العاشرة بيضع دقائق مر ديك ومورين من بوابات متحف الهيرميتاج، ووجدوا أنهما يقفان في نهاية طاير طويل.

كان طابور الزوار يتقدم ببطء فى بقعة مشمسة ومرصوفة بالحجارة. احتست مورين عدة رشفات أخرى من المياه بينما تقلب صفحات دليلها السياحى. كانت الساعة قد بلغت العاشرة وأربعين دقيقة حين بلغا شباك التذاكر، وما إن دخلا حتى واصلت مورين مراجعة دليلها السياحى.

قالت: "على كل الأحوال، يتوجب علينا أن نشاهد لوحة الصبى الرابض لـ مايكل أنجلو، وعذراء رفييال، ومادونا بينوا لـ ليوناردو دافنشى".

ابتسم ديك موافقاً، رغم عدم اهتمامه بالتحف الفنية لكبار الفنانين.

بينما كانا يصعدان السلالم الرخامية العريضة، مرا بتماثيل عديدة رائعة وقد وضعت داخل طاقات محفورة داخل الجدران وكانت أشبه بالكهوف، وعلى الرغم من زيارة ديك لـ سانت بطرسبرج مرات عديدة خلال الأعوام الثلاثة الماضية فإنه لم ير المبنى إلا من الخارج.

أخبرته مورين وهى تقرأ من دليلها السياحى: "إن المجموعة الخاصة لمقتنيات القيصر بطرس تشغل ثلاثة طوابق، وهى كنوز موزعة على أكثر من مائتى غرفة، إذن فلنبدأ بها".

عند الحادية عشرة لم يكونا قد شاهدا إلا مدرستين فنييتين فقط، هما الألمانية والإيطالية بالطابق الأول، وعند ذلك كانت مورين قد أنت على زجاجة كبيرة من مياه إفيان".

عرض ديك أن يتطوع بالذهاب لشراء زجاجة أخرى. ترك زوجته مشدوهة أمام تمثال عازف العود لكارا فافيو، بينما تسلسل هو إلى أقرب دورة مياه. أعاد ملء الزجاجة الفارغة بمياه الصنبور قبل أن يعود لزوجته. لو أن مورين قد انتبهت ولو للحظات إلى أنواع المشروبات العديدة المعروضة على طاولات البيع فى كل طابق لاكتشفت أن متحف الهيرميتاج لا يقدم مياه إفيان أصلاً من بينها؛ لأن لديه عقداً حصرياً مع

لا تشرب الماء

شركة مياه فولفيك.

عند الساعة الثانية عشرة والنصف كانا قد رأيا كل شيء
عدا ست عشرة غرفة مخصصة لفناني عصر النهضة، واتفقا
على أن الوقت قد حان لتناول الغداء. غادرا المبنى وسارا من
جديد تحت شمس منتصف النهار. سارا معاً قليلاً بمحاذاة
ضفة نهر مويكا، دون أن يتوقفا إلا لالتقاط صورة فوتوغرافية
لعريس وعروس يأخذان أوضاعاً للتصوير على الجسر الأزرق
قبالة قصر المارينيسكى.

قالت مورين وهى تقلب صفحات دليلها السياحي: "إنه
تقليد وطنى".

بعد أن سارا مسافة مبنى آخر، توقفا عند مطعم صغير
للمعجنات. أغراهما بالدخول إليه مواعده المربعة الأنيقة
ومفارشه الكاروهات الأحمر فى الأبيض ونادلوه حسنو
الهندام.

قالت مورين: "لابد أن أدخل الحمام، أشعر بشيء من
الغثيان. لابد أنه بسبب حرارة الجو"، ثم أضافت: "اطلب لى
سلطة فقط وكأس ماء".

ابتسم ديك لها، وأخرج زجاجة مياه إفيان من حقيبتها
وملأ الكأس الموضوع إلى جانبها من المائدة. عندما ظهر
النادل طلب ديك طبق سلطة من أجل زوجته، ولنفسه طلب
الرافيولى وشراب الكوكا الخالى من السكر. كان يتلهف شوقاً
إلى أن يشرب أى شيء.

نشطت مورين قليلاً بعد أن تناولت طبق السلطة، بل إنها
بدأت تخبر ديك بما يتوجب عليهما البحث عنه عند زيارتهما
للقصر الصيفى.

خلال رحلة التاكسى الطويلة عبر شمال المدينة، واصلت
قراءة مقتطفات أخرى من دليلها السياحي. "أنشأ بطرس
العظيم القصر الصيفى بعد زيارته لقصر الفرسان، وعندما

لا تشرب الماء



مساحة مائة فدان، وفيها أكثر من مائتي نافورة، كما أن هناك إحدى عشرة نافورة أخرى بداخل القصر". وعلى الرغم من أن الشمس لم تعد ملتهبة الآن، فإن السماء مازالت صافية، وواصلت مورين شرب جرعات كبيرة منتظمة من المياه، ولكنها كلما عرضت الزجاجاة على ديك، كان يجيبها على الدوام: "كلا، أشكرك".

عندما كانا يصعدان أخيراً سلالاً لم القصر، وجدا بانتظارهما طابوراً آخر طويلاً، واعترفت مورين أنها تشعر بشيء من الإرهاق.

قال ديك: "سيكون مؤسفًا أن نقطع كل هذه المسافة إلى هنا دون أن نلقى نظرة على ما بالداخل". وافقت زوجته على مضمض.

عندما بلغا أول الطابور، اشترى ديك تذكرتي دخول، وبمبلغ إضافي صغير، اختار مرشدًا يتحدث بالإنجليزية ليصحبهما في جولتهما بالمكان.

عاد إلى روسيا وظف أفضل مهندسي العمار والحدائق وأفضل البستانيين وأمهر الصناع والحرفيين في البلاد من أجل إعادة بناء التحفة الفرنسية. كان ينوي أن يكون القصر صرحاً لمحبة الفرنسيين، الذين يكن لهم إعجاباً لا مزيد عليه من أجل ريادتهم في الذوق والجمال في قارة أوربا كلها".

قاطع سائق التاكسي تدفق حديث مورين ليدهي بمعلومة صغيرة من جانبه. قال: "إننا نمر حالياً بالقصر الشتوي الذي أعيد بناؤه مؤخراً؛ حيث ينزل به الرئيس بوتين كلما زار سانت بطرسبرج". توقف السائق للحظات ثم واصل: "ولأن العلم القومي مرفوع عليه فلا بد أن الرئيس بالمدينة".

قال ديك: "لقد أتى من موسكو خصوصاً لرؤيتي".

ضحك سائق التاكسي بشدة.



بعد ذلك بنصف ساعة مر التاكسي خلال بوابات القصر الصيفي، وأنزل السائق زبونه في قلب حشد من السيارات المتوقفة؛ حيث اكتظ المكان بالسياح والزائرين، والبائعين الواقفين خلف أكشاكهم المؤقتة المرتجلة وهم يتلاعبون بالتذكارات الرخيصة.

اقتрحت مورين: "لندخل لنرى التحف الحقيقية".

قال سائق التاكسي: "سوف أنتظركما هنا. دون أن يكلفكما هذا مالا إضافياً. كم ستمكثان بالداخل؟".

قال ديك: "على ما أظن، ساعتين أو نحوهما، لا أكثر من ذلك".

كرر السائق: "سوف أنتظركما هنا".

سار كل منهما في أرجاء البساتين العظيمة، وأدرك ديك سبب وصفها في الدليل السياحي بأنها "لا يجب تفويت زيارتها" مع علامة نجوم خمس بجوارها. هكذا راحت مورين تلخص وتشرح له بينما تشرب الماء. "تغطي الأراضي المحيطة بالقصر

قالت مورين وهما يدخلان غرفة الامبراطورة كاثرين:
"أشعر أننى لست على ما يرام"، ثم تشبثت بفراش الامبراطورة
ذى الأعمدة الأربعة.

اقترح المرشد السياحى مساعداً: "عليك أن تشربى الكثير
من الماء فى مثل هذا اليوم الحار". عندما وصلا إلى غرفة
مكتب القيصر نيكولاس السادس، حذرت مورين زوجها قائلة
إنها على وشك أن تصاب بإغماء. اعتذر ديك للمرشد السياحى
ووضع ذراعه حول كتف زوجته وساعدها على الخروج من
القصر فى رحلة مترنحة للعودة إلى موقف السيارات. وجدا
سائق التاكسى يقف بجوار سيارته بانتظارهما.

قال ديك: "لابد أن نعود إلى فندق جراند بالاس فى
الحال". بينما ارتمت زوجته على المقعد الخلفى للسيارة كأنها
مغشى عليها.

خلال رحلة العودة الطويلة إلى سانت بطرسبرج، كانت
مورين فى حالة يرثى لها؛ حيث أخذت تتقيأ بالمقعد الخلفى
للتاكسى، ولكن السائق لم يعلق على حالتها، كان حريصاً فقط
على سرعته الثابتة بينما يواصل رحلته على الطريق السريع.
بعد ذلك بأربعين دقيقة، توقف أمام فندق جراند بالاس. ناوله
ديك حفنة أوراق مالية واعتذر له.

قال السائق: "أتمنى أن تتعافى السيدة قريباً".

أجاب ديك: "نعم، نسأل الله أن تستريح".

ساعد ديك زوجته على الخروج من السيارة، وقادها على
الدرج المؤدى لمدخل الفندق ويسرعة أخذها نحو المصعد، أملاً
ألا يلفت انتباه أحد إليه. فى غضون دقائق كانا قد عادا سالمين
إلى جناحهما الخاص. غابت مورين على الفور فى الحمام،
وعلى الرغم من الباب المغلق استطاع ديك سماع صوت تقيؤها.
بحث بعينيه فى جنبات الغرفة. بينما هما بالخارج، تم استبدال
جميع زجاجات المياه. لم يتجشم عناء تغيير إلا الزجاجاة

لا تشرب الماء

المجاورة لجانبها من الفراش ، والتي أعاد ملأها بمياه الصنبور من ركن المطبخ الصغير.

ظهرت مورين خارجة من الحمام أخيراً ، وانهارت على الفراش ، قالت : "أشعر بحالة فظيعة".
"ربما عليك أن تتناولى قرصى أسبرين وتحاولى النوم لبعض الوقت".

أومات مورين فى وهن قائلة : "هل يمكنك إحضار الأقراص لى ؟ إنها فى الحقيبة الطبية الخاصة بى".

"بالطبع يا عزيزتى". ما إن وجد الأقراص حتى ملأ الكأس بمياه الصنبور ، ثم عاد إلى جوار زوجته. خلعت عنها ثوب الخروج ، ولكن دون أن تخلع صندلها. ساعدها ديك على النهوض وأدرك للمرة الأولى أنها كانت منقوعة بالعرق. ابتلعت قرصى الأسبرين بكأس الماء الذى قدمه لها ديك. أراحها برقة على الوسادة قبل أن ينزل الستائر، ثم اتجه نحو باب الغرفة وعلق بمقبض الباب إشارة الرجاء عدم الإزعاج. فقد كان آخر شىء يرغب فيه هو رؤية إحدى خادمتى الغرف اللحوجات التى تأتى للتطفل وترى زوجته فى حالتها تلك. بعد أن تأكد ديك من أنها كانت نائمة ، نزل لتناول وجبة العشاء.

تساءل كبير النادلين عندما اتخذ ديك مجلسه : "ألن تنضم السيدة إلى مائدتك هذه الليلة؟".

أجابه ديك : "كلا، بكل أسف، لديها نوبة صداع نصفى خفيف. أظن أنها تعرضت للشمس أكثر من المعتاد، لكننى متأكد من أنها ستكون على ما يرام فى الصباح".

"تسأل الله لها السلامة يا سيدى . ماذا يمكننى أن أقدم لك الليلة؟".

أخذ ديك وقته فى تفحص القائمة، قبل أن يقول فى النهاية : "أعتقد أننى سأبدأ بكبد الأوز الفرنسى، ثم أتبعه بقطعة لحم سميقة - توقف ثم واصل : "متوسطة النضج".

"اختيار ممتاز يا سيدى".

صب ديك لنفسه كأس ماء من الزجاجاة الموضوعة على المائدة وتجرعه بسرعة، قبل أن يملأ كأسه مرة ثانية. ثم يتمجل فى تناول وجبته، وحين عاد إلى جناحه الخاص بعد العاشرة مباشرة، أسعده أن يجد زوجته نائمة نومًا عميقًا. تناول كأسها وأخذه إلى الحمام ليعيد ملأه بماء الصنبور، ثم وضعه من جديد على المائدة التى تقع إلى جانبها من الفراش. خلع ديك ملابسه فى تمهل قبل أن يندس أخيرًا تحت الأغطية ليرقد إلى جوار زوجته. أطفأ المصباح القريب من الفراش ونام سائمًا هائمًا.

عندما استيقظ ديك فى الصباح التالى، وجد أنه هو أيضًا غارق فى العرق. الملاءات كذلك كانت مبتلة بشدة، وعندما التفت لينظر نحو زوجته رأى أن لون الدماء قد غاض من وجنتيها.

خرج ديك من الفراش، وتسلسل إلى الحمام وأخذ حمامًا طويلًا. وبعد أن جفف نفسه مباشرة وضع على جسده منظرًا قطنيًا من مآزر الفندق وعاد إلى غرفة النوم. تسلسل إلى جانب زوجته من الفراش وأعاد ملء كأسها الفارغ بماء الصنبور. كان جليًا أنها استيقظت فى الليل دون أن توقظه.

سحب الستائر ثم تأكد من أن إشارة الرجاء عدم الإزعاج مازالت معلقة بالباب. عاد إلى جانب زوجته من الفراش وسحب كرسيًا وجلس عليه وبدأ يقرأ الهيرالد تريبيون. عندما استيقظت زوجته كان قد وصل إلى الصفحات الرياضية. كانت كلماتها متلعثمة. نجحت فى أن تقول: "حالتى فظيعة". وتوقفت طويلًا قبل أن تضيف: "ألا تعتقد أن علينا استدعاء طبيب؟".

لا تشرب الماء

قال ديك : "ولكنه جاء بالفعل وفحصك يا عزيزتى. لقد استدعيته ليلة أمس. ألا تتذكرين؟ وقال لى إنك أصبت بحمى، وما عليك إلا أن تتعرقى لتتخلصى منها".

سألته مورين فى تشكك: "ألم يترك أية أقراص؟".

"كلا يا عزيزتى. لقد قال فقط إنك لا يجب أن تتناولى أى طعام، ولكن لا بد أن تحاولى أن تشربى أكبر قدر ممكن من الماء". ناولها الكأس وقربها من شفيتها وحاولت هى أن تبتلع المزيد. حتى إنها استطاعت أن تقول له: "شكراً لك"، ثم ارتمت للوراء على الوسادة.

قال ديك : "لا تقلقى يا عزيزتى. سوف تكونين على ما يرام، أعدك بالأبأ أبتعد عنك ولو للحظة واحدة". انحنى وطبع قبلة على جبينها، وراحت فى النوم من جديد.

ولم يبتعد ديك عن مورين ذلك اليوم إلا ليؤكد للخادمة أن زوجته لا ترغب فى تغيير البياضات هذا اليوم؛ ولكى يعيد ملء كأس الماء بجوار فراشها، وفى وقت متأخر من الأصيل تلقى اتصالاً من الوزير.

كان أول ما قاله تشينكوف : "لقد وصل الرئيس بالأمس، إنه يقيم فى القصر الشتوى، وقد تركته هناك منذ قليل، ولقد أمرنى أن أبلغك بلهفته على لقائك أنت وزوجتك".

قال ديك : "هذا لطف كبير منه، ولكن عندي مشكلة".

"مشكلة؟" قالها الرجل الذى لا يميل للمشكلات، خاصة عندما يكون الرئيس فى المدينة.

"يبدو أن مورين قد أصابتها حمى. كنا بالخارج فى الشمس طوال نهار الأمس، ولست متأكدًا مما إذا كانت سوف تتعافى تمامًا فى الوقت المحدد لكى تحضر مراسم توقيع العقد، وهكذا فقد أحضر بمفردى".

قال تشينكوف : "يؤسفنى سماع هذا، وكيف حالك أنت؟".

قال ديك : "أنا بخير حال".

قال تشينكوف بنبرة ارتياح: "ذلك أمر طيب. إذن سوف أمر بك فى الثامنة صباحاً كما اتفقنا. لا أريد أن أجعل الرئيس ينتظر".

أكد ديك قائلاً: "ولا أنا يا أناتول، ستجدنى واقفاً ببهو الفندق قبل الثامنة بأمد طويل".

طُرق الباب. وضع ديك الهاتف جانباً بسرعة واندفع يفتح الباب قبل أن يتسنى لأى شخص أن يدخل ويتطفل. كانت بالردهة إحدى خادمتى الغرف ومعها نقال كدست عليه الملائات والبياضات والمناشف وقطع الصابون وزجاجات الشامبو وأكياس من زجاجات مياه إفيان.

سألته بابتسامة: "ألا تود أن تغير بياضات الفراش يا سيدى؟"

قال ديك: "كلا، أشكرك. زوجتى ليست على ما يرام". وأشار نحو لافتة الرجاء عدم الإزعاج.

فاقتربت قائلة: "ربما المزيد من المياه؟"، وهى ترفع زجاجة كبيرة من مياه إفيان.

"كلا". كرر بصرامة وأغلق الباب.

الاتصال الهاتفى الوحيد الآخر جاء من مدير الفندق ذلك المساء. سأل فى أدب عما إذا كانت السيدة تحتاج إلى طبيب.

قال ديك: "كلا، أشكرك. لقد تعرضت لضربة شمس خفيفة لكنها سوف تتعافى منها، وأنا متأكد من أنها ستكون فى خير حال فى صباح الغد".

قال المدير: "اتصل بى فقط إذا ما غيرت رأيها. يمكن للطبيب أن يحضر إليك فى غضون دقائق".

قال ديك: "هذا اهتمام رائع من جانبك، ولكن لا داعى لهذا"، ثم وضع سماعة الهاتف. استدار نحو زوجته. كان جلدها شاحب اللون ومبقعاً. مال نحوها حتى كاد يمس شفيتها. كانت مازالت تتنفس. سار نحو الثلاجة، فتحها وأخرج كل زجاجات

قال تشينكوف بنبرة ارتياح: "ذلك أمر طيب. إذن سوف أمر بك في الثامنة صباحاً كما اتفقنا. لا أريد أن أجعل الرئيس ينتظر".

أكد ديك قائلاً: "ولا أنا يا أناتول، ستجدنى واقفاً ببهو الفندق قبل الثامنة بأمد طويل".

طُرق الباب. وضع ديك الهاتف جانباً بسرعة واندفع يفتح الباب قبل أن يتسنى لأى شخص أن يدخل ويتطفل. كانت بالردهة إحدى خادمتى الغرف ومعها نعال كدست عليه الملاءات والبياضات والمناشف وقطع الصابون وزجاجات الشامبو وأكياس من زجاجات مياه إفيان.

سألته بابتسامة: "ألا تود أن تغير بياضات الفراش يا سيدي؟"

قال ديك: "كلا، أشكرك. زوجتى ليست على ما يرام". وأشار نحو لافتة الرجاء عدم الإزعاج.

فاقتربت قائلة: "ربما المزيد من المياه؟"، وهى ترفع زجاجة كبيرة من مياه إفيان.

"كلا". كرر بصرامة وأغلق الباب.

الاتصال الهاتفي الوحيد الآخر جاء من مدير الفندق ذلك المساء. سأل فى أدب عما إذا كانت السيدة تحتاج إلى طبيب.

قال ديك: "كلا، أشكرك. لقد تعرضت لضربة شمس خفيفة لكنها سوف تتعافى منها، وأنا متأكد من أنها ستكون فى خير حال فى صباح الغد".

قال المدير: "اتصل بى فقط إذا ما غيرت رأيها. يمكن للطبيب أن يحضر إليك فى غضون دقائق".

قال ديك: "هذا اهتمام رائع من جانبك، ولكن لا داعى لهذا"، ثم وضع سماعة الهاتف. استدار نحو زوجته. كان جلدها شاحب اللون ومبقعاً. مال نحوها حتى كاد يمس شفيتها. كانت مازالت تتنفس. سار نحو الثلاجة، فتحها وأخرج كل زجاجات

الهاتف ومن جديد طلب رقمًا مضرًا. بعد دقائق كان يقف بجانب تشينكوف رجل طويل أنيق الملبس فى حلة سوداء.

سأله: "كيف لى أن أساعدك سيادة الوزير؟"

"لا بد أن أصعد إلى غرفة السيد بارنزلى."

"بكل تأكيد سيدى الوزير، اتبعنى من فضلك."

عندما وصل الرجال الثلاثة إلى الطابق التاسع، اتجها على وجه السرعة نحو جناح تولستوى؛ حيث وجدوا لافتة الرجاء عدم الإزعاج معلقة على مقبض الباب. طرق الوزير على الباب طرقًا مدويًا، دون أن يتلقى أى رد.

أمر قائلاً: "افتح الباب"، وأطاع موظف الاستقبال الأمر بلا تردد.

دخل الوزير الغرفة بخطوات سريعة، يتبعه المدير وموظف الاستقبال. وتوقفت خطوات تشينكوف توقفاً مفاجئاً عندما وقع بصره على الجسدين الهامدين الراقدين فى الفراش. لم يحتج موظف الاستقبال إلى أن يتلقى أمراً لكى يتصل مستدعياً الطبيب.

من المحزن أن الطبيب كان قد شهد ثلاث حالات مماثلة خلال الشهر الماضى، ولكن مع اختلاف واحد أن الضحايا جميعاً كانوا من أبناء البلد. تفحص مريضيه لبعض الوقت قبل أن يعلن تشخيصه.

أكد الطبيب قائلاً هامساً تقريباً: "إنه داء سيبيريا". صمت قليلاً، متطلعاً نحو الوزير، ثم أضاف: "توفيت السيدة خلال الليل دون أدنى شك، فى حين أسلم السيد الروح فى الساعة الماضية".

ثم بيد الوزير أى تعليق!

واصل الطبيب قائلاً: "تشخيصى المبدئى أنها على الأرجح قد التقطت المرض بسبب شرب قدر كبير من مياه الصنبور".

سكت لبرهة ناظرًا نحو جثة ديك الهامدة ، ثم أضاف: "بينما زوجها لا بد أنه التقط الفيروس من زوجته، خلال الليل في الغالب، وهو أمر شائع بين الأزواج والزوجات، مثل كثيرين من مواطنينا الريفيين، من الواضح أنه لم يكن مدركًا أن...".
تردد قليلاً قبل أن ينطق بالكلمة أمام سيادة الوزير "داء سيبريا واحد من الأمراض المعدية، ليس هذا وحسب بل إنه من أسرع الأمراض انتقالًا بالعدوى".

اعترض المدير قائلاً: "ولكنني اتصلت به ليلة أمس وسألته عما إذا كان يود استدعاء طبيب، وقال إنه لا داعي لذلك؛ لأن زوجته تتعافى، وكان متأكدًا من أنها سوف تكون على ما يرام عند الصباح".

قال الطبيب: "يا للأسف"، ثم أضاف: "لأنه فقط وافق على ذلك، ما كان بوسعنا عندئذ إنقاذ زوجته، ولكن كان بوسعنا إنقاذه هو على الأقل!".

لا يمكن أن يكون أكتوبر
قد عاد بهذه السرعة!



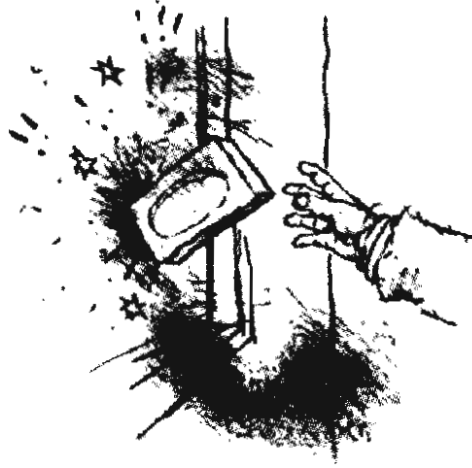


وقف باتريك أوفلين أمام متجر مصوغات إتش صامويل، ممسكاً بقرميدة بيده اليمنى. كان يحدق بشدة في الواجهة. ابتسم، ورفع ذراعه وقذف بالقرميدة على اللوح الزجاجى. تشققت الواجهة كأنها شبكة عنكبوت، ولكنها ظلت صلبة فى مكانها، وانطلق الإنذار فى الحال، وسرى صوته فى هذا المساء الهادئ البارد لشهر أكتوبر بحيث صار يمكن سماعه من مسافة نصف ميل. كان الأهم بالنسبة لباتريك، أو بات، أن يكون جهاز الإنذار متصلاً مباشرة بنقطة الشرطة المحلية.

لم يتحرك بات، بل ظل واقفاً يحدق فى ما اقترفته يده. لم ينتظر أكثر من تسعين ثانية قبل أن يسمع صوت سارينة يقترب من بعيد. انحنى على الأرض والتقط القرميدة من الرصيف، بينما الصوت المزعج للسارينة يعلو ويعلو. عندما توقفت عربة الشرطة بصوت حاد بحذاء الرصيف، رفع بات القرميدة فوق رأسه وانحنى للوراء مثل رامى الجلة فى الألعاب الأولمبية الذى لن يرضى بأقل من الميدالية الذهبية. نزل الشرطيان بسرعة من السيارة. تجاهل أكبرهما سناً بات الذى ظل موازناً نفسه ورافعاً ذراعه فوق رأسه ممسكاً بالقرميدة فى يده، وسار الشرطى الأكبر سناً ليتفقد الواجهة وما لحق بها من ضرر. على الرغم من أن اللوح الزجاجى قد تشقق، فقد كان مازال صلباً فى موضعه. وعلى أى حال، كانت هناك ستارة من قضبان حديدية متقاطعة مسدلة أسفل النافذة، وهو الشيء الذى لم يكن خافياً على بات. ولكن عندما يعود الرقيب إلى نقطة الشرطة مازال عليه أن يتصل بمدير المتجر، وينترعه من دفع فراشه ويطلب منه أن يذهب إلى المتجر ليفصل جهاز الإنذار.

جيفرى آرشر

استدار الرقيب فوجد بات مازال واقفاً، رافعاً يده بالقرميدة
فوق رأسه.



قال الرقيب، وهو يفتح الباب الخلفى لسيارة الشرطة :
"حسناً يا بات، اترك ما بيدك وادخل إلى السيارة".
ابتسم بات، وناول القرميدة للضابط حديث العهد وقال :
"سوف تكون بحاجة إليها باعتبارها دليل إدانة".
لم يقل الضابط الشاب شيئاً.
"أشكرك أيها الرقيب"، هكذا قال بات وهو يصعد إلى
السيارة، وابتسم للضابط الشاب، الذي اتخذ موقعه وراء عجلة
القيادة، ثم سأل بات الرقيب قائلاً: "هل سبق أن حكيت لك
حكايتي عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى
ليفربول؟".
قاطعه الرقيب معترضاً: "مائة مرة"، واتخذ مجلسه
بجانب بات وأغلق الباب الخلفى.
تساءل بات: "ألن تستخدم أغلال اليمين؟".
قال الرقيب: "لا أريد أن أقيد معك بأغلال اليمين، بل

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

أريد أن أتخلص منك. لم لا تعود إلى أيرلندا وتريحنا؟".
شرح بات قائلاً: "إن سجونهم في حالة متدنية للغاية
بالنسبة لي، وعلى أية حال فإنهم لا يعاملونني بالدرجة نفسها
من الاحترام الذي ألقاه منكم أيها الرقيب"، وتحركت السيارة
مبتعدة عن خط الرصيف وتراجعت صوب نقطة الشرطة.
مال بات للأمام نحو الضابط الشاب وخطبه متسائلاً:
"أيمكنك أن تخبرني باسمك؟".

"الضابط كوبر".

"هل تمت بأى صلة إلى المفتش الأول كوبر؟".
"إنه أبى".

قال بات: "إنه سيد نبيل، لقد تناولنا معاً الكثير من أقذاح
الشاى واليسكويت. أرجو أن يكون فى أحسن صحة".
قال الضابط كوبر: "لقد تقاعد".

قال بات: "يؤسفنى سماع هذا. هلا أبلغته أن بات أوفلاين
سأل عنه وعن أحواله؟ وأرجوك أن تبلغه، هو والسيدة العزيزة
والدتك، أطيب تمنياتى".

قال الرقيب: "كف عن هرائك يا بات؛ فالصبي لم يتخرج
من مدرسة الشرطة إلا منذ شهر واحد". وهنا توقفت السيارة
أمام نقطة الشرطة. نزل الرقيب من المقعد الخلفى وأمسك
بالباب مفتوحاً من أجل بات.

"شكراً لك أيها الرقيب" هكذا قال بات كأنه يخاطب بواب
أحد الفنادق السبع نجوم. ابتسم الضابط بينما صحب الرقيب
بات صاعدين الدرج إلى داخل نقطة الشرطة.

وحين رأى بات الشخص الذى يجلس وراء المكتب قال: "آه،
مساء الخير يا سيد باكر".

قال الرقيب المناوب: "أوه، يا إلهى، لا يمكن أن يكون أكتوبر
قد عاد بهذه السرعة".

قال بات: "أخشى أنه عاد سيدى الرقيب، وكنت أتساءل عما إذا كانت زنزانتي المعتادة شاغرة. لن أقضى بها إلا ليلة واحدة، أنت تفهم الوضع".

قال الرقيب المناوب: "إنها غير شاغرة بكل أسف، هناك مجرم حقيقى يشغلها. سوف تكون راضياً بزنازة رقم اثنين". تدمر بات قائلاً: "ولكننى فيما مضى كنت دائماً ما أنزل بالزنزانة رقم واحد".

تطلع الرقيب المناوب إليه ورفع حاجبه. أقرب بات: "كلا، أنا الملوم، كان على أن أطلب من سكرتيرتى الاتصال بكم والحجز مقدماً. هل تريد أن تأخذ بيانات بطاقتى الائتمانية؟".

طمأنه الرقيب المناوب قائلاً: "لا، لدى كل بياناتك مسجلة فى ملف".

"ما رأيك فى بصمات الأصابع إذن؟". "لا أظن أننا بحاجة إلى مجموعة جديدة، إلا إن كنت نجحت فى بتر أطراف أناملك القديمة، ولكنك على الأقل بحاجة للتوقيع على مذكرة الاتهام".

تناول بات قلم الحبر الثمين المقدم له ووقع فى طرف الصفحة عن طيب خاطر.

"خذه إلى الأسفل، إلى الزنزانة رقم اثنين أيها الضابط". قال بات وهو يساق بعيداً: "شكراً لك يا سيدى الرقيب". ولكنه توقف، واستدار وقال: "إننى أتساءل يا سيدى الرقيب عما إذا كان بوسعك أن تجرى لى اتصالاً لإيقاظى فى حدود الساعة صباحاً، وتطلب لى قده شاي، يفضل أن يكون من نوع الإيرل جراى، ونسخة من صحيفة التايمز الأيرلندية؟".

"سحماً لك يا بات" هكذا قال الرقيب، بينما حاول الضابط أن يكتم ضحكته.

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

قال بات: "لقد تذكرت شيئاً، هل سبق أن حكيت لك حكايتي عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول، ورئيس العمال —".

"أخذته بعيداً عن عينى أيها الضابط، إن كنت لا تريد أن تقضى بقية الشهر تعمل فى إشارات المرور".
قبض الضابط على مرفق بات وأسرع به نازلاً إلى الدور السفلى.

قال بات: "لا حاجة بك لأن تصحبنى، إننى أعرف الطريق جيداً". فى هذه المرة ترك الضابط الزمام لضحكاته وهو يضع المفتاح فى قفل الزنزانة رقم اثنين. فتح الشرطى الشاب الزنزانة ودفع الباب الثقيل، وسمح لبات بالدخول.
قال بات: "شكراً لك أيها الضابط كوبر، كم أتطلع إلى رؤيتك فى الصباح".

قال الضابط كوبر: "ستكون مناوبة عملى قد انتهت".
فقال بات بدون أى تفسير: "إذن سأراك فى نفس هذا الموعد من العام المقبل، ولا تنس أن توصل أطيب تمنياتى لوالدك"، ثم أغلق الباب الحديدى الذى يبلغ سمكه أربع بوصات بصوت غليظ.

تفقد بات الزنزانة لبضع دقائق: حوض اغتسال من الصلب، مرحاض وفراش، وملاءة وبطانية ووسادة. اطمأن بات إلى أن شيئاً لم يتغير منذ العام الماضى. ارتدى على المرتبة المصنوعة من شعر الخيل، ووضع رأسه على الوسادة الصلبة كالصخر ونام طوال الليل للمرة الأولى منذ أسابيع.

استيقظ بات من نوم عميق فى الساعة من صباح اليوم التالى، عندما انفتح باب الزنزانة على مصراعيه وأطلت عينان سوداوان من خلفه.

قال صوت ودود: "صباح الخير يا بات".

قال بات، قبل أن يفتح عينيه: "صباح الخير يا ويسلى، كيف حالك؟".

أجاب ويسلى: "أنا بخير، ولكنى آسف لرؤيتك تعود من جديد. أعتقد أن أكتوبر قد حل إذن".

قال بات وهو ينزل عن الفراش: "لقد حل أكتوبر بكل تأكيد، ومن المهم أن أبدو فى أفضل حالة عند العرض أمام هيئة المحكمة هذا الصباح".

"هل هناك شيء تريده على وجه الخصوص؟".

"سيكون أفضل شيء تجلبه لى هو قدح شاي، ولكن ما أطلبه حقاً هو شفرة حلاقة، وقطعة صابون، وفرشاة أسنان وبعض معجون الأسنان. ولا داعى لأن أذكرك، يا ويسلى، بأن المتهم يحق له هذا المطلب البسيط قبل المثول أمام المحكمة".

قال ويسلى: "سأعمل على أن تحصل عليها، وهل تود أن تقرأ نسختى من جريدة الصن؟".

"ذلك لطف من جانبك يا ويسلى، وإن كان المشرف الأول قد أنهى نسخة أمس من صحيفة التايمز فإننى أفضل قراءتها".

كتم الرجل الذى أتى من جزر الهند الغربية ضحكته وتبع ذلك إغلاق باب الزنزانة.

لم يطل انتظار بات قبل أن يسمع صوت مفتاح فى قفل الباب. انفتح الباب الثقيل ليكشف عن وجه ويسلى بيكيت الضاحك، وفى إحدى يديه صينية وضعها على حافة الفراش.

قال بات: "أشكرك يا ويسلى"، وحدث فى وعاء رقائق الحبوب، والعلبة الورقية الصغيرة للبن منزوع الدسم، وشريحتى الخبز المحمص وبيضة مسلوقة. أضاف بات قائلاً: "كم أتمنى أن تكون مولى قد تذكرت أننى أحب البيض نصف مسلوقة، أى يترك لدقيقتين ونصف فقط".

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

قال ويسلى: "لقد غادرتنا مولى العام الماضى، أعتقد أنك ستجد البيضة مسلوقة من ليلة أمس بيد الرقيب المناوب".
قال بات: "لا يمكن للمرء أن يحصل على مبتغاه هذه الأيام، أنا شخصياً لا ألوم إلا الأيرلنديين. ما عادوا ملتزمين بالخدمة المنزلية السليمة"، ثم دق أعلى البيضة بمعلقة بلاستيكية.
"بالمناسبة يا ويسلى، هل سبق أن حكيت لك حكايته عندما حاولت الحصول على عمل يدوى فى موقع بناء فى ليفربول، ورئيس العمال، وهو رجل إنجليزى لعين —". تطلع بات لأعلى وتنهى حين سمع الباب يصفق والمفتاح يدور فى القفل. فغمغم لنفسه قائلاً: "أعتقد أننى حكيت لك تلك الحكاية من قبل".
بعد أن أنهى بات إفطاره، نظف أسنانه بالفرشاة ومعجون الأسنان الذى كان فى أنبوب أصفر من الذى قدموه له فى تجربته الوحيدة للسفر على خطوط طيران إير لينجوس إلى مدينة دبلن. وبعد ذلك فتح الماء الساخن فى الحوض المعدنى الصغير. مر بعض الوقت قبل أن يتحول خيط الماء المتباطئ من الماء البارد إلى الماء الفاتر. فرك قطعة الصابون الهزيلة بين أصابعه حتى صنع ما فيه الكفاية من الرغوة، نشرها بعد ذلك على وجهه غير الحليق، ثم التقط ماكينة الحلاقة البلاستيكية، وبدأ عملية بطيئة لإزالة شعر وجهه النابت من أربعة أيام. مسح وجهه أخيراً بمنشفة يد خضراء خشنة، لا يزيد حجمها على منديل اليد.
جلس بات على طرف الفراش، وأثناء انتظاره، قرأ صحيفة الصن الخاصة بويسلى، قرأها من الغلاف للغلاف فى أربع دقائق، ولم يسترع انتباهه إلا موضوع بقلم المحرر السياسى تريفور كافاناي، فكر بات أنه لا شك أيرلندى. قوطعت أفكار بات عندما فتح الباب المعدنى الثقيل مرة أخرى.
قال الرقيب وبستر: "فلننته منك يا بات: إنك الأول هذا الصباح".

صحب بات الضابط صاعدين الدرج، وعندما رأى الرقيب المناوب على المكتب، سأله : "هل يمكننى أن أستعيد أشياءى الثمينة يا سيد بيكر؟ سوف تجدها فى الخزانة الخاصة بالنزلاء".

تطلع الرقيب وقال: "أشياءك ؟ مثل ماذا؟".

"قطعة فراء مرصعة باللؤلؤ لتدفئة اليدين، ساعة يد ماركة كارتييه وعلبة فضية محفور عليها رمز أسرتى".

قال الرقيب المناوب: "لقد تخلصت منها كلها ليلة أمس".

عقب بات: "لعل هذا أفضل كثيراً، فلن أحتاج إليها فى المكان الذى سأذهب إليه"، ثم تبع الرقيب وبستر إلى الخارج نحو الباب الأمامى ثم إلى الرصيف.

قال الرقيب، بعد أن توجه للجلوس أمام عجلة قيادة السيارة الباندا: "اجلس فى الأمام".

أصربات قائلاً: "ولكن من المفترض أن يصحبنى إلى المحكمة ضابطان. إنها قوانين وزارة الداخلية".

أجابه الرقيب: "قد تكون هذه هى حقاً قوانين وزارة الداخلية، ولكننا لدينا نقص فى الموظفين هذا الصباح؛ اثنان فى إجازة مرضية، وواحد يتلقى دورة تدريبية".

"ولكن ماذا لو حاولت أن أهرب".

"تسدى لنا معروفاً كبيراً"، هكذا عقب الرقيب، وهو يندفع بالسيارة بعيداً عن أماكن الوقوف، ثم أضاف: "لأن هذا سيوفر علينا الكثير والكثير من وجع الرأس".

"وماذا تفعل إن قررت أن ألكمك؟".

قال الرقيب المغتاض: "سأرد لك اللكمة".

قال بات مقترحاً: "ولكن هذا ليس تصرفاً ودياً للغاية".

قال السيرجانت: "آسف يا بات، كل ما هنالك أنتى وعدت زوجتى أنتى سوف أنهى عملى اليوم فى العاشرة صباحاً، لكى يتسنى لنا التسوق معاً". توقف قليلاً ثم أكمل: "وهكذا فلن

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

تكون راضية بالمرة عني، أو عنك إذا تطور الأمر".
قال بات: "إنني أعتذر يا أيها الرقيب وبستر، وفي شهر
أكتوبر المقبل سأحاول أن أعرف المناوية التي تخدم فيها بحيث
أتجنبها، وربما تنقل اعتذاري للسيدة زوجتك".
كان يمكن للرقيب أن يضحك لو أن ما قيل كان على لسان
أى شخص آخر، ولكنه كان يعرف أن بات يعنى ما يقوله حقاً.
"ألا تعرف من هو القاضى الذى سأمثل أمامه هذا
الصباح؟"، هكذا سأل بات بينما تتوقف السيارة عند إشارة
مرور.

"اليوم الخميس" هكذا تحدث الرقيب بينما تغير ضوء
الإشارة إلى الأخضر ودفع بمعدل السرعة من جديد. "فلا بد
أن يكون القاضى هو بركنز".

قال بات: "المستشار أرنولد بركنز، قاضى المحكمة العليا، يا
إلهى، إنه سريع الغضب ضيق الصدر. وهكذا، فإن لم يعطنى
حكماً طويلاً بما يكفى، فما على إلا إثارة غضبه". وانحرفت
السيارة نحو موقف سيارات خاص وراء المحكمة العليا
لمارليبيون روود. ما إن خطا بات خارج السيارة حتى توجه
نحوه أحد ضباط المحكمة.

قال بات: "صباح الخير سيد أدامز".

قال السيد أدامز: "عندما ألقىت نظرة على قائمة المتهمين
هذا الصباح ورأيت اسمك يا بات قلت لنفسي لا بد أن الموعد
السنوى لظهوره قد حان. اتبعنى يا بات، ودعنا ننته من هذا
الأمر بأقصى سرعة ممكنة".

رافق بات السيد أدامز عبر الباب الخلفى للمحكمة، ثم مرا
بردهة طويلة إلى زنزانة الاحتجاز. قال بات: "شكراً لك يا سيد
أدامز"، وهو يتخذ مجلسه على مصطبة خشبية رفيعة مثبتة
بالأسمنت إلى أحد الجدران على أحد جوانب القاعة الكبيرة

جيفرى آرشر

المستطيلة. أضاف بات: "أطمع فى لطفك، ولكن هلا تركتني بمضردى ليضع دقائق؛ بحيث أتمكن من استجماع نفسى والتهيؤ قبل رفع الستار".

ابتسم السيد آدمز واستدار مفادراً.

"بالمناسبة يا سيد آدمز؛ هكذا قال بات بينما أمسك السيد آدمز مقبض الباب، ثم أضاف: "هل سبق أن حكيت لك حكايتي عندما حاولت الحصول على عمل يدوى فى موقع بناء فى ليفربول، لكن رئيس العمال وهو رجل إنجليزى لعين تجراً على أن يسألنى —".

"أسف يا بات ولكن بعضنا لديه عمل يقوم به، وعلى أى حال فقد حكيت لى هذه الحكاية فى شهر أكتوبر الماضى". توقف ثم قال: "وعلى ما أذكر فقد سمعتها منك فى أكتوبر السابق عليه أيضاً".

جلس بات مبتسماً على المصطبة، وبما أنه لم يجد شيئاً فى متناول يده لقراءته، راح يتأمل الكتابات المحفورة على الجدار. القاضى بركنز وعند أصيل. شعر بميل للموافقة على تلك الجملة. فريق مان يو بطل الأبطال. ولكن شخصاً آخر شطب على مان يو واستبدل به فريق تشيلسى. وتساءل بات عما إذا كان عليه أن يشطب على تشيلسى ويكتب كورك، الفريق الذى لم يهزمه فريق آخر أبداً؛ ولأنه لم تكن هناك ساعة حائط، فإن بات لم يدرك كم من الوقت مر قبل أن يعود السيد آدمز أخيراً ليصطحبه إلى قاعة المحكمة. كان آدمز الآن يرتدى عباءة سوداء طويلة، ويبدو مثل المعلم الذى درس بات على يديه قديماً.

قال السيد آدمز بجدية: "اتبعنى".

تحلى بات بالصمت على غير العادة بينما واصلاً نزول الطريق المعبد بالحجارة الصفراء، وما هى إلا بضع درجات وتجد نفسك تدخل من الباب الخلفى لقاعة المحكمة. انتهى

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

بات إلى الوقوف في القفص، وإلى جانبه عريف.



تطلع بات نحو المنصة ونظر نحو القضاة الثلاثة الذين يشكلون مجلس القضاء لهذا الصباح. كان هناك شيء غير مضبوط. كان يتوقع رؤية السيد بركنز، الذي كان أصلع في مثل هذا الوقت من العام الماضي، تقريباً يشبه شخصية بيكويك في رواية تشارلز ديكنز. والآن، وفجأة، بدا أن رأسه مغطى بشعر جميل. وعن يمينه كان المستشار ستيدمان، وهو ليبرالي أبدي تسامحاً كبيراً لصالح بات. وعن يسار القاضي الرئيسي جلست سيدة في منتصف العمر لم يرها بات من قبل؛ قد أوجت شفاتها الرفيعتان وعيناها اللتان تشبهان الآنسة بيجى إلى بات بأن موقفه ضعيف، وبوضع المستشار الليبرالي في الحسابان يكون ناتج التصويت اثنين إلى واحد، وخاصة إن أحسن اللعب بأوراقه. بدا كأن تلك السيدة سوف يسرها أن تحكم بالإعدام على سارقي البضائع الصغيرة من المتاجر. تقدم السيد ويستر إلى صندوق الشهود وحلف اليمين. "ما الذي يمكنك أن تخبرنا به عن تلك القضية يا سيرجانت؟" هكذا سأله السيد بركنز، ما إن أتم القسم.

تساءل الرقيب وبستر وهو يدير وجهه نحو رئيس المحكمة:
"هل لى أن أستعين بملاحظاتى يا سيادة القاضى؟" أو ما السيد
بركنز برأسه، ففتح الرقيب غلاف دفتره.

"لقد ألقيت القبض على المتهم فى الساعة الثانية صباحاً،
بعد أن قذف حجر قرميد على واجهة متجر إتش سامويل
للمجوهرات، بشارع ماسون ستريت".

"هل رأيته يقذف بالحجر أيها الرقيب؟"

أقر وبستر: "كلا، لم أره، ولكنه كان يقف على الرصيف
ممسكاً بالحجر بيده عندما ألقيت القبض عليه".

سأل القاضى: "وهل نجح فى الدخول إلى المتجر؟"

قال الرقيب: "كلا يا سيدى، ولكنه كان على وشك أن يقذف
حجرًا آخر عندما قبضت عليه".

"الحجر ذاته؟"

"أعتقد هذا".

"وهل تسبب فى أية أضرار؟"

"لقد شقق الزجاج، ولكن الشبكة المعدنية منعتة من تناول
أى شىء".

سأل القاضى بركنز: "وما قيمة البضائع المعروضة فى
الواجهة؟"

أجاب الرقيب: "لم تكن هناك أية بضائع فى الواجهة؛
ذلك لأن المدير دائماً ما يغلّق عليها فى الخزانة، قبل أن يعود
إلى منزله مساءً".

ظهرت الحيرة على السيد بركنز، وألقى بنظرة على مذكرة
الاتهام، وقال: "أرى أنك حملت السيد أوفلاين مسئولية
محاولته القيام باقتحام ودخول المتجر".

قال الرقيب وبستر: "ذلك صحيح يا سيدى"، وأعاد دفتره
إلى الجيب الخلفى لسرواله.

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

حول السيد بركنز انتباهه إلى بات وقال: "ألاحظ أنك قد وقعت على اعتراف بمسؤوليتك في مذكرة الاتهام يا أوفلاين".
"صحيح سيدي اللورد".

"إذن فعلى أن أحكم عليك بثلاثة أشهر، إلا إن كان بوسعك تقديم تفسير ما". توقف قليلاً ناظراً نحو بات من فوق نظارته ذات العدسات النصف دائرية. سأله: "هل تحب أن تقول شيئاً؟".

"ثلاثة أشهر ليست مدة كافية سيدي اللورد".
قال السيد بركنز في صرامة: "أنا لست لوردًا".
قال بات: "حقاً، لست كذلك؟ لقد اعتقدت أنه بما أنك تضع شعراً مستعاراً، وهو ما لم يكن موجوداً في مثل هذا الوقت من العام الماضي، فلا بد أنك قد حصلت على لقب اللورد".
قال السيد بركنز: "احفظ لسانك، وإلا رفعت عقوبتك إلى ستة أشهر".

قال بات: "لا أجد بأساً في ذلك بالمرّة سيدي اللورد".
قال السيد بركنز وهو لا يكاد يتحكم بأعضابه: "مادمت لا تجد بأساً في ذلك، فإنني إذن أحكم عليك بستة أشهر. خذوا السجن".

قال بات: "شكراً لك سيدي اللورد" وأضاف لاهتاً: "أراك في مثل هذا الوقت من العام المقبل".
أخرج العريف بات من القفص ونزل به الدرج مسرعاً حيث أعاده إلى زنزانه الاحتجاز.

بقى بات في زنزانه الاحتجاز بينما كان ينتظر الانتهاء من ملء جميع الوثائق الضرورية. ومرت ساعات عديدة قبل أن يفتح باب الزنزانه ويقتاد إلى خارج المحكمة إلى وسيلة الانتقال المنتظرة؛ والتي لم تكن في هذه المرة سيارة باندا يقودها الرقيب وبستر، ولكن كانت شاحنة بلونين أزرق وأبيض وبداخلها عشرات من أكشاك الاحتجاز الصغيرة، تعرف

بصناديق التعرق.

"إلى أين تأخذوننى هذه المرة؟" هكذا سأل بات ضابطاً غير ميال للحديث لم يسبق له أن رآه. وكان كل ما حصل عليه من جواب قوله: "سوف تكتشف بنفسك عندما تصل إلى هناك يا صاح".

"هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول؟"
أجابه الضابط: "كلا، ولا أريد أن أسمعها".

"ولكن رئيس العمال، وهو رجل إنجليزى لعين، تجراً على أن يسألنى عما إذا كنت أعرف الفارق بين — دفع الضابط بات ليصعد سلم الشاحنة ودفع به إلى داخل أحد الأكشاك التى تشبه مرحاض الطائرات. ارتقى على مقعد بلاستيكى بينما صفق الباب وراءه.

راح بات يحرق من النافذة المربعة صغيرة الحجم، وعندما اتجهت الشاحنة جنوباً نحو شارع بيكر، أدرك أنه لابد سيكون فى سجن بيلمارش. تنهد بات. على الأقل، لديهم هناك مكتبة لا بأس بها، هكذا فكر، بل ربما كان قادراً على استعادة عمله القديم بالمطبخ.



عندما توقفت الشاحنة من نوع بلاك ماريا خارج بوابات السجن تأكد ظنه. فوق بوابة السجن علقت لوحة خضراء كبيرة كتب عليها بيلمارش، وقد كتب أمامها أحد الظرفاء كلمة جحيم، فصارت جحيم بيلمارش. مرت الشاحنة خلال مجموعة من الأبواب المسيجة، ثم بوابة

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

أخرى، قبل أن تتوقف أخيراً في باحة أرضها قاحلة.
تكدس اثنا عشر سجيناً خارج الشاحنة وصعدوا على الدرجات
إلى منطقة الاستقبال؛ حيث انتظروا في صف. حين بلغ بات صدارة
الصف ابتسم ورأى من يجلس وراء المكتب، يسجل بيانات الجميع.
سأل بات: "كيف الأحوال في هذا المساء البديع السعيد يا
سيد جينكينز؟"

تطلع الضابط الأول من وراء مكتبه وقال: "لا يمكن أن
يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة".
"لقد عاد دون أدنى شك يا سيد جينكينز". هكذا أكد له
بات، وأكمل: "واسمح لي بتقديم خالص التعازي لخسارتكم
الأخيرة".

كرر السيد جينكينز: "خسارتنا الأخيرة؟ عم تتحدث يا
بات؟"

"أقصد أولئك الخمسة عشر فتى من ويلز الذين ظهرُوا في
دبلن مطلع هذا العام، مدعين أنهم فريق لعبة الرجبي".
"لا تستفزني يا بات".

"وهل يمكنني القيام بهذا يا سيد جينكينز، في حين أطمع
أن تسكنني في زنزانتي القديمة؟"

مر الضابط الأول بإصبعه على قائمة الزنازين المتاحة، ثم
قال بتنهيدة مبالغ فيها: "أظن أن هذا غير ممكن يا بات؛ إنها
مشغولة بنزيلين بالفعل، ولكنني لدى الشخص المناسب تماماً
لتقضى معه ليلتك الأولى"، ثم التفت نحو الضابط الليلي
قائلاً: "لم لا تصحب أوفلاين إلى الزنزانة ١١٩".

بدا التردد على الضابط الليلي، ولكنه أذعن بعد نظرة
أخرى من السيد جينكينز ولم يقل سوى: "اتبعني يا بات".

تساءل بات، بينما قاده الضابط الليلي خلال ممر طويل رمادي
الأحجار: "إذن من الذي اختاره السيد جينكينز ليكون رفيق
غرفتي الليلة؟ لا بد أن يكون جاك السفاح أو مايكل جاكسون".

أجابه الضابط الليلي بينما فتح الباب الآخر ذا القضبان:
"سوف تكتشف سريعاً جداً".

سأله بات، وهما يدخلان إلى أرضية العنبر "ب": "هل سبق أن حكيت لك حكايتي عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول، وتجراً رئيس العمال، وهو رجل إنجليزى لعين، على أن يسألنى عما إذا كنت أعرف الفارق بين عارضة السقف والعمود؟".

انتظر بات أن يجيب الضابط، فيما توقف أمام زنزانة رقم ١١٩. وضع فى القفل مفتاحاً كبيراً.

قال الضابط الليلي وهو يدفع الباب الثقيل: "كلا يا بات، لم تحكها لى، ما الفارق، إذن، بين العارضة والعمود؟" هكذا سأله.

كان بات على وشك أن يجيب، ولكنه حين نظر إلى داخل الزنزانة سكت فى الحال.

قال بات: "عمت مساء سيدى اللورد"، للمرة الثانية فى ذلك اليوم لم ينتظر الضابط الليلي ليسمع الجواب. صفق الباب بشدة، وأدار المفتاح فى القفل.

قضى بات ما تبقى من المساء يحكى لى، بأدق التفاصيل، كل ما جرى منذ الساعة الثانية من الصباح السابق. وعندما بلغ نهاية حكايته أخيراً، سأله ببساطة: "ولكن لماذا شهر أكتوبر؟".

فقال بات: "عندما يبدأ التوقيت الشتوى، فإننى أفضل أن أكون بالداخل؛ حيث أضمن ثلاث وجبات فى اليوم ووزنائة مزودة بتدفئة مركزية، فالتوم فى العراء خلال الصيف لا غضاضة فيه بالمره، ولكنه ليس من الحكمة فى شىء خلال الشتاء الإنجليزى".

لا يمكن أن يكون أكتوبر قد عاد بهذه السرعة!

سألته: "ولكن ماذا كنت ستفعل إن حكم عليك السيد بركنز بعام؟".

قال بات: "سأحرص على أن يكون سلوكي مثاليًا من اليوم الأول، وهكذا يطلقون سراحى، بعد ستة أشهر، لحسن السير والسلوك. إنهم يواجهون مشكلة حقيقية في الازدحام بالنزلاء حاليًا".

"ولكن ماذا لو أن السيد بركنز قد تشبث بحكمه الأصلي لثلاثة أشهر فقط، لكانوا أطلقوا سراحك في يناير، منتصف الشتاء".

قال بات: "أمر بسيط، قبيل موعد إطلاق سراحى بوقت قليل، كانوا سيعثرون معى على زجاجة شراب مسكر فى زنزانتي، وهى جنحة تضيف ثلاثة أشهر أخرى إلى مدة عقوبتى، وهذا ما سيجعلنى مرتاحًا حتى حلول أبريل".

ضحكت، ثم سألته: "أهكذا تنوى قضاء بقية حياتك؟".
أقرب بات: "لا أعتقد أن الأمر بهذه الصعوبة"، ثم أضاف وهو يصعد إلى الفراش العلوى ويطفئ المصباح: "ستة أشهر فترة كافية للاستمرار بها".

قلت وأنا أريح رأسى على الوسادة: "تصبح على خير يا بات".

و بينما كنت أستسلم للنوم سألتنى بات: "هل سبق أن حكيت لك حكايتى عندما حاولت الحصول على عمل فى موقع بناء فى ليفربول؟".

أجبتة: "كلا، لم تحكها لى".

"حسنًا، لقد تجرأ رئيس العمال وهو رجل إنجليزى لعين، لا أقصد أى إساءة، على أن يسألنى عما إذا كنت أعرف الفارق بين عارضة السقف والعمود؟".

سألته: "وهل تعرف الفارق؟".

"كان من الأسهل لو سألتني عن الفارق بين جويس الذي كتب يوليسيس، وجوتة الذي كتب فاوست".

توفى بات أوفلاين إثر انخفاض شديد في درجة حرارة جسمه يوم ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٥، بينما كان نائماً تحت أهواس فيكتوريا إيمبانكمنت بوسط لندن. اكتشف جنته ضابط شاب، على بعد ياردات قليلة من فندق السافوي، ذي النجوم السبعة.

الملك الأحمر





بينما كان ماكس يلف سيجارة أخرى وهو راقد على الجزء السفلى من السرير ذى المستويين قال لى: "لقد اتهمونى خطأ وحكموا علىّ بالسجن عقاباً على الجريمة التى لم ارتكبها".
بينما كنت فى السجن، سمعت ذلك الادعاء من أفواه زملائى المساجين فى مناسبات عديدة، ولكن فى حالة ماكس جلوفر اتضح أن ادعاءه كان صادقاً.

كان ماكس ينفذ عقوبة السجن لمدة ثلاثة أعوام لحصوله على أموال عن طريق الاحتيال، وهى ليست لعبته. كان تخصص ماكس هو سرقة أغراض صغيرة من البيوت الكبرى. وقد قال لى ذات مرة، بتباه مهنى ملحوظ، إنه قد تمر سنوات قبل أن يكتشف مالك المنزل اختفاء تحفة توارثتها الأجيال فى أسرته، وخصوصاً، كما أضاف ماكس، إذا ما أخذ المرء شيئاً ما صغر حجمه وغلا ثمنه، من وسط غرفة مكتظة بالأغراض والتحف.

واصل ماكس قائلاً: "ولكن أتعرف؟ إننى لا أتدمر لذلك الخطأ؛ لأنهم إذا حملونى عقوبة الجرم الذى ارتكبته بالفعل، لا تنتهى بى الأمر إلى قضاء فترة عقوبة أطول كثيراً...".
توقف قبل أن يتابع قائلاً: "ولن يكون هناك أى شىء يمكن أن أتطلع إليه بعد إطلاق سراحى".

أدرك ماكس أنه نجح فى إثارة فضولى، وبما أننى لا أستطيع الذهاب إلى أى مكان آخر قبل أن يفتح باب الزنزانة من أجل فسحة الاختلاط - تلك الخمس وأربعون دقيقة المجيدة التى يسمح فيها للسجناء بالخروج من العنابر والزنازين للتمشى

فى الفناء - لذلك التقطت قلمى، وقلت له: "حسنًا يا ماكس، لقد ابتلعت الطعام. احك لى إذن كيف عوقبت على الجريمة التى لم ترتكبها".

حك ماكس عود ثقاب، وأشعل سيجارته المفلوطة يدويًا وأخذ منها نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ. فى السجن، كل فعل يقوم به المرء يتسم بالمبالغة والتأني؛ حيث إنه لا داعى للعجلة فى أى شىء. رقدت على المستوى العلوى من الفراش وانتظرت متحليًا بالصبر الجميل.

بدأ ماكس بسؤال: "هل تُذكرك مجموعة كنجتون بأى شىء؟".

أجبتة: "كلا" مفترضًا أنه لا بد أنه يشير إلى مجموعة من النبلاء ذوى المعاطف الحمراء على ظهور الجياد، فى يد كل منهم كأس نبيد وفى يده الأخرى سوط، يحيط بهم قطع من كلاب الصيد، يقضون صباح الأحد فى مطاردة حيوان ذى فراء له ذيل كثيف. خاب ظنى. فكما مضى ماكس يشرح لى اتضح أن مجموعة كنجتون هى مجموعة كاملة من قطع الشطرنج.

أكد لى قائلاً: "ولكنها ليست مجموعة قطع عادية". زاد شغفى بالموضوع. لقد نحتت القطع، على الأرجح، بيد الفنان الصينى لو بينج (١٤٦٩ - ١٥٤٠)، وهو أحد المعلمين الكبار فى حرفته خلال فترة حكم أسرة مينج الصينية (١٣٦٨ - ١٦٤٤). نحتت جميع القطع البالغ عددها اثنتان وثلاثون بمنتهى الدقة ثم طليت برقة باللونين الأحمر والأبيض. تم تسجيل تفاصيل المجموعة تسجيلًا دقيقًا فى وثائق تاريخية عديدة. وبالرغم من ذلك لم يحدد أى مصدر كم عدد المجموعات التى أنتجها لوبينج خلال حياته على وجه التحديد.

واصل ماكس حديثه بينما تصاعد الدخان ملتويًا فى دوامات من المستوى السفلى للفراش: "لم يظهر لى الوجود إلا ثلاث مجموعات كاملة، الأولى منها تعرض فى غرفة العرش

بقصر الشعب فى بكين؛ والثانية تنتمى للمجموعة الخاصة بـ ميلون فى واشنطن، والثالثة بالمتحف البريطانى. كثيرون من جامعى التحف راخوا يفتشون فى كل ركن من بلاد الصين العظيمة على أمل العثور على المجموعة الرابعة الخرافية. وبالرغم من أن مثل تلك المحاولات انتهت على الدوام بالخيبة، فإن العديد من القطع المنفردة بدأت فى الظهور فى سوق التحف بين الحين والآخر".

أطفاً ماكس برجله أصغر عقب سيجارة رأيته فى حياتى، ثم أكمل: "فى ذلك الوقت كنت أتتبع بعض المعلومات حول الأغراض الصغيرة الموجودة فى قاعة كنجتون فى يوركشاير". سألته: "كيف نجحت فى جمع معلوماتك؟".

قال ماكس: "طلبت دار نشر كانترى لايف من اللورد كنجتون أن يتفضل بكتابة كتاب تذكارى كبير ومزين بالصور الملونة بمناسبة الأعياد، وفى هذا الكتاب وصف بالتفصيل كنوز قاعة كنجتون". راح يلف سيجارة أخرى، ثم أضاف: "كرم أخلاق شديد من جانبته".

"من بين أسلاف هذا السيد النبيل كان جيمس كنجتون الأول (١٥٥٢ - ١٦١٨)، وهو مغامر حقيقى، وقبطان نهاب، وخدام مخلص للملكة إليزابيث الأولى. أنقذ جيمس المجموعة الأولى فى عام ١٥٨٨، قبل غرق السفينة إيزابيلا بلحظات معدودة. وبعد الانتصار رقم ١٧٤ فى مباراة الإنجليز الحربية مع الإسبان، عاد القبطان كنجتون إلى بلايماوث؛ حيث جاد بالفائس المنهوبة من السفينة الغارقة على مولاته الملكة. وقد كانت جلالتها شديدة الشغف بأى شىء صلب، خصوصاً إن كان من الممكن التزين به ذهب، فضة، لؤلؤ أو جواهر نادرة فكافأت القبطان كنجتون بوسام الفروسية. لم تكن بإليزابيث حاجة بمجموعة قطع الشطرنج، لذا فقد وقعت من نصيب سير جيمس نفسه. على خلاف كل من السير فرانسيس أو السير

والتر، واصل السير جيمس رحلات السلب فى البحار العليا. كان فى أوج نجاحه آنذاك، بعدها بعشر سنوات رفته مولاته إلى مجلس اللوردات، واكتسب لقب لورد كنجتون الأول مقابل الخدمات التى قدمها للتاج الملكى". توقف ماكس قليلاً قبل أن يضيف: "إن الفارق الوحيد بين السيد النبيل وبين القرصان الحقيقى هو مع من يتقاسم كل منهما غنائمه".

اللورد كنجتون الثانى، مثل مولاته، لم يبد اهتماماً بالشطرنج، وهكذا بقيت المجموعة ليتراكم عليها الغبار فى إحدى الغرف الاثنتين والتسعين بقصر كنجتون، وبما أنه لا توجد الكثير من الأحداث التاريخية التى تستحق الذكر خلال الحياة الراكدة لكل من اللوردات الثالث والرابع والخامس والسادس من آل كنجتون، سلفاً بعد خلف، فلا يسعنا إلا أن نفترض أن مجموعة قطع الشطرنج المتميزة بقيت فى مكانها دون مساس؛ فإن جيوش الشطرنج لا تثور غاضبة. خدم اللورد كنجتون السابع فى سلاح الفرسان الثانى عشر خلال زمن معركة واترلو. كان الكولونيل يلعب دور شطرنج بين الحين والآخر، وهكذا فقد أزيل الغبار عن المجموعة وعادت إلى قاعة العرض الطولية.

لقى لورد كنجتون الثامن مصرعه أثناء أدائه للخدمة فى سلاح الضباط، وقتل التاسع فى حرب البوير، والعاشر فى حرب الإيبيرس. أما الحادى عشر فقد كان فتى عربيداً شغوفاً بالنساء، عاش حياة أكثر سلاماً وسكينة، ولكنه فى النهاية اضطر إلى فتح قصر العائلة أمام الجمهور؛ وذلك لدواع مالية؛ فقد كان قصر كنجتون بحاجة إلى سقف جديد. توافد العامة كل نهاية أسبوع بأعداد لا تحصى، ويدفع مبلغ صغير كان بوسعهم التجول فى جنبات القصر؛ وعندما كانوا يمرون باللونج جايرى كانوا يشاهدون التحفة الصينية على حاملها، محاطة بحبل أحمر.

مع تراكم الديون - التي لم تنجح في سدادها رسوم الدخول التي يدفعها الزوار من العامة - اضطر لورد كنجتون الحادى عشر إلى أن يبيع، بالمزاد، الكثير من مقتنيات عائلته الموروثة، بما فيها مجموعة كنجتون لقطع الشطرنج. وضعت قاعة كريستى للمزادات مبلغ مائة ألف ثمناً مبدئياً سعراً لتلك التحفة الأصلية، لكنها انتهت لتباع بسعر ٢٣٠ ألفاً عند الدقة الثالثة لطريقة مشرف المزداد.

"عند زيارتك التالية لواشنطن"، هكذا أضاف ماكس بين سحابتى دخان، "تستطيع أن تشاهد مجموعة قطع الشطرنج الأصلية لعائلة كنجتون، بما أنها الآن جزء من مجموعة ميلون الخاصة. كان من الجائز أن تنتهى حكايتى هاهنا"، واصل ماكس: "لو أن لورد كنجتون الحادى عشر لم يتزوج من فنانة رقص إيقاعى أمريكية أنجبت له صبياً، ولقد ظهر أن الطفل يملك موهبة خاصة لم توجد فى أسلافه من آل كنجتون لأجيال عديدة؛ كان لديه عقل.

"دون مباركة أو موافقة من والده، صار السيد المحترم هنرى كنجتون مديراً لشركة مضاربة مالية، وبالتالي أصبح الوريث الطبيعى للورد كنجتون الأول. لقد كان رجلاً يمخر فى عباب سوق المال بالسهولة نفسها التى كان سلفه القرصان يشقون بها أمواج البحار العليا، وعندما بلغ السابعة والعشرين من عمره كان هنرى قد جمع مليونه الأول أرباحاً صافية، وهو ما أسعد فؤاد أمه، والتي أشادت بسرعة إيقاعه فى مراكمة الأرباح وأنه لابد ورث عنها هى سرعة الإيقاع تلك، نظراً لتاريخها فى الرقص الإيقاعى. فى الوقت الذى انتقل فيه اللقب إلى هنرى من أبيه المتوفى كان قد تقلد منصب رئيس بنك كنجتون. كان أول شىء يشرع فى القيام به مستفيداً من الثروة المكتسبة حديثاً هو أن يعيد لقصر آل كنجتون مجده السابق، وبالطبع لم يعد يسمح لأفراد من عامة الشعب أن يدفعوا خمسة جنيهاً

مقابل ركن سياراتهم فى فناءه الأمامى.

وعلى منوال أبيه، تزوج لورد كنجتون الثانى عشر من امرأة مرموقة. كانت إلزى ترامبشو ابنة مالك لمصنع أقطان فى يوركشاير، وخريجة لمعهد شلتنهام لتعليم السيدات النبيلات، وشأن أى فتاة معتزة بنفسها من يوركشاير، كانت إلزى حريصة جداً فى إنفاق الأموال.

وفى حين كان زوجها غائباً؛ ليجتهد فى جنى الأموال، كانت إلزى هى سيدة قصر كنجتون بلا منازع. وبما أن إلزى قد قضت سنوات نشأتها وتكونها ترتدى ما تستغنى عنه أختها الكبرى من ثياب، وتحمل كتاب أختها المتهرئ إلى المدرسة، وفيما بعد كانت تستعير طلاء شفائها، بصرف النظر عن اللون، فقد كانت مؤهلة خير تأهيل لتكون الحارس الأمين للمبنى الهائل الذى توارثته الأجيال. فقد تعهدت - بمهارة محكمة واجتهاد شديد وتدبير منزلى من الدرجة الأولى - القصر المرمم حديثاً بالعناية والرعاية، ومع أنها لم تكن تهتم ألبتة بلعبة الشطرنج، فكم أعاظمتها رؤية كابينة العرض الخالية فى قاعة العرض الطولية، وأخيراً حلت هذه المشكلة بينما كانت تتجول فى أحد أسواق الأسعار المخفضة التى تقام بعرض المقتنيات الخاصة على هياكل السيارات". هكذا قال ماكس ثم واصل قائلاً: "حلت المشكلة وفى الوقت نفسه غيرت من طالع أشخاص عديدين، كنت أنا واحداً منهم". دهس ماكس عقب سيارته الثانية واسترحت لأنه لم يلف سيجارة أخرى فى الحال، فقد بدأت زنزانتنا الصغيرة تشبه محطة قطارات بادنجتون فى أزمنة المحركات البخارية.

كانت إلزى تتمشى فى أرجاء سوق البضائع المستعملة فى بودزى صبيحة يوم أحد ممطر، وكان حرصها على حضور مثل هذه

المناسبات فى الأيام الممطرة؛ لأن ذلك يعنى زبائن أقل عدداً وبالتالي يصير من الأسهل عليها الفوز بصفقة رابحة. كانت تنبش وتفتش فى بعض الملابس عندما وقعت عينها على لوح رقعة الشطرنج. أعادت المربعات البيضاء والحمراء إلى ذهنها ذكريات صورة فوتوغرافية قد رأتها فى كتالوج قديم لقاعة مزادات كريستى، يعود تاريخ اللوح إلى وقت عرض المجموعة الأصلية للبيع فى المزاد العلنى. راحت إلزى تساوم لبعض الوقت حول السعر مع الرجل الواقف عند مؤخرة سيارة جاجوار قديمة، وتوصلت لدفع مبلغ ثلاثة وعشرين جنيهاً مقابل رقعة الشطرنج المصنوعة من العاج.

عندما عادت إلزى إلى القصر وضعت الرقعة التى امتلكتها للتو فى كابينة العرض الخاوية، وأسعدها أن تكتشف أنها ملائمة للقياس تماماً. لم تعر هذه المصادفة مزيداً من تفكيرها، حتى نصحتها عمها بيرتى بأن تثنى الرقعة لأغراض تأمينية، كما فسر لها.

لم تقتنع إلزى برأيه، لكنها أيضاً لم تفكر بالمرّة فى الاستهانة بعمها، وهكذا أخذت الرقعة معها إلى لندن فى إحدى رحلاتها الشهرية إليها، من أجل زيارة خالتها جيرترود. ومرة الليدى كنجتون بمتجر سوزبى كانت إلزى دائماً ما تصير الليدى كنجتون ما إن تصل إلى لندن وهى فى طريقها إلى منزل خالتها فى فورتنام أند مازون. سألتها مساعدة شابة فى المتجر إن كان يمكن للسيدة الجليلة أن تتكرم وتعود خلال فترة بعد الظهر، فعندئذ سيكون الخبير المثنى موجوداً لتقدير قيمة الرقعة.

بعد أن تناولت غداء متأنياً بصحبة خالتها جيرترود، عادت إلزى إلى متجر سوزبى. رحب بها هناك السيد سينسل، مسئول قسم التحف الصينية، والذى أدلى برأيه بأن القطعة تنتمى بلا أدنى شك لحقبة أسرة مينج الحاكمة.

سألت إلزي: "وهل بمقدورك أن تحدد لها ثمناً —" توقفت ثم أكملت: "الأغراض تأمينية؟".

قال السيد سينسل: "من ألفين إلى ألفين وخمسمائة جنيه يا سيدتى.. فرقع الشطرنج التى تنتمى لعائلة مينج يتوفر منها الكثير". واصل شرحه قائلاً: "أما الشىء النادر حقاً فهى القطع المنفردة ذاتها، أما العثور على مجموعة كاملة منها.."، ورفع راحتى يديه وكأنه يبتهل إلى الله أن يرزقه مجموعة كاملة من تلك القطع النادرة ثم سألها: "لعلك تفكرين فى بيع لوح الشطرنج؟".

أجابت إلزي فى صرامة: "كلا، بل على العكس. إننى أفكر فى الإضافة إليها".

ابتسم الخبير المثلثن؛ فعلى كل حال لم يكن متجر سوثى أكثر من متجر رهونات فخم، تعامل معه كل جيل من أجيال الطبقة الأرستقراطية إما بالبيع أو بالشراء.

حين عادت إلزي إلى قصر كنجتون أعادت رقعة الشطرنج إلى موضعها المشرف فى قاعة الرسم.

كانت الخالة جيرترود هى من حرك العجلة الأولى فى الحكاية. فى أحد الأعياد أهدت لابنة أختها بيدقاً أبيض. وضعت إلزي القطعة المنفردة على لوح الشطرنج. بدا البيدق وحيداً للغاية.

قالت الليدى العجوز فى تحدّ: "والآن يا عزيزتى، عليك أن تكتشفى ما إن كان بمقدورك استكمال المجموعة خلال سنين حياتك". قالت الخالة ذلك غافلة عن سلسلة الأحداث التى كانت تجرّها بقولها هذا، وما بدأ بوصفه نزوة عابرة أثناء حضور أحد معارض بيع الأشياء القديمة فوق هياكل السيارات الخاصة فى بودزى، تحول إلى هوس مسيطر، وقد شرعت إلزي تمشط العالم بحثاً عن القطع المفقودة من مجموعة الشطرنج، وكان اللورد كنجتون الأول سيصبح فخوراً بها.

الملك الأحمر

عندما أنجبت الليدى كنجتون ابنها الأول، إدوارد، كانت هدية الزوج الممتن لزوجته وزيراً أبيض. وهى قطعة من العاج المنحوت بفخامة لوزير مزخرف بعباءة ملكية طويلة ذات نقوش معقدة التفاصيل. انتصب الوزير على رقعة الشطرنج ناظرًا بازدراء نحو البيدق الوحيد.

القطعة المقتنية التالية كانت بيدقاً أبيض، حصل عليه العم بيرتى من أحد تجار التحف فى نيويورك؛ مما سمح للوزير الأبيض أن ييسط سلطته على مجندين فى جيشه.

وحين أنجبت الابن الثانى، جيمس، كانت هدية مولده فيلاً أحمر، وهكذا صار قبالة الوزير وبيدقيه هدف حربى، وإن كان على الطرف الآخر البعيد من الرقعة. وسرعان ما بدأت العائلة بأكملها تنضم إلى عملية البحث المحموم عن القطع المفقودة. كانت القطعة المنتقبة التالية هى بيدق أحمر، عندما عرض للبيع فى مزاد علنى بقاعة بونهام. واتخذ مكانه على الطرف القصى من الرقعة، بانتظار أن يخوض حرباً، ويحلول هذا الوقت صار كل من يعمل بمجال تجارة التحف يعلم تمام العلم برسالة حياة الليدى كنجتون.

القطعة التالية التى شقت سبيلها إلى رقعة الشطرنج كانت رخاً أبيض، والذى أوصلت به الخالة جيرترود لتملكه إزى بعد وفاتها.

فى عام ١٩٩١ توفى اللورد كنجتون الثانى عشر، وفى هذا الحين لم يكن ينقص الجيش الأبيض من مجموعة الشطرنج سوى بيدقين وحصان، فى حين الجيش الأحمر كان يتقصه أربعة بيادق، ورخ واحد وملك.

فى يوم ١١ مايو ١٩٩٢، طرق أبواب قصر كنجتون تاجر تحف بحوزته ثلاثة بيادق حمراء وحصاناً أحمر. كان قد عاد مؤخراً من رحلة عبر أقاليم الصين الخارجية. قال للسيدة

النبيلة إنها كانت رحلة مضية وطويلة، ولكنه أكد لها أنه لم يعد خاوى الوفاض.

على الرغم من أن سمو الليدى كانت فى أزدل العمر، إلا أنها، ظلت تقاوم وصمدت للمنافسة لعدة أيام، قبل أن يستسلم التاجر أخيراً لجيوش كنجتون ويغادر قابضاً على شيك بمبلغ ٢٦ ألف جنيه إسترليني.

وعلى الرغم من توالى الشائعات من هونج كونج، التى طارت حتى بوسطن، والتى بلغت تجاراً بعيدين مبعده موسكو والمكسيك، فنادرًا ما تحولت الشائعة إلى حقيقة فى بحث الليدى كنجتون المتواصل عن القطع المفقودة.

خلال السنوات القليلة الماضية، عشر إدوارد، لورد كنجتون الثالث عشر، على البيدق الأحمر الأخير وعلى رخ أحمر فى منزل أحد النبلاء المفلسين، الذى كان زميلاً لإدوارد فى أيام



الملك الأحمر

الجامعة، لم يشأ شقيقه جيمس أن يهزم في المنافسة، فامتلك بيدقين أبيضين من أحد تجار بانكوك.

وهكذا لم يتبق إلا الملك الأحمر الذي ينتظر العثور عليه. ظلت الأسرة تدفع مبالغ لا بأس بها مقابل أى قطع مفقودة من مجموعة قطع الشطرنج، فصار كل تاجر على وجه الأرض يعلم تمام العلم أنه إذا استطاعت الليدى كنجتون أن تستكمل المجموعة فسوف تساوى ثروة.

عندما دخلت إلزي العقد التاسع من عمرها، أعلمت ولديها بما أوصت به فى وصيتها بتقسيم الميراث بالتساوى فيما بين الاثنين، ولكن مع شرط استثنائى واحد؛ فقد اتتوت أن توصى بمجموعة قطع الشطرنج لمن ينجح منهما فى العثور على قطعة الملك الأحمر المفقودة.

توفيت إلزي فى الثالثة والثمانين من عمرها، دون أن تحصل على الملك الأحمر.

كان إدوارد قد حصل على اللقب من قبل هذا وهو أمر لا يمكن تقريره تبعاً لأى وصية والآن، وبعد وفاتها وانتهاء مراسم الدفن والعزاء، ورث كذلك القصر بالإضافة إلى مبلغ ٨٥٧ ألف جنيه. انتقل جيمس إلى شقة بميدان كادوجان، وحصل كذلك على مبلغ ٨٥٧ ألف جنيه. وبقيت مجموعة قطع شطرنج كنجتون فى خزانة العرض - كانت لا تزال ناقصة قطعة، ولا يعرف بعد أى الشقيقين هو مالكها، وهنا ظهر على مسرح الأحداث ماكس جلوفر.

تمتع ماكس بموهبة لا خلاف عليها، وهى قدرته على إلانة الحديد وتذويب الصوان، فبعد أن تلقى تعليمه فى إحدى المدارس الحكومية الصغيرة بإنجلترا، أهلتة موهبته كلاعب كريكيت أعسر وأنيق الهدام للاختلاط بعلية القوم الذين كان يسرقهم فيما بعد؛ فعلى كل حال، من ذا الذى لا يثق بلاعب

يحقق كل هذه النقاط بلا أى جهد؟

المباريات الدورية التى تقام بعيداً عن العاصمة كانت موضع ترحيب بالغ من قبل ماكس، بما أنها كانت تتيح له التعرف على إحدى عشرة ضحية محتملة جديدة. دون أن نستثنى فى هذا الضيعة الريفية الصغيرة للورد كنجتون الحادى عشر. فى الوقت الذى انضم فيه سيادة اللورد إلى الفريقين لاحتساء الشاى فى السرادق المخصص لهم، كان ماكس قد نجح فى أن يستدرج الحكم المحلى للضيعة فى الحديث بحيث روى له تاريخ مجموعة شطرنج كنجتون، بما فى ذلك الشرط الذى ورد فى وصية الأم وينص على أن أى الشقيقين سيصل أولاً إلى قطعة الملك الأحمر المفقودة هو من سيرث المجموعة الكاملة تلقائياً.

فى أثناء التهام قطعة من الكعك الإسفنجى، تجرأ ماكس على أن يسأل سيادة اللورد إن كان يسمح له بإلقاء نظرة على مجموعة شطرنج كنجتون، بما أنه مفتون بلعبة الشطرنج. وأبدى اللورد كنجتون سروراً فائقاً بأن يدعو هذا اللاعب الماهر ليصحبه إلى قاعة الرسم الخاصة به. لحظة رأى ماكس المربع الخاوى، بدأت تتشكل فى عقله خطة ما، وطرح بضعة



أستلّة دسها ببراعة فى ثنايا الحوار، وأجابها مضيفه فى رعونة وطيش. تجنب ماكس أى إشارة لشقيق اللورد، أو للفقرة الواردة فى الوصية بخصوص ذلك. ثم أمضى ما تبقى من أصيل اليوم فى الملعب، يصقل خطته ويحبكها، وأضع رميتى كرة يومها. حين انتهت المباراة، رفض ماكس الدعوة للانضمام إلى بقية أفراد الفريق فى مشرب الضيعة، وبرر ذلك بأن لديه عملاً عاجلاً فى لندن.

بعد أن وصل شقته فى هامرسميث بدقائق، اتصل بسجين قديم تقاسم معه الوسادة والدثار عندما كان نزيلاً فى إحدى المؤسسات الإصلاحية سابقاً. أكد الزميل السابق لـ"ماكس" أن بوسعه أن ينفذ له بغيته، ولكن هذا سيقضى منه حوالى شهر، كما أنه سيكلف "مبلغاً وقدره". اختار ماكس أصيل يوم أحد ليعود إلى قصر كنجتون ويواصل أبحاثه. ترك سيارته الإيم جى العتيقة فى المكان المخصص للزوار، متمصاً شخصية أحد جامعى التحف كما حاول أن يفتع نفسه بذلك. اتبع اللوحات الإرشادية حتى الباب الأمامى؛ حيث دفع خمسة جنيهات مقابل تذكرة الدخول. كانت تكاليف صيانة القصر وإدارته أوجبت من جديد أن يفتح أبوابه أمام العامة فى أجازات نهاية الأسبوع.

سار ماكس بعزم على طول ردهة طويلة مزينة بلوحات زيتية لوجوه الأسلاف، رسمتها ريشات مشاهير الرسامين من أمثال رومانى، وجانپورو، وليلى وستابس. قد يقدر ثمن كل لوحة من هذه اللوحات بثروة فى السوق السوداء، غير أن عينى ماكس كانتا مثبتتين على شىء أصغر حجماً منها بكثير، شىء يوجد بصالة العرض الطولية فى الوقت الحاضر.

عندما دخل ماكس إلى القاعة التى يعرض بها مجموعة شطرنج كنجتون، وجد القطع الأصلية محاطة بمجموعة شغوفة من الزوار يوجههم ويخاطبهم أحد المرشدين السياحيين. وقف ماكس فى نهاية الحشد واستمع لحكاية يعرفها تمام

المعرفة. انتظر فى صبر حتى ينتقل الزوار إلى غرفة الطعام لإبداء إعجابهم بأطقم الفضيّات الخاصّة بالعائلة.

قال المرشد السياحى لمجموعة الزوار بصوت منغم: "بعض هذه القطع تعود لزمان أسطول الأرمادا الأسباني"، ثم تبعه الزوار إلى الغرفة المجاورة.

نظر ماكس للوراء نحو الردهة ليتأكد من أن مجموعة الزوار التالية لن تهبط عليه فجأة. وضع يده فى جيبيه وأخرج الملك الأحمر. باستثناء اللون، كانت القطعة المنحوتة بكل براعة مطابقة فى أدق تفاصيلها للملك الأبيض الذى يقف على الجانب الآخر من الرقعة. كان ماكس يعلم بأن القطعة المزيفة لن تصمد أمام اختبار تحديد العمر باستخدام الكربون المشع، لكنه كان راضياً بامتلاكه نسخة طبق الأصل. غادر قصر كنجتون بعد ذلك بدقائق، وقاد سيارته عائداً إلى لندن.

كانت مشكلة ماكس التالية هى أن يقرر فى أى مدينة سيوجد الحالة الأمنية الأكثر تراحياً من أجل أن يضرب ضربته: لندن أم واشنطن أم بكين. متحف الشعب فى بكين فاز فى السباق بفارق طفيف. وعلى الرغم من ذلك، فإنه عند حساب تكاليف المسألة برمتها، كان المتحف البريطانى هو الحصان الوحيد فى المضمار الذى له نصيب من الفوز. غير أن ما حسم التردد فى نهاية الأمر أمام ماكس كانت فكرة قضاء السنوات الخمس القادمة حبس أحد السجون الصينية، أو إصلاحية عقاب أمريكية، أو حبس أحد السجون المفتوحة فى شرق إنجلترا. كان الفوز من نصيب إنجلترا دون أى منافسة.

زار ماكس المتحف البريطانى فى الصباح التالى لأول مرة فى حياته. السيدة التى تجلس وراء نافذة بيع التذاكر قامت بتوجيهه إلى مؤخرة الطابق الأرضى؛ حيث سيوجد المجموعة الصينية المعروضة بالمتحف.

اكتشف ماكس أن مئات التحف الصينية تشغل خمس عشرة غرفة، ولزمته ساعة أو نحوها ليحدد موقع مجموعة قطع الشطرنج. كان قد فكر في طلب المساعدة من أحد الحراس المرتدين لزي موحد، غير أنه لم يرغب في لفت الانتباه إلى نفسه، كما أنه تشكك أن الحارس سيكون بمقدوره الإجابة عن سؤاله، وقرر أن يستغنى عن ذلك.

كان على ماكس أن يبقى بالمكان لبعض الوقت إلى أن صار بمفرده بالقاعة؛ فلم يكن مستعداً أن يشهد حيلته الصغيرة أحد الزوار أو أحد الحراس، وهو الأسوأ. لاحظ ماكس أن حارس الأمن يغطي أربع قاعات كل نصف ساعة. وبالتالي سيكون عليه أن ينتظر حتى يغادر الحارس متوجهاً إلى قاعة الفنون الإسلامية، وفي الحين نفسه عليه أن يتأكد من عدم وجود زوار آخرين في محيط بصره، قبل أن يستطيع أن يقدم على حركته الحاسمة.

مضت ساعة أخرى حتى شعر ماكس بالثقة الكافية لأن يستخرج النسخة المزيفة من جيبه ويقارنها بالقطعة الأصلية التي تقف بكل فخر على مربعها الأحمر في كابينة العرض. حذر كل من الملكين في شبيهه، توعم متطابق، عدا أن أحدهما زائف. ألقى ماكس نظرة سريعة من حوله كانت القاعة لا تزال خالية. وعلى كل حال، كانت الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح يوم الثلاثاء، في منتصف الفصل الدراسي، والشمس كانت ساطعة.

انتظر ماكس حتى انتقل الحارس إلى قاعة الفنون الإسلامية، وعندها أقدم على حركته التي خطط لها أحسن التخطيط. بمساعدة مديّة صغيرة، فتح بحرص غطاء كابينة العرض التي تحتوى مجموعة قطع الشطرنج الصينية. وفي التو والحال انطلق إنذار بصوت حاد ومجلجل، ولكن قبل أن يظهر أول الحراس بوقت طويل كان ماكس قد استبدل الملكين

وأعاد غطاء الصندوق إلى موضعه، وفتح نافذة ثم خرج يتمشى بشكل طبيعى ودخل الغرفة التالية. كان يتأمل زياً يابانياً لمحاربى الساموراي عندما اندفع اثنان من الحراس إلى داخل القاعة المجاورة. أحد الحارسين تفوه بكلمة نابية عندما رأى النافذة المفتوحة، بينما راح الآخر يتأكد إن كان هناك أى شىء مفقود.

قال ماكس مقترحاً، وهو لا يخفى إعجابه بنفسه: "والآن، تريد أن تعرف كيف أوقعت بالشقيقتين فى الفخ". أومات له موافقاً، لكنه لم يعد للتحديث حتى أنهى لف سيجارة أخرى. واصل ماكس قائلاً: "بادئ ذى بدء، إياك والتسرع فى صفقة تجارية عندما يكون بحوزتك شىء يتنافس عليه مشتريان، وفى هذه الحالة، هما مشتريان مستميتان على شرائه. كانت زيارتى التالية "توقف ليشعل سيجارته ثم أردف: "إلى أحد المتاجر فى شارينج كروس روود. لم يكن الأمر بحاجة إلى قدر كبير من البحث هذه المرة؛ لأن المتجر، واسمه متجر مارلو، يعلن عن نفسه فى دليل الشركات تحت قسم الشطرنج، بشعار يقول "لخدم المحترفين ونرشد المبتدئين".

دخل ماكس إلى المتجر القديم الرث، واستقبله رجل نبيل متقدم فى العمر كان يشبه أحد بيادق الشطرنج التى دبت فيها الحياة؛ أى إنه شخص لن يتحرك إلا خطوة وراء أخرى نحو الأمام، ولكنه مازال يبدو كأنه سوف يؤكل فى نهاية الأمر؛ فهو بلا خلاف ليس من النوع الذى يصل إلى الحد الأقصى من الرقعة ليتحول إلى ملك. سأل ماكس الرجل العجوز عن مجموعة من قطع الشطرنج رآها فى واجهة العرض، ثم تبع هذا سلسلة من أسئلة تدرب عليها جيداً؛ مما قاد الحديث فى سلسلة إلى قيمة الملك الأحمر الخاص بمجموعة قطع شطرنج كنجتون.

الملك الأحمر

أعمل المساعد العجوز فكره ثم قال: "إذا ظهرت مثل تلك القطعة فى السوق فقد يبلغ ثمنها ما يفوق خمسين ألف جنيه، فكما يعرف الجميع هناك مشتريان يتنافسان عليها". كانت تلك هى المعلومة التى دفعت ماكس لإجراء بعض التعديلات على خطته، وكانت مشكلته التالية هى معرفته بأن رصيده فى البنك لا يسمح له بزيارة إلى مدينة نيويورك. وقراره بأن عليه أن "يمتلك" أغراضاً صغيرة عديدة من منازل كبرى، أغراضاً يمكن بيعها بسرعة، بحيث يتسنى له أن يزور الولايات المتحدة بمال يكفى لوضع خطته موضع التنفيذ. ومن حسن حظه أن حدث هذا فى منتصف موسم مباريات لعبة الكريكت.

عندما هبطت طائرة ماكس فى مطار جى إف كينيدي، لم يتجشم عناء زيارة متجر سوثنى أو كريستى، وبدلاً من ذلك طلب من سائق سيارة الأجرة أن يوصله إلى صالة مزادات فيليبس باتجاه الشرق بشارع ٧٩، وكم استراح، حينما أخرج المنحوتة الرقيقة والمسروقة من المتحف البريطانى، لأن الموظف الشاب لم يبد اهتماماً كبيراً بالقطعة. سأله الموظف: "هل تعلم مصدرها؟".

أجاب ماكس: "كلا، لقد توارثتها عائلتى لسنوات". بعد ذلك بستة أسابيع تم طبع كتالوج مزاد، وطاب ماكس نفساً حين وجد أن السلعة رقم ٢٣ كانت مدرجة باعتبارها مجهولة المصدر، بسعر فتح للمزاد ٣٠٠ دولار. ولأنها لم تكن من بين معروضات المزاد المصحوبة بصورة فوتوغرافية، أحس ماكس بثقة أن قليلين فقط، هم من سوف يبدون اهتماماً كبيراً بالملك الأحمر، وبالتالي سيكون من غير المحتمل أن ينمو إلى إدوارد كنجتون أو شقيقه جيمس علم بها، ما لم يتدخل هو ليلفت انتباه كل منهما.

قبل الموعد المحدد للمزاد بأسبوع واحد، اتصل ماكس بصالة فيليبس في نيويورك. لم يطرح على الموظف الشاب سوى سؤال واحد، أجابه الموظف قائلاً إنه رغم إصدار الكتالوج من فترة تزيد على الشهر، فإنه ما من شخص أبدى أى اهتمام خاص بملكه الأحمر. تظاهر ماكس بخيبة الأمل.

الاتصال الهاتفي التالي الذى أجراه ماكس كان لقصر كنجتون، ونجح فى إغراء اللورد الميجل مستعيناً ببضع جمل تبدأ بـ "ماذا لو، وعبارات تبدأ بـ "إنما، ووصل به الأمر إلى "ربما"، مما دفع اللورد كنجتون فى النهاية لدعوته لتناول الغداء فى نادى وايتس العريق.

أثناء تناولهما طبقاً من حساء وندسور البنى، أوضح اللورد كنجتون لضيفه أن ماكس لا يمكنه أن يظهر أى أوراق على مائدة الغداء: لأن هذا ضد تقاليد النادى. أو ما ماكس متفهماً، ووضع كتالوج قاعة فيليبس تحت مقعده، وبدأ يغزل بإتقان حكاية حول كيف جرت الأمور بمحض المصادفة، واكتشف الملك الأحمر بينما يراجع فى الكتالوج قطعة لأحد رجال الدولة الصينيين القدامى نيابة عن أحد زبائنه.

قال ماكس: "كان من الممكن أن أغفل عنه أنا نفسى، لو لم تطلعتى أنت على تاريخه".

لم يهتم اللورد كنجتون بتناول البودنج (الخبز والزبد)، ولا بتناول الجبن (من نوع الشيدر)، أو حتى قطع البسكويت، ولكنه اقترح أن يتناولوا القهوة فى المكتبة الخاصة بالنادى؛ حيث يسمح بمناقشة الأعمال التجارية بها.

فتح ماكس كتالوج قاعة فيليبس ليكشف عن السلعة رقم ٢٣، إلى جانب بعض الصور الفوتوغرافية المفككة الأخرى، ولم يعرضها على رجل المزاد. عندما رأى اللورد كنجتون أن الثمن التقديرى هو ثلاثمائة دولار، كان سؤاله التالى هو: "هل تظن أن قاعة فيليبس للمزادات قد تكون أطلعت أخى بشأن هذا المزاد؟".

أجابه ماكس: "ليس هناك ما يبرر هذا الاعتقاد؛ فقد أكد لى أحد الموظفين العاملين بهذا المزاد أن أحداً من الجمهور لم يبد أى اهتمام بالسلعة رقم ٢٣".

"ولكن كيف يمكنك أن تكون بهذه الثقة من منشئها الأصلي؟"

قال ماكس فى ثقة تامة: "إنه عملى الذى أكسب منه عيشى، ولكنك تستطيع على الدوام أن تجرى اختباراً بالكربون المشع لتحديد عمر القطعة، وإذا ثبت لك أننى على خطأ، لن تكون مضطراً لأن تدفع لى".

قال اللورد كنجتون: "لا يطمع المرء فى أكثر من ذلك، إذن فأنا أفترض أننى سوف أسافر إلى أمريكا وأزايد على القطعة بنفسى"، هكذا أضاف وهو يضرب بيده على ذراع المقعد الجلدى، فانبعثت سحابة صغيرة من الغبار فى الهواء.

قال ماكس: "ترى هل سيكون هذا من الحكمة سيدي اللورد، فى ظل ———".

سأل اللورد كنجتون: "ولم لا؟".

"الأمر هو أنك إذا ما سافرت إلى الولايات المتحدة دون وجود تفسير واضح لذلك، فقد ينشأ فضول لا داعى له بين بعض أفراد أسرتك". توقف ماكس للحظات، ثم واصل قائلاً: "وإذا شاهدك شخص ما تتردد على دار للمزادات..".

قال كنجتون: "أدرك ما ترمى إليه"، ثم نظر مقطباً نحو ماكس وسأله: "فيم تنصحنى إذن؟".

قال ماكس: "سأكون مسروراً غاية السرور إذا سافرت لأمثل مصالحك فى هذا المزاد بالنيابة عنك".

سأله اللورد كنجتون: "وكم تبلغ أتعابك مقابل خدمة كتلك؟".

قال ماكس: "ألف جنيه زائد النفقات، مقابل اثنين ونصف بالمائة من السعر الذى يرسو عليه المزاد، ودعنى أؤكد لك أن

هذه هي الإجراءات المتعارف عليها".

أخرج لورد كنجتون دفتر شيكاته من أحد جيوبه الداخلية وحرر شيكاً بمبلغ ١٠٠٠ جنيه ثم سأل بنبرة توحى بلا مبالاة عادية: "ما تقديرك للمبلغ الذى قد تباع به القطعة؟".
سُر ماكس لإثارة اللورد كنجتون لموضع ثمن القطعة، كما لو أن هذا هو سؤاله التالى. قال ماكس: "الأمر يتوقف على ما إذا كان هناك أى شخص آخر مطلع على سرنا الصغير هذا. ولكننى مع ذلك أقترح أن تضع حداً أقصى للسعر الذى تقدمه وهو مبلغ خمسين ألف دولار سعراً للقطعة".
"خمسون ألف دولار؟" قال اللورد كنجتون هذه العبارة فى غير تصديق.

قال ماكس مقترحاً: "لن تزيد على ذلك إلا بصعوبة، وتذكر أن مجموعة قطع الشطرنج كاملة يمكن أن تباع بما يفوق المليون —"، توقف قليلاً قبل أن يقول: "— أو أنها لن تساوى فلساً، فى حالة شراء أخيك للملك الأحمر".
كرر لورد كنجتون قائلاً: "أدرك ما ترمى إليه، ولكن ما زال بمقدورك الحصول على القطعة ببضع مئات من الدولارات".
قال ماكس: "لندع الله أن نفلح فى هذا".
غادر ماكس جلوفر نادى وايتس بعد الثالثة ببضع دقائق، وأوضح لمضيفه أن لديه موعداً آخر ذلك الأصيل، وهو ما لم يكذب بشأنه فى الحقيقة.

تفقد ماكس عقارب ساعة يده، وقرر أنه ما زال لديه وقت كاف ليتمشى قليلاً فى حديقة جرين بارك دون أن يتأخر على مواعده التالى.

وصل ماكس إلى ميدان سلوان قبل تمام الرابعة ببضع دقائق، واتخذ مجلسه على مقعد طويل قبالة تمثال السير فرانسيس دريك، وبدأ يتدرب على دوره الجديد، وفقاً للنص المتخيل. حين سمع دقات ساعة البرج القريبة تدق أربع دقات،

الملك الأحمر

نهض متوثباً وسار بهمة عبر ميدان كادوجان، توقف عند مبنى رقم ١٦، صعد الدرج، ودق جرس إحدى الشقق.

فتح جيمس كنتنجتون الباب ورحب بضيفه مبتسماً.
أوضح ماكس قائلاً: "لقد اتصلت بك في وقت سابق من صباح اليوم، اسمى جلوفر".

قاده جيمس كنتنجتون عبر غرفة الاستقبال وأشار إلى ماكس ليجلس بجوار نار خامدة في المدفأة. وجلس الشقيق الأصغر قبالة.

رغم أن الشقة كانت فسيحة، بل وكبيرة المساحة، كانت هناك بعض الخطوط الخارجية الظاهرة على الجدران توحي بالمواضع التي علقت عليها من قبل اللوحات الزيتية ذات مرة، وشك ماكس في أن تلك اللوحات الثمينة لم تذهب للتنظيف أو لصنع أطر جديدة لها؛ فأعمدة النخيل في الصحف تشير من وقت لآخر إلى عادات جيمس السيئة في الإفراط في الشراب وتلمح إلى ديون مقامرات عديدة لم تسدد بعد.

عندما بلغ ماكس منتهى قصته، كان في أتم الاستعداد للسؤال الأول الذي طرحه عليه السيد الميجل جيمس كنتنجتون.
"ما تقديرك للثمن الذي سوف تباع به القطعة يا سيد جلوفر؟"

أجابه ماكس قائلاً: "بضع مئات من الدولارات؛ ذلك بافتراض أن شقيقك لم يطلع على مسألة المزاد"، توقف قليلاً ليحتسى الشاي، قبل أن يضيف قائلاً: "أما إذا دخل المزاد فالثمن التقريبي هو خمسون ألفاً".

قال ماكس: "لكنني لا أملك مبلغ الخمسين ألفاً". وهو أمر كان ماكس يعرفه تمام المعرفة. واصل جيمس قائلاً: "وإذا ما علم أخى بأمر المزاد فلن يكون هناك أي شيء يمكنني القيام به؛ فبنود الوصية واضحة غاية الوضوح - من يملك الملك الأحمر يرث المجموعة كاملة".

قال ماكس، دون أن يخرج عن الإيقاع المضبوط: "سوف أكون مستعداً لتقديم المال اللازم لتأمين ثمن القطعة، إذا وافقت بالمقابل أن تبيعنى المجموعة كاملة".

سأله جيمس: "وكم تود أن تدفع ثمناً لها؟".

قال ماكس: "نصف مليون".

احتج جيمس قائلاً: "ولكن دار مزادات سوثنى قدرت سعر المجموعة الكاملة من قبل بمليون وأكثر".

قال ماكس: "قد يكون هذا هو الوضع حقاً، ولكن نصف مليون أفضل من لا شيء بلا شك، وهو ما سيحدث إذا ما علم أخوك بوجود الملك الأحمر".

"لكنك قلت إن الملك الأحمر قد يباع ببضع مئات من —".

كرر ماكس العبارة نفسها للمرة الثانية خلال هذا الأصيل:

"فى تلك الحالة، سوف أنال ألف جنيه مقدماً، مقابل اثنين ونصف بالمائة من السعر الذى يرسو عليه المزا".

قال جيمس بابتسامة من يعرف أنه فاز بالسبق: "إننى مستعد لاتخاذ هذه المجازفة. وإن بيع الملك الأحمر بأقل من خمسين ألفاً، فسيكون بمقدورى أن أدفع الثمن بنفسى. وإن تجاوز ثمنه الخمسين ألفاً، يمكنك أن تشتري القطعة وسوف أبيعك المجموعة كاملة مقابل نصف مليون". احتسى جيمس رشفة من الشاي، ثم أضاف: "لن أكون خاسراً فى كلتا الحالتين".

وكذلك أنا، هكذا فكر ماكس فى نفسه بينما أخرج عقداً من جيبه الداخلى. قرأ جيمس الوثيقة ببطء. رفع نظره عنها وقال: "لا بد أنك كنت واثقاً من موافقتى على خطتك يا سيد جلوفر".

قال ماكس: "وحتى إن لم توافق، فإن زيارتى التالية كانت ستصبح لشقيقك مما سيتركك خاوى اليدين. أما الآن، فعلى الأقل لن تكون خاسراً فى كلتا الحالتين، على حد تعبيرك".

قال جيمس: "من المفترض إذن أن أسافر إلى نيويورك".
أجابه ماكس: "ليس بالضرورة، تستطيع أن تزايد على
القطعة من خلال الهاتف؛ مما يتيح لك ميزة عدم إطلاع أحد
على شخصية المتصل بدار المزادات".

سأله جيمس: "ولكن كيف أرتب هذا؟".

أكد له ماكس قائلاً: "أمر في غاية البساطة. يبدأ مزاد
نيويورك في الساعة الثانية بعد الظهر، وهو ما يعنى تمام
السابعة مساءً بتوقيت لندن. الملك الأحمر هو السلعة رقم ٢٣
المعرضة بالمزاد، إذن سوف أرتب مع دار فيليبس للمزادات أن
يجروا اتصالاً معك ما إن يصل المزاد إلى القطعة رقم واحد
وعشرين، وما عليك إلا أن تحرص على التواجد بجوار الهاتف
دون أن يشغل الخط أى شخص آخر".

"وسوف تتعامل مع الأمر إن ارتفع السعر فوق الخمسين
ألفاً".

قال ماكس: "كلمة شرف"، ناظراً مباشرة في عيني
محدثه.

حلق ماكس مسافراً إلى نيويورك في إجازة نهاية الأسبوع
السابقة على موعد عقد المزاد مباشرة. حجز لنفسه بفندق
صغير يقع في إيست سايد، ونزل بغرفة لا تتسع مساحتها
كثيراً عن مساحة زفانتنا، ولكن هكذا تبقى معه ما يكفى
من المال لتغطية نفقات النقلة الأخيرة في مباراة الشطرنج
الحاذقة تلك.

صباح الاثنين نهض ماكس من نومه باكراً، لم يغمض له
جفن بسبب أوركسترا الضجيج التى تبثها سيارات نيويورك
وسارينات سيارات الشرطة، وقد أحسن استغلال هذا الوقت في
مراجعة الاحتمالات المختلفة والتغييرات المرجحة للخطة التى
قد تحدث ما إن يفتح المزاد.

ما هي إلا دقيقتان أو أقل ويصبح في منتصف الحلبة، وإن أخفق، فسوف يعود على أول رحلة متجهة إلى مطار هيثرو، دون أن تكفل جهوده بشيء عدا الديون والرصيد البنكي المكشوف. ابتاع كعكة عند تقاطع الشارع الثالث بالشارع السادس والستين، ثم سار ما يساوي بضعة مبانٍ أخرى ليصل إلى دار مزادات فيليبس. قضى ما تبقى من ساعات النهار في حضور مزاد لمخطوطات قديمة يعقد بالقاعة نفسها التي سوف تشهد بيع التحف الصينية بالمزاد العلني. جلس صامتاً في نهاية القاعة، يراقب كيف يدير الأمريكيون مزاداتهم؛ بحيث لا يتورط في أمر غير متوقع خلال وقت لاحق من ذلك الأصيل.

لم يتناول ماكس أى طعام على الغداء، ولا يرجع هذا فقط لميزانيته الهزيلة التي سبق أن بلغ بها حدودها القصوى؛ فبدلاً من تضييع الوقت في تناول الطعام، استغل الوقت ليجرى اتصاليين هاتفيين دوليين؛ الأول منهما للورد كنجتون؛ ليؤكد أنه مازال لديه السلطة ليزايد على شراء الملك الأحمر حتى مبلغ خمسين ألف دولار، وطمأنه ماكس بأنه بمجرد أن تدق مطرقة رجل المزاد معلنة بيع القطعة سوف يتصل به ليخبره بالمبلغ الذي بيعت به القطعة. بعد ذلك بدقائق أجرى ماكس اتصاله الهاتفي الثاني، وهذه المرة ليتحدث إلى السيد الميجل جيمس كنجتون بمنزله في ميدان كادوجان. التقط جيمس سماعة الهاتف بعد أول رنين له، وكان جلياً أنه استراح عند سماع صوت ماكس على الطرف الآخر من الخط. قدم ماكس الوعد نفسه للسيد الميجل جيمس كنجتون.

أعاد ماكس سماعة الهاتف لموضعها ثم شق سبيله نحو ضد المزادة؛ حيث أعطى إحدى المساعدات رقم هاتف جيمس كنجتون في لندن وأخبرها بنيته المزادة على القطعة رقم ٢٣.

أجابته المساعدة قائلة: "أترك الأمر لنا يا سيدى. سأحرص على اتصالنا به فى الوقت المناسب تماماً".

شكر ماكس المساعدة، وعاد من جديد نحو غرفة المزاد واتخذ الموضع المفضل لديه عند نهاية الصف الثامن، على يمين رجل المزاد تماماً. بدأ يقلب صفحات الكتالوج، يتفحص القطع المعروضة والتي لا تثير أى اهتمام لديه. وبينما جلس هناك، ينتظر فى نفاذ صبر دعوة رجل المزاد للمزايدة على القطعة رقم واحد، حاول أن يميز من بين الحضور من هم التجار، ومن هم المزايدون الجادون ومن حضروا بدافع الفضول لا أكثر. عندما صعد رجل المزاد سلم المنصة عند الثانية إلا دقيقتين، كانت غرفة المزاد ممتلئة بالوجوه التي يعلوها الترقب. عند الثانية تماماً ابتسم الرجل الذي يدير المزاد من فوق المنصة لزيائنه الحاضرين.

أعلن قائلاً: "القطعة رقم واحد، وهى تمثال لصياد من العاج منحوت بدقة ومهارة".

بيعت القطعة بمبلغ ٨٥٠ دولاراً، دون أى تلميح للدراما المشوقة التي ستتلو ذلك.

بلغت القطعة الثانية مبلغ ألف دولار، ولكن كان يجب الانتظار حتى القطعة رقم ١٧، وهو تمثال لأحد رجال الدولة الصينية القديمة منحن على مكتب ويقرأ فى أحد الدفاتر، وعندها وصل الثمن إلى ٥٠٠٠ دولار.

غادر القاعة تاجر أو اثنان كان من الواضح أن اهتمامهما انصب على القطع السابقة وحسب، بينما غادر اثنان آخران، بعد أن نجحا أو أخفقا فى امتلاك القطع التي حضرا سعيًا وراءها. كان يمكن لـ "ماكس" سماع خفقان قلبه بشدة، على الرغم من أنه مازال هناك بعض الوقت قبل أن يصل رجل المزاد إلى القطعة رقم ٢٣.

أعاد توجيه اهتمامه إلى صف الهواتف الموضوعه على منضدة طويلة على أحد جوانب الغرفة. لم يكن هناك إلا ثلاثة منها مشغولة. عندما أعلن رجل المزاد عن وصوله للقطعة رقم ٢١، بدأت المساعدة تتصل بالرقم. بعد ذلك بدقائق معدودة كورت يدها حول طرف السماعه القريب من الفم وراحت تهمس. عندما تم تقديم القطعة رقم ٢٢، تحدثت باقتضاب مع عميلها من جديد. افترض ماكس أنها ولا بد تحذر جيمس كنجتون من أن الملك الأحمر سيكون هو القطعة التالية التى توضع تحت رحمة مطرقة رجل المزاد.

أعلن رجل المزاد وهو يلقي بنظرة على أوراق ملاحظاته: "القطعة رقم ٢٣، وهى ملك أحمر منحوت نحتاً بارعاً ودقيقاً، المنشأ مجهول. هل أفتتح المزاد بمبلغ ٣٠٠ دولار؟"
رفع ماكس كتالوجه.

"خمسمائة؟"، هكذا تساءل رجل المزاد وهو يلتفت لىواجه الموظفة التى تتحدث بالهاتف. همست بشيء فى الهاتف ثم أمأت برأسها فى حزم. حول رجل المزاد انتباهه نحو ماكس من جديد، الذى كان قد رفع كتالوجه حتى من قبل أن يقترح رجل المزاد الثمن.

"لدى مزايده بألف دولار"، هكذا قال رجل المزاد مولياً وجهه نحو المشتري المتصل بالهاتف. غامر قائلاً: "ألفان؟"، ولدهشته رأى الموظفة تومئ بسرعة شديدة.

اقترح قائلاً بينما نظر من جديد نحو ماكس: "ثلاثة آلاف؟". ارتفع الكتالوج لأعلى مرة أخرى، وبدأ العديد من التجار يتبادلون الهمسات فى مؤخرة القاعة.

"أربعة آلاف؟" تساءل رجل المزاد وهو يحدق دون تصديق نحو الموظفة المسكة بسماعة الهاتف. خمسة آلاف دولار، ستة آلاف دولار، سبعة آلاف، ثمانية آلاف دولار، تسعة آلاف دولار،

عشرة آلاف دولار تم تجاوزها في أقل من دقيقة واحدة. حاول رجل المزاد محاولة يائسة أن يظهر بمظهر من كان يتوقع حدوث هذا بينما تعالت الهمهمة والدمدمة في القاعة. بدا كأن لدى كل واحد رأياً مختلفاً فيما يجري. نهض واحد أو أكثر من التجار من أماكنهم المفضلة وساروا بكل همة نحو نهاية القاعة، على أمل العثور على تفسير لهذه المزايدة المحمومة. البعض الآخر كان قد بدأ يضع الافتراضات بالفعل، ولكن أحداً لم يكن مستعداً للمزايدة تحت وطأة كل هذا الضغط، وخصوصاً أن المبلغ راح الآن يتقافز بالخمسة آلاف دولار كل مزايدة.

عندما تساءل رجل المزاد "بخمسة وأربعين ألفاً؟" رفع ماكس كتالوجه على الفور مستجيباً له، فتوجه رجل المزاد نحو السيدة على الهاتف: "هل يزايد زيونك بخمسين ألفاً؟" التفت جميع من بالقاعة نحوها، لرؤية رد فعلها. ترددت للمرة الأولى حتى الآن. كرر رجل المزاد قائلاً: "خمسين ألفاً". همست الموظفة بالمبلغ في سماعة الهاتف، وبعد وقفة طويلة أمأت بالموافقة، ولكن دون حماس كبير.

عندما عرضت القطعة على ماكس بمبلغ خمسة وخمسين ألفاً، تردد هو أيضاً، وأخذ وقته قبل أن يرفع كتالوجه بالموافقة أخيراً.

"ستون ألفاً؟" هكذا اقترح رجل المزاد على الموظفة المسكة بسماعة الهاتف. انتظر ماكس في توتر عصبى بينما هي تكور يدها حول الطرف القريب لضمها من السماعة وتكرر النطق بالرقم. بدأت بعض خيوط العرق تظهر على جبين ماكس، وراح يسائل نفسه ترى هل نجح جيمس في تدبير أموره بحيث يتسنى له أن يرفع المبلغ إلى أكثر من ٥٠ ألفاً؛ ففى تلك الحالة سوف يخسر كل النفقات التي تحملها على العملية حتى الآن. بعد وقت بدا وكأنه طال مدى الدهر، ولكنه لم يزد في حقيقة الأمر عن عشرين ثانية، هزت الموظفة رأسها نفيًا، ووضعت

سماعة الهاتف على القرص منهيبة الاتصال.

ابتسم رجل المزداد باتجاه ماكس، وقال: "بيعت للسيد المحترم على يسارى، مقابل خمسة وخمسين ألف دولار". شعر ماكس عندئذ بالغثيان، والانتصار، والدوار، والارتياح، كل ذلك فى اللحظة نفسها.

بقى ماكس فى مكانه، منتظراً حتى تهدأ ضجة الحماس والإثارة، وبعد بيع حوالى عشر قطع أخرى تسلسل بهدوء خارج القاعة، غير منتبه للنظرات المحدقة والمرتابه التى رماها بها التجار؛ ممن راحوا يتساءلون عمن يكون هذا الرجل. خطا فوق البساط الأخضر السميك وتوقف عند نضد البيع.

"أود أن أترك عربوناً على القطعة ٢٣".

نظرت الموظفة نحو القائمة التى أمامها. قالت: "ملك أحمر"، ثم تأكدت أكثر من مرة من السعر، ثم أضافت: "خمس وخمسون ألف دولار"، ثم رفعت بصرها نحو ماكس للتأكد.

فأوماً بالموافقة بينما بدأت الموظفة تملأ خانات مربعة صغيرة على وثيقة الشراء، وما هى إلا لحظات حتى أدارت النموذج نحو ماكس ليوقعه.

قالت الموظفة: "ستكون قيمة العربون خمسة آلاف وخمسمائة دولار، وينبغى دفع الثمن كاملاً فى غضون ثمانية وعشرين يوماً". أوماً ماكس برأسه دون اكتراث، وكأنما كان هذا إجراء اعتاد عليه تمام الاعتياد. وقع الوثيقة ثم حرر شيكاً بمبلغ خمسة آلاف وخمسمائة دولار، مدركاً أنه سيجعل رصيده صفراً، ودفعه نحوها عبر النضد. سلمته الموظفة النسخة العليا من العقد واحتفظت بالنسخة الأخرى. عندما راجعت توقيعها بدا عليها التردد. لا بد أنها مجرد مصادفة لا أكثر، فاسم جلوفر شائع. لم ترغب فى إهانة عميلها، لكنها كانت تعرف أن عليها إطلاع القسم الذى تتبعه بهذا الموقف الغريب، ومن ثم يتأكدون من صرف الشيك.



غادر ماكس دار المزادات وتوجه شمالاً صوب بارك أفينو. دخل مباشرة إلى سوثي بارك بيرنت واقترب من مكتب الاستقبال. سأل إن كان يمكن له أن يتحدث قليلاً إلى مسئول قسم التحف الشرقية. لم ينتظر إلا دقائق معدودة. في هذه المرة لم يهدر ماكس وقته بطرح أية أسئلة تمهيدية لا جدوى منها إلا تغطية نواياه الحقيقية. فعلى كل حال، وكما ذكرته موظفة دار فيليبس للمزادات، فإنه لم يعد أمامه سوى ثمانية وعشرين يوماً لإتمام الصفقة. سأل ماكس: "إن عرضت مجموعة شطرنج كمنجتون في السوق، فكم تتوقع أن يكون ثمنها؟". بدا الشك والريبة على الخبير، وخصوصاً بعد أن تناهى إلى علمه توأ نياً ببيع الملك الأحمر بدار فيليبس، وبالسعر الذي يبيع به. أجاب قائلاً: "سبعمائة وخمسون ألفاً من المحتمل أن تصل إلى المليون".

قال ماكس: "وإن كان بمقدورى أن أجلب لكم المجموعة الكاملة لقطع شطرنج كنجتون، وكنتم المخولين بإثبات أصالتها، فما المبلغ المستعدون أنتم لتقديمه مقابل صفقة مستقبلية؟".

"أربعمائة ألف، ربما خمسمائة، فقط لو أمكن لأسرة كنجتون أن تؤكد لى أنها مجموعة قطع شطرنج كنجتون حقاً".

"سأكون على اتصال معكم، هكذا وعده ماكس، وهو يشعر بأن جميع مشكلاته القريبة والبعيدة قد تم حلها إلى الأبد.



سجل ماكس مغادرته من الفندق الصغير الذى نزل به فى إيست سايد فى وقت لاحق من المساء نفسه، واستقل سيارة أجرة إلى مطار لينيدى، وما إن أقلعت الطائرة حتى راح فى نوم عميق للمرة الأولى منذ أيام.

لست الطائرة بوينج ٧٢٧ أرض مطار هيثرو مع طلوع الشمس على نهر التايمز؛ لأنه لم يكن هناك أحد بانتظاره، ركب ماكس قطار هيثرو إكسبريس إلى بادنجتون، وكان فى شقته وقت تناول الإفطار، وبدأ يشطح مع خيالاته حول طبيعة حياته عندما يتناول طعامه بانتظام فى مطعمه المفضل، أن يستقل سيارات الأجرة باستمرار، بدلاً من أن يقف فى انتظار الحافلة التالية.

ما إن أنهى ماكس إفطاره حتى وضع الأطباق فى الحوض وجلس فى أحد المقاعد المريحة. بدأ يفكر فى تحركه القادم، واثقاً من أن الملك الأحمر قد اتخذ مكانه الآن فى لوح اللعب، وأن المباراة الحافلة لا بد أن تنتهى بموت الشاه.

عند الساعة الحادية عشرة وهو وقت ملائم للاتصال بنبيل من نبلاء المملكة، اتصل ماكس بقصر كنجتون. حين

حول رئيس الخدم المكاملة إلى اللورد كنجتون، كان أول ما نطق به هو: "هل حصلنا عليه؟".

أجاب ماكس: "كلا، بكل أسف سيدي اللورد، لقد هزمتنا في المزايمة من قبل طرف مجهول. لقد قمت بتنفيذ تعليماتك بالحرف الواحد، وتوقفت عن المزايمة عند وصول السعر لمبلغ خمسين ألف دولار". توقف قبل أن يضيف: "كان السعر الذي رسا عليه المزاد هو خمسة وخمسون ألفاً".

ساد صمت طويل على الطرف الآخر، ثم قال اللورد: "أتظن أن المزايد الآخر هو شقيقى؟".

أجاب ماكس: "لا سبيل للتأكد من ذلك، كل ما أعرفه أنهم كانوا يزايدون عن طريق الهاتف، لاشك أنهم كانوا يبتغون الحرص على بقائهم مجهولي الهوية".

أجاب اللورد كنجتون: "سأكتشف ذلك قريباً"، ثم أغلق الخط.

"طبعاً ستكتشف قريباً"، هكذا قال ماكس متفقاً معه بينما كان يتصل برقم فى تشيلسى.

ما إن سمع ماكس الصوت الأرسنقراطى لـ جيمس قال: "تهانينا، لقد نجحت فى شراء القطعة، وهكذا يحق لك الآن المطالبة بحقك فى إرثك؛ طبقاً لبنود الوصية".

قال جيمس كنجتون: "أحسنت فعلاً يا جلوفر".

قال ماكس: "وفى اللحظة التى تتسلم فيها بقية المجموعة سيقوم المحامون التابعون لى بتسليمك شيكاً بمبلغ أربعمائة وخمسة وأربعين ألف دولار".

قال جيمس منزعجاً: "لكننا اتفقنا على نصف مليون".

قال ماكس: "ناقص مبلغ الخمسة والخمسين ألفاً الذى دفعته لشراء الملك الأحمر. ستجد ذلك منصوصاً عليه فى العقد الذى وقعناه".

بدأ جيمس يتذمر قائلاً: "ولكن....".

سأله ماكس بينما بدأ جرس الباب الخارجى يدق: "أفضل أن أتصل بأخيك؟ لأننى ما زلت أمتلك القطعة". لم يرد جيمس فى الحال. أضاف ماكس: "فكر بالأمر بينما أتفقد الباب الخارجى". وضع ماكس السماعة على المنضدة الجانبية، وسار إلى الردهة، وهو يضرك يديه. فتح السلسلة، وفتح القفل، وجذب الباب بضع بوصات. رأى رجلين طويلين يرتديان معطفين متطابقين واثنيين من المطر يقفان قبالة.

سأله أحدهما: "هل أنت السيد ماكس فكتور جلوفر؟"

سأله ماكس: "ومن الذى يسأل؟"

"إننى المفتش أرميتاج من شرطة مباحث النصب والاحتيال، وهذا الرقيب ويليز". وأشهر كل منهما بطاقة التعريف الخاصة به، والتي كان يعرف ماكس شكلها تمام المعرفة. "هل تأذن لنا بالدخول؟"

ما إن حصل رجلا الشرطة على إفادة ماكس ودونوها، تلك الإفادة التى لم تزد على عبارة: "سأكون بحاجة للاتصال بالمحامى الخاص بى" حتى غادرا الشقة، ثم اتجها مباشرة بعدها إلى يوركشير للقاء اللورد كنجتون، وبعد أن حصل على إفادة مفصلة من سيادته، عادا إلى لندن للقاء شقيقه جيمس. ووجده الشرطيان متعاوناً هو الآخر لأقصى درجة.

بعد ذلك بأسبوع قبض على ماكس بتهمة الاحتيال. لم يصرح له القاضى بالإفراج بكفالة نظراً لسجله الماضى غير المشرف.

سألت ماكس: "ولكن كيف اكتشفوا أنك سرقت الملك الأحمر؟"

أجابنى ماكس وهو يدهس عقب سيجارته: "لم يكتشف ذلك أحد".

وضعت قلمى، وغمغمت من الجزء العلوى من الفراش قائلاً: "لست واثقاً من أنتى فهمت المسألة".

اعترف ماكس قائلاً: "ولا أنا، على الأقل حتى وجهوا لى الاتهام". بقيت صامتاً، بينما بدأ شريكى فى الزنزانة يلف سيجارته التالية. استمر يقول: "عندما تلوا وثيقة الاتهام لم يكن هناك شخص أكثر دهشة منى؛ فقد كان الحكم كما يلى:
"ماكس جلوفر، أنت مذنب بمحاولة الحصول على مال عن طريق ادعاءات كاذبة، وتحديدأ فى السابع عشر من أكتوبر، فى عام ٢٠٠٠، اشتريت قطعة ملك أحمر من مزاد بمبلغ خمسة وخمسين ألفاً، وهى القطعة رقم ٢٣ من دار مزادات فيليبس فى نيويورك، بينما أغريت أطرافاً أخرى مهتمة بالقطعة بالمزايدة أمامك، دون أن تعلمهما بأنك المالك الحقيقى للقطعة".
دار مفتاح ثقيل فى ثقب الباب وطقطق منفثحاً على زنزانتنا.

صاح الضابط المناوب: "زيارات".

بينما دلى ماكس ساقيه من فراشه، قال لى: "وهكذا ترى أنهم اتهمونى خطأ وحكموا على بالسجن عقاباً على الجريمة التى لم أرتكبها".

"ولكن لم خضت غمار كل تلك التمثيلية فى حين كان بوسعك أن تبيع القطعة لأحد الشقيقتين وتنتهى الحكاية؟".

"لأنه فى تلك الحالة كنت سأضطر لأن أريهم كيف حصلت على القطعة فى المقام الأول، ولو قبض علىّ بسبب...".

"ولكن الشرطة قبضت عليك بالفعل".

ذكرنى ماكس: "ولكن ليس بجريمة السرقة".

سألته بينما نخطو إلى الردهة ونشق سبيلنا نحو مركز

الزيارات: "وماذا حدث للملك الأحمر إذن؟".

قال ماكس: "أعيد إلى المحامى بعد المحاكمة، وحفظه فى

خزانته؛ حيث سوف يبقى هناك حتى إطلاق سراحى".

قلت له: "ولكن هذا يعنى....".

قاطعنى ماكس بلامبالاة: "هل سبق لك أن التقيت بلورد كنجتون؟".

أجبت: "كلا، لم أتل هذا الشرف".

قال وهو يحاكي لهجتى ساخراً: "إذن سوف تنال هذا الشرف، سأقدمك له أيها الصبي العجوز؛ لأنه أت اليوم لزيارتى"، ثم توقف، قليلاً قبل أن يضيف: "لدى شعور بأن اللورد سوف يقدم لى عرضاً محترماً مقابل الملك الأحمر".

سألته: "وهل ستقبل عرضه؟".

أجابنى ماكس ونحن ندخل قاعة الزيارات: "صبراً يا جيف، لن يكون بمقدورى أن أجيب عن هذا السؤال حتى الأسبوع القادم، عندما يزورنى شقيقه جيمس".

حكيم الزمان



كانت نصيحة زوجتي كارول لي هي: "اهتم بشؤونك ولا تتدخل فيما لا يعينك".

فذكرتها بينما أعدد للفراش: "ولكن الأمر يعينني، لقد كنت أنا ويوب صديقين منذ أكثر من عشرين عاماً حتى الآن".

أصرت على موقفها قائلة: "هذا أدعى لأن تحتفظ بعشورتك لنفسك".

أجبتها محتداً قليلاً: "ولكني لا أستريح لها".

"لقد أوضحت شعورك هذا كل الموضوح خلال العشاء". هكذا ذكرتني كارول بينما كانت تطفئ المصباح المجاور لجانبها من الفرش.

"ولكن بلا أدنى شك، من الواضح وضوح الشمس أن هذه العلاقة سوف تنتهي بالبكاء والنواح".

"لن يكون عليك ساعتها إلا شراء علية من المناديل الورقية".

غمخت قائلاً: "إنها لا تسعى إلا وراء ماله".

أجابتنى كارول: "ولكنه لا يملك أى مال، إن يوب ناجح عملياً تماماً، ولكن اسمه لا يرد على قائمة أثرى أثرياء العالم".

"قد يكون هذا هو الحال حقاً، ولكن مازال من واجبي أن أحذره باعتباري صديقه بألا يتزوج من تلك المرأة".

قالت كارول: "إنه لا يود سماع هذه النصيحة بالذات حالياً؛ فلا تفكر حتى في النطق بها".

قلت لها وأنا أهز وسادتي وأهيئها للنوم: "اشرحي لي يا حكيمة الزمان، لم يتوجب على الصمت؟".

تجاهلت كارول سخريتي قائلة: "إذا كان لا مناص من أن ينتهي بهما الأمر بالنزاع أمام محاكم الطلاق، لن يضيف هذا لنصيحتك شيئاً سوى أنك ستبدو معتداً عندئذ بنفسك. أما إذا نجح هذا الزواج، فإن صديقك لن ينسى لك أبداً ولن يصفح

عنك - ولا هي سوف تصفح عنك".
"لم أكن أنتوى إخبارها برأى".
قالت كارول: "صدقنى إنها تعرف تماماً طبيعة شعورك
ناحيته منذ الآن".
تنبأت قائلاً: "لن يستمر هذا الزواج أكثر من عام". وهنا
دق جرس الهاتف على الجانب الخاص بى من الفراش. التقطت
السماعة داعياً الله ألا يكون استدعاء من مريض.
انبعث صوت مألوف لا حاجة به للتعريف عن نفسه يقول:
"طلب واحد فقط سأطلبه منك".
سألته: "وما هو يا بوب؟".
"هل تكون إشبينا لى فى حفل الزفاف؟".

التقينا أنا وبوب رادفورد للمرة الأولى بمستشفى سانت توماس
عندما كان كل منا طبيباً تحت التدريب، وكنا حديثي التخرج.
ولنكون أكثر دقة، كان اللقاء الأول بيننا فى ملعب الرجبي،
عندما غلبنى بينما كنت على وشك أن أسجل رمية الفوز. فى
تلك الأيام كنا على جانبيين متناحرين.

بعد أن تم تعييننا كطبيبي امتياز فى مستشفى جايز،
بدأنا نلعب الرجبي ولكن فى فريق واحد هذه المرة، وكنا نلعب
مباراة إسكواش بانتظام فى منتصف كل أسبوع - كان هو الفائز
فيها على الدوام. لم تكن مضطرين وقتها للبحث عن رفقة
من الإناث لأن مستشفى سانت توماس كان بها ما يزيد على
الثلاثمائة ممرضة، الغالبية العظمى منهن يبحثن عن خطيب
مناسب، ولسبب مجهول كن يعتبرن الأطباء صيداً ثميناً، وكان
كلانا يتطلع لاستغلال وضعنا الجديد بينهما. وعندئذ تحديداً
أصابنى سهم كيوبيد.

كانت كارول أيضاً طبيبة على وشك التخرج مثلنا، وفى
موعدها العاطفى الأول أوضحت بما فيه الكفاية أنها غير

مستعدة للارتباط والزواج قبل فترة طويلة جداً من العمل والاستقلال، ولكنها لم تأخذ بعين الاعتبار موهبتي الوحيدة تقريباً، ألا وهى المثابرة. وبعد أن تقدمت لخطبتها للمرة التاسعة على التوالي استسلمت أخيراً، وتزوجت من كارول بعد تخرجها وتأهلها للعمل بيضعة شهور.

انطلق بوب على الاتجاه العاكس تماماً لاتجاهنا. فكلما دعونا لتناول العشاء كان يصطحب معه رفيقة جديدة. كنت أخلط بين أسمائهن أحياناً، وهو خطأ لم تقع فيه كارول بالمرّة. وعلى الرغم من ذلك، ومع مرور الأعوام، ضعفت شهية بوب ونال الزمن من إقباله على تجربة مذاقات جديدة وأطباق مختلفة من قائمة أصناف النساء، عكس ما كان عليه فى عهد الدراسة؛ فعلى كل حال لقد احتفلنا بعيد ميلادنا الأربعين مؤخراً. ولم يعد لذكرى فوزه بلقب أكثر الشباب جاذبية وهو فى ثوب التلميذ أى معنى أو جدوى له الآن، حتى بعد أن أسس أنجح عيادة خاصة فى لندن كلها. كان يسكن فى شقة متعددة الغرف فى هارلى ستريت، لا يرضخ تحت أى عبء من أعباء الزواج، ولكن بدا أن ذلك كله قد وصل لخط النهاية الآن.

دعانى بوب أنا وزوجتى كارول لننضم إليه على العشاء لكى يقدم لنا فيونا، التى وصفها باعتبارها المرأة التى نوى أن يقضى معها ما تبقى من حياته، وهنا ساورتنا الدهشة وغمرنا السرور، كما أننا أيضاً أصبنا بشيء من الارتباك لأننا لم نستطع تذكر اسم آخر صديقة له، ولكننا على الأقل كنا متأكدين من أن اسمها لم يكن فيونا.

حين وصلنا إلى المطعم رأيتاهما يجلسان بركن قصى بالقاعة، تتشابك أصابع أيديهما. نهض بوب لتحيتنا وعلى الفور قدم لنا فيونا باعتبارها أروع امرأة فى العالم، ولكى أوفى المرأة حقها، على أن أقول إن أى رجل جدير بهذا اللقب يراها لا يمكنه إنكار محاسنها الجسدية، فلا بد أن طولها يتراوح من

جيفرى آرشر

خمس إلى ثمانى أقدام، ويبلغ طول ساقيها ثلاثين بوصة، وقد كان جسدها ممشوقاً بعد أن ضبظت معاييرها صالة الألعاب الرياضية، ثم اكتملت مفاتنه بحمية طعام معتمدة على أوراق الخس الأخضر والماء القراح وحسب.

كان حديثنا أثناء الطعام محدوداً إلى حد كبير، من ناحية لأن بوب قضى معظم الوقت يتفرس فى فيونا بطريقة لا تنظر بها حتى إلى أروع النساء التى رسمها دوناتيللو أو نحتها فى تماثيل. وعند نهاية العشاء، كنت قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن فيونا سوف تكلف صاحبي ما لا يطيق، ولا يعود هذا فقط لأنها قرأت قائمة المشروبات من الأعلى بالأسفل إلى الأرخص بالأعلى، ولا لأنها طلبت كافياراً كطيق فاتح للشهية، ولا لأنها طلبت، بابتسامة معسولة، أن يضع قطع الفطر والكمأ على وجه طبق المكرونة الخاص بها.



حكيم الزمان

بكل صراحة، كانت فيونا من نوعية الشقراوات طويلات
السيقان التى يتمنى الرجل منا أن يصادفها وهو يسهر وحده
فى مشرب أحد الفنادق، وهو مسافر برحلة عمل ويفضل أن
يكون هذا بقارة أخرى غير القارة التى يعيش بها. إننى غير
قادر على تحديد عمرها، ولكننى علمت خلال تناول العشاء
أنها كانت قد تزوجت ثلاث مرات قبل أن تلتقى بصديقى بوب.
وعلى الرغم من هذا، فقد أكدت لنا أنها قد عثرت أخيراً على
الرجل المناسب.

كنت سعيداً كل السعادة بمخادرتى المطعم تلك الليلة، كما
سبق أن لاحظتم؛ فلم أكد أضيع أى وقت لإعلام زوجتى بوجهة
نظرى بشأن فيونا.

عقد الزفاف بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر فى مكتب تشيلسى
للتوثيق بـ كنجز رود. لم يحضر المراسم إلا أصدقاء بوب من
مستشفى سانت توماس وجامعة جايز- وبعض منهم لم تقع
عيناي عليهم منذ أيام مباريات الرجبي. وجدت أنه من غير
الحكمة أن أشير لـ "بوب" أن فيونا لا يبدو أنها تتمتع بالعديد
من الصداقات، أو أنها على الأقل لا تملك أصدقاء مستعدين
لحضور أحدث زواج لها.

وقفت صامتاً بجانب بوب بينما يتلو الموظف الموثق الكلمات
المعهودة: "لو أن أى شخص يمكنه أن يظهر مبرراً قانونياً يمنع
هذين الشخصين من الارتباط بميثاق الزواج، فليعلن ذلك
المبرر لى الآن".

أردت أن أقدم مبرراً، غير أن كارول كانت شديدة القرب
منى بحيث أحجم عن تلك المجازفة. لا بد أن أعترف أن فيونا
بدت متألقة فى ذلك اليوم، تماماً مثل حية بجرسين على وشك
أن تلتهم حملاً تأتي عليه عن آخره.

أقيم حفل الاستقبال فى لوسيزب "فولهام رود"، و لو أننى لم أكن متعباً ليلتها لكان الخطاب الذى ألقيته على الضيوف أكثر تماسكاً ووضوحاً، أو ربما كان يعوزنى تصديق الكلمات التى تفوهت بها.

حين جلست بعد أن أنهيت كلمتى لأستمع بالتصفيق الحار، لم تنحن كارول علىّ لتهنئنى على بلاغتى وفصاحتى. لقد تجنبتها إلى أن تجمعنا كلنا على الرصيف الخارجى لتوديع العريس والعروس أمام المطعم. لوح بوب وفيونا تلويحة الوداع قبل أن يدخلا إلى العربة الليموزين البيضاء التى ستقلهما إلى مطار هيثرو، ومن هناك يأخذان طائرة إلى أكابولكو؛ حيث سيقضيان شهر عسل لمدة ثلاثة أسابيع. لم يكن كل من الانتقال إلى مطار هيثرو، وهو ما أفسد حفل الزفاف فى وقت مبكر للغاية، ولا المكان المقصود لقضاء شهر العسل، خياراً مفضلاً لصديقى بوب. وهى معلومة لم أطلع كارول عليها؛ لأنها كانت سوف تتهمنى دون شك بالتحامل – ولعلها تكون محقة فى اتهامها ذلك.

خلال ذلك العام الأول من الزواج لا أستطيع أن أدعى أننى رأيت فيونا مرات كثيرة، على الرغم من أن بوب كان يتصل بى بين الحين والآخر، ولكنه يتصل فقط من العيادة فى هارلى ستريت. بل وكنا نتدبر أمرنا أحياناً للالتقاء لتناول غداء سريع، لكنه لم يعد قادراً على لقائى من أجل مباراة الاسكواش فى المساء.

لم ينس بوب أبداً أثناء تناولنا لوجبات الغداء أن ينوه بمحاسن زوجته الرائعة، كما لو أنه كان يعلم تمام العلم موقفى من شريكة حياته - مع أننى لم أعرب عن مشاعرى الحقيقية تجاهها فى أى مناسبة، وأظن أن هذا كان سبب عدم دعوتى أنا وزوجتى كارول أبداً لتناول العشاء فى منزلهما،

حكيم الزمان

وكلما طلبنا منهما الانضمام إلينا على العشاء، كان بوب يقدم أذكاراً غير مقنعة من قبيل اضطراره لزيارة مريض، أو سفره خارج المدينة فى تلك الأمسية ذاتها.

كان التغير طفيفاً ولطيفاً فى البداية، بل لا يكاد يدرك بالعين المجردة. صارت وجبات الغداء التى أتناولها معه أكثر انتظاماً، بل ونجح من جديد فى حضور كل مباريات الاسكواش الليلية، وربما الأمر الأكثر وضوحاً هو الإشارات التى راحت تقل على لسانه بالتدرج عن فيونا وخصالها الحميدة.

ما إن توفيت عمه بوب، الأنسة موريل، حتى صار التغير واضحاً جلياً. وللأمانة لم أكن أدرك أصلاً أن بوب له عمه، ناهيك عن أنها عمه تملك شركة بمبيلتون إلكترونيكس ووريثها الوحيد هو بوب.

أعلنت مجلة التايمز أن الأنسة موريل قد تركت وراءها ثروة تزيد بقليل على المليون جنيه فى صورة أسهم وممتلكات، جنباً إلى جنب مجموعة مقتنيات فنية ثمينة، وباستثناء بضع وصايا ثانوية أوصت بها للمؤسسات الخيرية، كان ابن أخيها هو المنتفع الأوحد بثروتها. وبارك الله فيه من إنسان؛ لأن كل تلك الثروة التى هبطت عليه من السماء لم تنجح فى تغيير بوب بأى صورة؛ غير أن القول نفسه لا يصدق على فيونا.

عندما اتصلت بصديقى بوب لتهنئته على حظه السعيد، بدت فى صوته نبرة إحباط. سألتنى إن كان من الممكن أن أنضم له لتناول طعام الغداء؛ لأنه فى حاجة لنصيحتى فى مسألة شخصية.

التقينا بعدها بنحو ساعتين، فى مطعم جاسترو قريباً من ميدان ديفونشاير. لم يتحدث بوب عن أى شىء ذى بال إلا بعد أن أخذ النادل طلباتنا، ولكن ما إن تم تقديم الصنف الأول لنا،

لم يعد على قائمة المطعم إلا سيرة فيونا زوجته كطبق أوجد وحيد. لقد تلقى هذا الصباح نفسه رسالة من مكتب الحمامة أبوت كرومبيه وشركاه، لإعلامه بصيغ غامضة أن زوجته ترفع عليه قضية طلاق.

فقلت دون مراعاة لأى لباقة: "لقد أحسنت اختيار التوقيت".

قال بوب: "ولم ألاحظ ذلك!".

كررت كلامه: "تلاحظ ذلك؟ تلاحظ ماذا؟".

"ألاحظ كيف تغير موقف فيونا منى بعد وقتٍ قصير من لقائها بعمتى موريل، ففي الحقيقة، إنها فى الليلة نفسها نجحت فى أن تسحرنى بها وتأسرنى تمامًا".

ذكرت بوب بما قاله المخرج والممثل وودى آلان فى هذا الصدد؛ فقد قال إنه لا يفهم كيف يمتلك الرجل منا عقلاً وغريزة فى الحين نفسه، دون أن يكون لديه القدرة على استعمال الاثنين فى الحين نفسه. ضحك بوب للمرة الأولى فى ذلك اليوم، ولكن ما هى إلا دقائق قبل أن يعود من جديد إلى صمته المشحون بالحزن.

سألته: "هل هناك أى شىء يمكننى القيام به لمساعدتك؟".

أجاب بوب: "فقط إن كنت تعرف اسم محامى طلاق من الطراز الأول؛ لأنهم أخبرونى بأن السيدة أبوت تلك لها سمعة شهيرة فى اعتصار آخر قطرة دم من الخصوم لصالح موكلها، وخصوصاً بعد آخر تعديلات فى قوانين الطلاق".

أجيبته قائلاً: "لا أظن أننى أعرف محامياً من هذا النوع، بما أننى متزوج زواجا سعيداً منذ ستة عشر عاماً، أخشى أننى الشخص غير المناسب لنصحك. لماذا لا تتحدث إلى بيتر ميتشل؟ فعلى كل، وبعد أربع زيجات سابقة، لابد أنه قادر على إخبارك بأفضل محام يمكن الوصول إليه".



أقرب بوب قائلًا: "لقد اتصلت به ما إن صحوت من نومي هذا الصباح، لقد كان دائمًا يوكل السيدة أبوت كمحامية له - وقد أخبرني أنه يحتفظ بتوكيل دائم لها؛ بحيث لا تستولي عليها أي واحدة من زوجاته القادمات".

خلال الأسابيع القليلة التالية، عدت أنا وبوب إلى مباريات الاسكواش المنتظمة، وبدأت أنجح في التغلب عليه للمرة الأولى. وبعد ذلك صار ينضم إلي أنا وكارول على العشاء. حاولنا أن نبتعد بالحديث عن أي شيء يتعلق بـ فيونا. وعلى الرغم من ذلك، فلم يمنع نفسه من إخبارنا بأنها لا تود أن تفادر الحلبة بسلام؛ حتى بعد أن عرض عليها أن تنال نصف ما تركته صمته.

وإذا امتدت الأسابيع لتصبح شهرًا، بدأ بوب يفقد وزنه وتسلل الشيب إلى خصلاته الذهبية. أما فيونا، فعلى الجانب

الآخر، كانت تبدو أنها تزداد صحة وقوة، وتتجاوز كل حاجز يظهر أمامها مثل جواد أصيل فى شرح شبابه. وما رجح كفة فيونا، أنها كانت بكل وضوح تدرك المدى الطويل للعبة، وكيف لا وهى تملك ميزة تجربة ثلاثة انتصارات سابقة، فى المضمار نفسه، وبدأ أنها تتطلع إلى نصرها الرابع بكل تأكيد.

لا بد أن عامًا تقريبًا قد انصرم قبل أن توافق فيونا أخيرًا على التوصل لتسوية، دون الوقوف أمام القضاء. كل ممتلكات بوب سوف تقسم بالتساوى بينهما إضافة لتحمل بوب لمصاريفها القانونية، وتم تحديد موعد للتوقيع الرسمى على هذا بإحدى قاعات المحكمة. وافقت على أن أحضر وأوقع الاتفاق كشاهد، وأن أقدم لبوب الدعم النفسى الذى يحتاج إليه أمس الحاجة؛ وذلك على حد تعبير زوجتى كارول.

ولكن لم يتسن لى أن أرفع غطاء قلمى لأوقع بالمرة؛ ذلك أن فيونا قد انخرطت فى نوبة بكاء ونحيب، قبل أن تقرأ السيدة أبوت محاميتها بنود الاتفاق بوقت طويل، وأعلنت أنها تلقت معاملة قاسية من بوب وأنه سبب لها انهيارًا عصبياً حادًا، ثم انتفضت وغادرت المكتب متعثرة الخطوات دون أى كلمة أخرى. لا بد أن أعترف أننى لم يسبق لى رؤية فيونا فى حالة أقل توترًا. بل إن السيدة أبوت نفسها جاهدت لى تخفى سخطها من موكلتها.

وكُل بوب محامياً اسمه هارى دكستر، والذى حذره قائلاً بأنه غالبًا سيخوض معركة قضائية طويلة ومكلفة إن لم يوافق على التسوية، وأضاف السيد دكستر أن القضاة كثيرًا ما يأمرن الطرف المدعى عليه بتحمل مصاريف الطرف المتضرر. هز بوب منكبيه لامباليًا، ولم يهتم حتى بالرد على هذا الكلام.

ما إن قبل الجانبان حقيقة أنه من غير الممكن التوصل لتسوية خارج المحكمة، تم تحديد يوم في الأوراق الرسمية القضائية لنظر الدعوى .

كان السيد دكستر عاقباً عزمه على مواجهة مطالب فيونا الشائنة بقدر مساو من المقاومة الصلبة، وأن يبدأ بإقناع بوب بمطالبة جميع توصياته. ولكن مع كل مطلب جديد من الطرف الخصم، كان عزم بوب يضعف ويلين مثل ملاكم يترنح من وقع اللكمة؛ حتى إنه كان مستعداً للتخلي عن كل شيء وإعلان هزيمته في الحلبة، وكلما اقترب موعد نظر الدعوى كان يزداد إحباطه ويأسه شيئاً فشيئاً، بل وراح يقول: "لم لا أقدم لها كل شيء على طبق من فضة، إن كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإشباعها؟". حاولت أنا وكارول أن نرفع من معنوياته، دون أن نحرز نجاحاً كبيراً في هذا، وحتى السيد دكستر كان يواجه صعوبة متزايدة في إقناع عميله بأن يثبت ويقاوم.

أكد كل منا لبوب أننا سوف نكون في المحكمة لساندته في اليوم المحدد لنظر الدعوى .

وقضت مع كارول في الرواق رقم ثلاثة لبنتى المحكمة، وهو الخاص بقسم قضايا تقسيم الممتلكات بعد الطلاق، وذلك يوم الخميس المتم لشهر يونيه، وانتظرنا بدء الإجراءات قبل العاشرة تماماً بعشر دقائق بدأ الموظفون الرسميون في الظهور واتخاذ أماكنهم. بعدها بدقائق جاءت السيدة أبوت، وإلى جانبها فيونا. حدثت نحو المدعية التي وصلت مرتدية حلة نسائية سوداء دون أى حلى، وهو مظهر يليق بجنازة - لعلها جنازة صديقى بوب.

ما هى إلا دقائق حتى ظهر السيد دكستر ثم ظهر بوب في أعقابها. اتخذا مكانهما على المنضدة المقابلة لمنصة القاضي.

عندما دقت الساعة تمام العاشرة تحققت أسوأ مخاوفي. دخلت القاضية إلى القاعة - وهي امرأة أعادت لذاكرتى على الفور ذكرى ناظرة مدرستى القديمة - كأنها حارسة صارمة لا ترى على الإطلاق أن العقاب لابد أن يتناسب مع الجرم. اتخذت القاضية مجلسها على المنصة وابتسمت فى وجه السيدة أبوت. أغلب الظن أنهما كانتا زميلتين فى الجامعة. نهضت السيدة أبوت من مكانها وردت الابتسامة للقاضية، ثم شرعت فى خوض معركتها للاستيلاء على كل صغيرة وكبيرة من ممتلكات صديقى بوب، إلى درجة التجادل حول من يحق له امتلاك مجموعة أزرار أكمام القمصان التذكارية من فترة دراسته، بدعوى أنهما كانا قد اتفقا على تقاسم كل ممتلكات السيد رادفورد بينهما بالتساوى، وهكذا فإن كان له الحق فى أحد الأزرار فإنها تستحق الزر المكمل له.

ومع مرور كل ساعة كانت مطالب فيونا تزداد وتتوسع. فكما فسرت السيدة أبوت، على كل حال ألم تتخل موكلتها عن حياتها الهنيئة والمجزية مادياً فى أمريكا، بما فى ذلك مشروع تجارى عائلى منتعش - وهو الشيء الذى لم أسمعه يقال من قبل - من أجل أن تكرس نفسها لزوجها؟ فقط لتكتشف أنه نادراً ما يعود إلى البيت فى المساء قبل الساعة الثامنة، وذلك فقط بعد أن يخرج مع أصدقائه ليلعب الاسكواش، وعندما كان يظهر أخيراً فى البيت - توقفت السيدة أبوت - يكون ثملاً، ولا يرغب فى تناول الوجبة التى قضت زوجته المخلصة ساعات فى إعدادها من أجله - توقفت من جديد - وعندما يذهبان للفراش فيما بعد، سرعان ما يستغرق فى النوم من تأثير الشراب. نهضت من موضعى فى الرواق لأعترض، ولكن الحاجب أمرنى بالجلوس وإلا سيطلب منى أن أغادر القاعة على الفور. جذبتنى كارول من سترتى بشدة لأجلس.

أخيراً انتهت مطالب السيدة أبوت، مع اقتراح بأن تمتلك موكلتها منزلها الريفي (أى منزل العمه موريل)، وأن يُسمح لبوب بالاحتفاظ بشقته التى تقع فى لندن؛ وأن من حق موكلتها أن تمتلك الفيلا التى تقع فى مدينة كان بفرنسا (فيلا العمه موريل) بينما يحتفظ بوب بعيادته فى شارع هيرلى (وهى مستأجرة). وجهت السيدة أبوت أخيراً انتباهها نحو المجموعة الفنية للعمه موريل، والتى ارتأت أيضاً أنه يجب تقاسمها بالتساوى؛ موكلتها تأخذ لوحة مونهى، بينما يحتفظ هو بلوحة مانجوين. موكلتها تنال لوحة بيكاسو، بينما يحتفظ هو بلوحة بازمورى، هى تأخذ بيكون، إلى آخر القائمة. وحين عادت السيدة أبوت للجلوس أخيراً اقترحت السيدة باتلر القاضية أن يأخذوا استراحة غداء.

خلال وجبة الغداء التى لم يقرب منها أحد، حاولت أنا والسيد دكستر وكارول إقناع بوب بأن عليه أن يقاوم ويرد الهجوم، عبثاً حاولنا ذلك، ولكنه لم يعرنا أدناً. أصر بوب على موقفه قائلاً: "لو أننى استطعت الاحتفاظ بكل ما كنت أملكه قبل أن تموت عمى سيكون هذا كافياً بالنسبة لى".

لكن السيد دكستر شعر بأنه يمكنه أن يحقق ما هو أفضل من ذلك بكثير ولا شك، لكن بوب لم يبد أى اهتمام بخوض معركة.

وأمر محاميه قائلاً: "دعنا ننته من الأمر وكفى، حاول أن تتذكر أننى من سيدفع أتعاب محاميتها، التى تزيد كل يوم بعد آخر".

حين رجعنا إلى قاعة المحكمة فى الساعة الثانية تماماً من ذلك الأصيل، أولت القاضية انتباهها لمحامى بوب. سألت القاضية باتلر: "وماذا لديك لتقوله حول هذا كله يا سيد دكستر؟".

فأجاب بتهيدة حانقة: "إننا راضون عن المضى فى تقسيم الممتلكات على النحو الذى اقترحته السيدة أبوت".

كررت القاضية قوله دون تصديق: "هل أنتم راضون عن تقسيم الممتلكات على نحو ما أوصت به السيدة أبوت يا سيد دكستر؟".

ومرة أخرى نظر السيد دكستر نحو بوب، الذى أوماً برأسه موافقاً بكل بساطة.

قالت القاضية السيدة باتلر، وهى عاجزة عن إخفاء دهشتها: "إذن ليكن هذا".

كانت على وشك أن تصدر حكمها، حين انهارت فيونا وشرعت تبكى بكاء حاراً. مالت نحو الأمام وهمست بشيء فى أذن محاميتها السيدة أبوت.

قالت القاضية باتلر، متجاهلة دموع المدعية: "سيدة أبوت، هل أصدق على هذه التسوية؟".

فقالت السيدة أبوت وهى تنهض من مكانها ويظهر عليها الحرج بطريقة ما: "يبدو أن ذلك غير ممكن بعد. يبدو أن موكلتى مازالت تشعر بأن هذه التسوية فى صالح المدعى عليه".

قالت السيدة القاضية باتلر وهى تلتفت نحو فيونا: "أهى تشعر بذلك حقاً؟". مست السيدة أبوت كتف موكلتها بيدها وهمست بشيء فى أذنها. نهضت فيونا على الفور، وظلت محنية الرأس بينما تتحدث القاضية.

بدأت القاضية تتحدث ناظرة نحو فيونا، قالت: "سيدة رادفورد، هل أفهم من هذا أنك لست راضية بعد بالتسوية التى ضمنتها لك محاميتك؟".

أومات فيونا برأسها فى احتشام.

"إذن فسوف أقترح اقتراحاً أرجو أن يصل بهذه القضية إلى نتيجة سريعة". تطلعت فيونا نحوها وابتسمت لها ابتسامتها

المعسولة، فيما غاص بوب في مقعده يأساً.

"لعله سيكون من الأسهل عليك يا سيدة رادفورد إذا قمت بوضع قائمتين لتأخذهما المحكمة بعين الاعتبار، قائمتين ترين أنهما يقتسمان ممتلكات زوجك قسمة عادلة ومساوية، فما رأيك؟"

قالت فيونا بمهادنة: "يسرني أن أقوم بهذا يا سيدتي القاضية".

سألت القاضية السيدة باتلر وهي تعود للالتفات نحو محامى بوب: "هل يحظى اقتراحى بموافقة موكلك يا سيد دكستر؟"

قال السيد دكستر وهو يحاول ألا يظهر نغمته: "نعم يا سيدتي".

"هل لى أن أتخذ هذا الإجراء بناء على توجيهات موكلك مباشرة؟"

نظر السيد دكستر نحو بوب، الذى لم يتجشم حتى عناء إبداء رأى.

ثم أولت القاضية انتباهها من جديد نحو محامية فيونا: "وأنت يا سيدة أبوت، أريد منك كلمة فاصلة تعدنى بأن موكلتك لن تتراجع عن تلك التسوية هذه المرة".

أجابت محامية فيونا: "أستطيع أن أؤكد لك أيتها القاضية أنها ستدعن لحكمك هذه المرة".

قالت القاضية السيدة باتلر: "إذن ليكن هذا، سوف نفضى الجلسة حتى صباح الغد فى العاشرة تماماً؛ وسوف أنظر فى القائمتين اللتين ستتقدم بهما السيدة رادفورد".



اصطحبت بوب أنا و كارول لتناول العشاء بالخارج تلك الليلة، كانت محاولة يائسة؛ فبالكاد فتح فمه سواء ليأكل أو ليتحدث.

تكلّم أخيراً ونحن نحتسى القهوة: "دعوها تأخذ كل شيء؛ لأن هذا هو السبيل الوحيد لكى أتخلص من تلك المرأة".
"لكن عمّتك لو عرفت أن هذا سيكون مآل ثروتها لما تركتها لك".

أجاب بوب فى تسليم: "لا أنا ولا العمّة موريل اكتشفنا هذا الأمر، ولا يمكن للمرء أن يتجاهل دقة توقيت فيونا. فلم تكن بحاجة إلا لشهر واحد بعد لقاءها بعمتى العزيزة قبل أن توافق على عرض الزواج". التفت بوب نحوى وتفرس فى عيني وسألنى: "لماذا لم تحذرنى من الزواج منها؟".

عندما دخلت القاضية إلى القاعة فى الصباح التالى كان جميع الموظفين الرسميين فى أماكنهم من قبل. كل محام جلس إلى جوار موكله. وقف جميع الحضور بالقاعة وانحنوا للسيدة القاضية بينما تتخذ مجلسها، داعية السيدة أبوت فقط للاقتراب منها.

سألت القاضية السيدة أبوت وهى تتفرس فيها: "هل كان لدى موكلتك الوقت الكافى لكى تعد القائمتين؟".
قالت السيدة أبوت: "هذا صحيح يا سيدتى القاضية، والقائمتان جاهزتان لتفحصيهما".

أومأت القاضية نحو حاجب المحكمة، فسار ببطء نحو السيدة أبوت، التى سلمته القائمتين، ثم سار الحاجب عائداً إلى المنصة ورفع القائمتين إلى القاضية لتفحصهما.

أخذت القاضية السيدة باتلر وقتها الكافى فى دراسة القائمتين، وراحت تومئ برأسها بين الحين والآخر، بل وتصرح بصوت تعجب من قبيل "أوه"، بينما وقفت السيدة أبوت على قدميها. ما إن وصلت القاضية لآخر بنود القائمتين، حتى أولت انتباهها من جديد إلى مائدة المحامين.

سألت السيدة القاضية: "هل أفهم من ذلك أن الطرفين يعتبران هذا التوزيع لجميع الممتلكات المقصودة عادلاً ومتساوياً؟"

قالت السيدة أبوت بحزم نيابة عن موكلتها: "نعم يا سيدتي".

"أفهم ذلك". هكذا قالت القاضية ثم التفتت نحو السيد دكستر وسألته: "هل هذا أيضاً يلقي موافقة موكلك؟"

تردد السيد دكستر، ثم نجح أخيراً في أن يقول: "نعم يا سيدتي"، وكان غير قادر على إخفاء نيرة التهكم والحسرة في صوته.

"إذن ليكن هذا". ابتسمت فيونا لأول مرة منذ بداية الدعوى. ابتسمت لها القاضية رداً على ابتسامتها، ثم واصلت قائلة: "وعلى الرغم من ذلك، وقبل النطق بالحكم مازال لدى سؤال واحد للسيد رادفورد". ألقى بوب نظرة سريعة على محاميه قبل أن ينهض متردداً من مقعده، ثم رفع بصره نحو القاضية.

ما الذي تريده أكثر من هذا؟ كانت هذه هي الفكرة الوحيدة التي خطرت لى بينما كنت أجلس محققاً من مكانى فى الرواق.

بدأت القاضية تقول: "سيد رادفورد، لقد سمعنا جميعاً من زوجتك أنها تعتبر هاتين القائمتين قسمة عادلة ومتساوية لممتلكاتك".

أحنى بوب رأسه وبقي صامتاً.

"ومع ذلك، وقبل أن أصدر حكمي؛ أحتاج لأن أتأكد من أنك تتفق مع هذا القول".

رفع بوب رأسه. بدا عليه شيء من التردد للحظة، لكنه قال: "إننى موافق يا سيدتي القاضية".

أعلنت القاضية السيدة باتلر: "إذن فلم يبقَ لى أى خيار".
توقفت قليلاً ، ونظرت مباشرة نحو فيونا التى كانت لاتزال
تبتسم. واصلت القاضية تقول: "بما أننى أعطيت للسيدة
رادفورد الفرصة لإعداد هاتين القائمتين واللتين تراهما قسمة
عادلة ومنصفة ومتساوية لمتلكاتك - ، سرت القاضية باتلر
وهى ترى أن فيونا تومئ بالموافقة على كلامها. "إذن سيكون
من العدل والإنصاف أيضاً أن - ، هكذا راحت القاضية تضيف
وهى تتوجه بنظرها نحو بوب: "أمنح السيد بوب الفرصة لكى
يتخير أى القائمتين يفضل أن ينالها".

أقرب المسافر





قال دوج: "إذا أردت أن تكتشف كل ما يجرى بالسجن، فأنا الشخص المناسب لتتحدث معه، أتفهم مقصدي؟".

كل سجن به شخص على هذه الشاكلة. فى سجن معسكر نورث سى، كان هذا الشخص يسمى دوج هازلت. كان طول دوج أقل من ست أقدام بنصف البوصة، وكان له شعر كثيف أسود وقد خد الشيب فوديه، وتدلّت بطنه فوق سرواله. كانت فكرة دوج عن التمرن لا تتعدى المشى من المكتبة - حيث كان يعمل أميناً لها، حتى المقصف والذي لا يبعد أكثر من مائة ياردة؛ وذلك لثلاث مرات يومياً. أعتقد أنه كان يمرن عقله فى الحدود البسيطة ذاتها.

لم يلزمنى وقت طويل حتى أتبين أنه كان ذكياً ولثيماً ومخاتلاً وكسولاً - وهى صفات غير نادرة بين أصحاب السوابق. وفى غضون أيام من وصوله إلى سجن جديد، كان بمقدور دوج أن يكفل لنفسه ثياباً جديدة الصنع، وأفضل زنزانة، وأعلى الأعمال أجراً، بل وأن يكتشف أى المساجين والأهم أى الضباط يحتاج لكسبهم إلى صفه.

بما أننى قضيت كثيراً من وقت فراغى بالمكتبة - وهى نادراً ما تكون ممتلئة بالرواد، على الرغم من أن عدد نزلاء السجن تجاوز الأربعمائة سجين - فسرعان ما أطلعنى دوج على تاريخ قضيته. عندما كان السجناء يكتشفون أننى كاتب، فإن منهم من كان يلزم الصمت على الفور، والبعض الآخر على العكس، لم يكن يتوقف عن الكلام، وقد كان دوج من هذا النوع الأخير، بالرغم من إشارات توخى الهدوء المعلقة على جميع جدران مكتبة السجن.

حين تسرب دوج من التعليم المدرسى فى عمر السابعة عشرة، كان الاختبار الوحيد الذى نجح به هو اختبار القيادة - ومن المرة الأولى. بعدها بأربعة أعوام أضاف إلى مؤهلاته رخصة قيادة شاحنات البضائع الثقيلة، وحصل فى الحين نفسه على وظيفته الأولى كسائق شاحنة.

سرعان ما واجه دوج واقع الحياة بلا أوهام خيالية عندما اكتشف النقود القليلة التى يمكن له أن يكسبها فى رحلاته ما بين جنوب فرنسا محملاً الشاحنة بالملفوف والبازلاء، وكثيراً ما كان يعود إلى سليفورد بشاحنة خاوية وبالتالى دون أجر إضافى. كان دوج، وحسب تعبيره غالباً ما يخلط الأمور عندما يتعلق الأمر بقوانين الاتحاد الأوروبى، ويتخذ وجهة نظر من أعفى من دفع الضرائب بطريقة أو بأخرى. كان يلجأ باللوم على الفرنسيين بسبب الكثير من الإجراءات الروتينية غير الضرورية وعلى حكومة حزب العمل بسبب الضرائب التأديبية، وعندما حكمت المحكمة أخيراً بإلزامه بأن يدفع ما عليه من دين أو الحبس فوراً، كان اللوم يقع على عاتق كل الجهات والأشخاص عدا دوج نفسه.

وضع مأمور تنفيذ الأحكام يده على جميع ممتلكات دوج - عدا الشاحنة التى كان لا يزال يسدد أقساط شرائها.

كان دوج على وشك أن يترك عمله كسائق شاحنة وينضم إلى طابور مستحقى إعانة البطالة - وهى طريقة مريحة للعيش؛ فليس عليك حتى أن تنهض باكراً فى الصباح - عندما اعترض طريقه رجل لم يسبق له أن رآه من قبل، أثناء توقفه



حين تسرب دوج من التعليم المدرسى فى عمر السابعة عشرة، كان الاختبار الوحيد الذى نجح به هو اختبار القيادة - ومن المرة الأولى. بعدها بأربعة أعوام أضاف إلى مؤهلاته رخصة قيادة شاحنات البضائع الثقيلة، وحصل فى الحين نفسه على وظيفته الأولى كسائق شاحنة.

سرعان ما واجه دوج واقع الحياة بلا أوهم خيالية عندما اكتشف النقود القليلة التى يمكن له أن يكسبها فى رحلاته ما بين جنوب فرنسا محملاً الشاحنة بالملفوف والبازلاء، وكثيراً ما كان يعود إلى سليفورد بشاحنة خاوية وبالتالى دون أجر إضافى. كان دوج، وحسب تعبيره غالباً ما يخلط الأمور عندما يتعلق الأمر بقواتين الاتحاد الأوربى، ويتخذ وجهة نظر من أعضا من دفع الضرائب بطريقة أو بأخرى. كان يلقي باللوم على الفرنسيين بسبب الكثير من الإجراءات الروتينية غير الضرورية وعلى حكومة حزب العمل بسبب الضرائب التأديبية، وعندما حكمت المحكمة أخيراً بإلزامه بأن يدفع ما عليه من دين أو الحبس فوراً، كان اللوم يقع على عاتق كل الجهات والأشخاص عدا دوج نفسه.

وضع مأمور تنفيذ الأحكام يده على جميع ممتلكات دوج -

عدا الشاحنة التى كان لا يزال

يسدد أقساط شرائها.

كان دوج على وشك أن يترك

عمله كسائق شاحنة وينضم إلى

طابور مستحقى إعانة البطالة

- وهى طريقة مريحة للعيش؛

فليس عليك حتى أن تنهض

باكراً فى الصباح - عندما

اعترض طريقه رجل لم يسبق

له أن رآه من قبل، أثناء توقفه



على مدى الشهر التالى بدأ فى مشاهدة عقارات عديدة فى سليفورد، برفقة سيدة شابة من إحدى وكالات العقارات المحلية. كانت سالى ماكنزى تتساءل فى حيرة كيف يمكن لسائق شاحنة أن يؤمن ثمن العقارات التى تعرضها عليه.

استقر دوج فى النهاية على منزل ريفى صغير فى ضواحي سليفورد. واندثت سالى عندما دفع الوديعه المطلوبة نقداً، وزادت دهشتها عندما طلب منها أن يلتقيا.

استمرت لقاءات سالى ودوج وتوطدت علاقتهما خلال الأشهر الستة التالية، على الرغم من أنها لم تتخلص من قلقها حيال الطريقة التى يجنى بها دوج كل هذا المال.

تسببت ثروة دوج المفاجئة فى مشكلات أخرى لم يكن يتوقعها. فما الذى يمكن له أن يفعله بمبلغ ٢٥ ألف جنيه كل أسبوع، مع عدم قدرته على إيداعه فى حساب بنكى، أو أن يدفع شيكاً شهرياً لإحدى جمعيات بناء المساكن؟ استبدل بشقة البدروم فى هينتون رود منزلاً ريفياً فى الضواحي. وحل محل الشاحنة القديمة المستعملة ذات الرافعة المشعبة شاحنة أخرى من ماركة مرسيدس ذات الستة عشر إطاراً. أما إجازته السنوية التى كان يقضيها فى الفراش مع تناول إفطاره فى مطعم بلاك بول فقد ارتقت لتصير فى فيلا مستأجرة فى الجرافى. فالبرتغاليون يربحون بأى تدفق نقدي بغض النظر عن العملة.

فى رحلة دوج الثانية إلى الجراف خلال العام التالى، اصطحب معه سالى وهناك عرض عليها أن تتزوج منه وقدم لها خاتماً مرصعاً بماسة فى حجم الجوزة، وهكذا سار دوج على النهج التقليدى لآى فتى محترم.

كان هناك الكثير من الناس، إلى جانب سالى، يتساءلون كيف يمكن لـ دوج أن يؤمن نمط معيشة مثل ذلك يدخل سنوى لا يزيد على الخمسة والعشرين ألفاً؟ أما الجواب الوحيد

الذى كان دوج يقدمه كلما طرحت عليه سالى هذا السؤال، فهو: "إنها نقود الأجر الإضافى نظراً لعملى وقتاً إضافياً". ما فاجأ السيدة زوجته هو معرفتها بأنه لا يعمل أكثر من يومين فى الأسبوع، ولعلها ما كانت لتكتشف أبداً حقيقة الأمر لولا أن شخصاً آخر دس أنفه فى الأمر.

إنه مارك كينان، ضابط مساعد شاب وطموح فى مصلحة جمارك المملكة المتحدة، الذى قرر أن الوقت قد حان ليكتشف على وجه التحديد ما الذى يورده دوج، بعد أن وشى له أحد المخبرين بأن الأمر لا يقتصر وحسب على الموز.

بينما كان دوج عائداً من إحدى رحلاته الأسبوعية إلى مارسيليا، أوقفه السيد كينان وأمره بأن يتوقف بسيارته تحت سقيفة وحدة الجمارك. نزل دوج من كابينة القيادة وقدم أوراق عمله إلى الضابط. لم يذكر فى بيان البضاعة أى شىء سوى الموز: خمسون صندوقاً من الموز. أصدر الضابط الشاب أمره بفتح الصناديق واحداً بعد الآخر، وعندما وصل إلى الصندوق السادس والثلاثين كان قد بدأ يتساءل ترى هل تبع خيطاً زائفاً بناء على معلومة خاطئة؛ وسرعان ما تبدد هذا التساؤل عندما فتح الصندوق رقم واحد وأربعين، والذى كان مكتظاً عن آخره بخراطيش السجائر -

من أصناف المارلبورو، وبنزون أند هدى، وسيلك كات وبلايرز، وعندما كان الضابط كينان يفتح الصندوق الخمسين كان قد وضع قيمة تقديرية للبضائع المهربة بسعر بيعها فى السوق: السوداء مبلغاً يتجاوز مائتى ألف.

"لم يكن لدى أى فكرة عما تحتويه تلك الصناديق"، هكذا أكد



دوج لزوجته التى صدقته، وهكذا كرر القصة نفسها لفريق الدفاع عنه، الذين أرادوا أن يصدقوه. ثم أعادها للمرة الثالثة على مسامع هيئة المحلفين وهم من رفضوا تصديقه. قام فريق الدفاع عن دوج بتذكير القاضى بأنها السابقة الأولى للسيد هازلت وأن زوجته تنتظر ابنها الأول. ظل القاضى منصتاً فى صمت صخرى ثم أرسل دوج للسجن لمدة أربعة أعوام.

قضى دوج أسبوعه الأول فى سجن لنكولن مشدد الحراسة، ولكن ما إن أكمل استمارة الاستقراء كان هناك علامات أمام كل الخانات التالية: غير مدمن، لا حوادث عنيفة، لا سجل لسابقة إجرامية وبالتالى تم نقله على الفور إلى سجن مفتوح.

فى معسكر نورث سى، كان دوج كما سبق أن أشرت، اختير للعمل بالكتابة. كانت البدائل تتمثل فى مزرعة المواشى، والمطبخ، والمخازن والمتاجر أو تنظيف المراحيض. سرعان ما تبين دوج أنه على الرغم من وجود أكثر من أربعمئة سجين فى السجن، فإنه كأمين مكتبة لا يتلقى إلا مبلغاً زهيداً. لقد هبط دخله من مبلغ ٢٥ ألفاً فى الأسبوع إلى ١٢ جنيهاً ونصف، كان ينفق منها عشرة جنيهات على شراء بطاقات الهاتف بحيث يبقى على اتصال بزوجته الحبلى.

كان دوج يتصل بـ سالى مرتين أسبوعياً - غير مسموح للسجناء بتلقى مكالمات فى السجن، ولكن يسمح لهم فقط بإجراء المكالمات - لكى يعدها مراراً وتكراراً بأنه ما إن يتم إطلاق سراحه فلن يتورط أبداً فى أى شىء ضد القانون مرة أخرى، وكانت هذه الأنباء تطمئن قلب سالى.

وفى غياب دوج، كانت سالى لا تزال تحتفظ بعملها فى وكالة العقارات، على الرغم من حملها الثقيل، بل ونجحت كذلك فى تأجير الشاحنة الخاصة بـ "دوج" خلال الضرة التى سيقضيها بعيداً. على الرغم من ذلك، فإن دوج لم يخبر زوجته بالقصة كاملة. بينما كان السجناء الآخرون يرسلون فى

طلب المجالات الإباحية والخفيفة من نوع بلاي بوى، أورديرز وايفز، وذا صن، كان دوج يتلقى هاو لاج ويكلى واكسشانج ومارت لقراءاته الجانبية.

كان يتصفح مجلة هاو لاج ويكلى حين وجد ما كان يبحث عنه بالضبط: سيارة لورى مستعملة بمقعد سائق على اليسار، حمولة أربعين طناً، من نوع البيتريبت الأمريكية، والتي كانت معروضة للبيع بسعر منخفض للغاية. قضى دوج وقتاً طويلاً - حيث إنه كان لديه الكثير من وقت الفراغ - يدرس المواصفات الإضافية للسيارة، وبينما كان يجلس وحده بالمكتبة راح يرسم رسوماً تخطيطية على غلاف المجلة، ثم استخدم مسطرة لقياس الحجم المضبوط لصندوق سجائر المارلبورو. أدرك أن الربح العائد قد يكون أقل في هذه المرة، لكنه على الأقل لن يتعرض للمساءلة القانونية.

من بين المشكلات التي يواجهها المرء عندما يجنى ربحاً يقدر بخمسة وعشرين ألفاً كل أسبوع، دون أن يقدم عليها أى تقرير ضريبي، هو أنه عندما يطلق سراحه من السجن يتوقعون منه أن يستقر في عمل لا يقدم له أكثر من ٢٥ ألفاً سنوياً قبل الضرائب؛ وهى مشكلة شائعة للغاية بين أغلب أصحاب السوابق، وخصوصاً تجار المخدرات.

قبل أقل من شهر من انتهاء مدة سجنه، اتصل دوج بزوجته وطلب منها أن تبيع شاحنته المرسيديس ذات المواصفات الممتازة، من أجل أن تدفع بجزء من ثمنها مقابل الشاحنة البيتريبت ذات الثمانية عشر إطاراً والمستعملة هائلة الحجم، والتي وجد إعلاناً عن بيعها في مجلة هاو لاج ويكلى.

عندما رأت سالى الشاحنة للمرة الأولى، لم تفهم سر رغبة زوجها في أن يستبدل بشاحنته الرائعة ذلك الوحش الهائل، وتقبلت التفسير الذى قدمه لها بأنه سيكون بمقدوره مع هذه الشاحنة أن يقود من سليفورد وحتى مارسيليا دون أن يضطر

للتوقف من أجل التزود بالوقود.

وذكر دوج زوجته قائلاً: " ولا تنسى أن القسم الأكبر من الرحلة من كالاييس وحتى مارسيليا".

تبين أن دوج سجين نموذجي، ولم يقض من مدة سجنه إلا عامين من الأعوام الأربعة.

يوم إطلاق سراحه، كانت زوجته وابنته كيلى ذات الثمانية عشر شهراً تنتظرانه عند بوابات السجن. اصطحبته سالى إلى سليفورد فى سيارتها الفوكسهال. وبعد وصولهما، كان دوج مسروراً حين وجد الشاحنة المستعملة متوقفة بالحقل المجاور لمنزلهم الريضى الصغير.

سأل زوجته: " ولكن لمَ لمَ تبيعى سيارتى المرسيدس؟".
أقرت سالى قائلة: " لم أجد عرضاً مقبولاً، وهكذا فقد أجرتها لمدة عام آخر. فعلى الأقل بهذه الطريقة توفر لنا دخلاً صغيراً".
أوماً دوج موافقاً. سره أن يجد سيارتى النقل بلا أدنى شائبة، ومصقولتين كحذاء جديد، وبعد فحصه للمحركات سره أيضاً أن يجدهما فى حالة ممتازة.

عاد دوج إلى العمل فى الصباح التالى مباشرة، وأكد لزوجته سالى مراراً وتكراراً أنه لن يلدغ من نفس الحجر مرتين. عبأ شاحنته بالملفوف والبازلاء من إحدى المزارع المحلية، قبل أن ينطلق فى رحلته إلى مارسيليا، ثم عاد إلى إنجلترا بحمولة كاملة من الموز. الضابط مارك كينان، والذي ترقى مؤخراً كان يعترض طريق سيارة دوج بانتظام، ويطلب منه أن يوقفها على جانب الطريق بحيث يفتش حمولته ليكتشف ما الذى كان يعود به من مارسيليا، ولكن مهما بلغ عدد الصناديق التى كان يفتشها، كانت على الدوام معبأة بالموز لا غير. ظل الضابط غير مقتنع، دون أن يستطيع اكتشاف ما يقوم به دوج فى الحقيقة.

عندما أمر الضابط كينان دوج بالتوقف مرة أخرى في دوفر، قال له: "دعني وشأنى قليلاً يا سيدي، ألا ترى أنني طويت صفحة الماضي؟"، ولم يرحمه ضابط الجمارك من التفتيش؛ لأنه كان مقتنعاً تماماً بأنها صفحة سوداء تلك التي طواها دوج، ولو لم يستطع إثبات هذا.

كان المنهج الجديد لـ دوج يمضى على ما يرام مثل حلم جميل، وعلى الرغم من أنه لم يكن يجنى الآن أكثر من ١٠ آلاف جنيه أسبوعياً فعلى الأقل لن يتم القبض عليه هذه المرة. واصلت سالي تحديث دفاتر الحسابات أولاً بأول بالنسبة للشاحنتين بحيث كانت التقارير الضريبية لـ "دوج" تقدم وتسد في مواعيدها دائماً، بما يتطابق مع أية قوانين جديدة للاتحاد الأوروبي، ومع ذلك فإن دوج لم يطلع زوجته على تفاصيل خطته للتربح غير الخاضع لأي ضرائب.

بعد أن عبر دوج مكتب جمارك دوفر مباشرة، في يوم الخميس بعد الظهيرة، قاد سيارته إلى أقرب محطة وقود ليعيد التزود قبل أن يواصل رحلته شمالاً نحو سليفورد. تبعته سيارة من نوع الأودي حتى الضياء الأمامي لمحطة الوقود، وبدأ سائقها يتساءل لاعتنا عن الوقت الذي سوف تستغرقه هذه الشاحنة العملاقة حتى تمتلئ بالوقود. وما أثار دهشته، أن سائق الشاحنة لم يأخذ أكثر من دقائق معدودة قبل أن يعيد فم الخرطوم إلى مكانه. وحين قاد دوج شاحنته من جديد على الطريق تقدمت السيارة التي ورائه لتشغل مكانه. عندما رأى السيد كينان الاسم على جانب الشاحنة أثير فضوله. وفحص عداد الوقود، ليكتشف أن دوج لم يدفع أكثر من ٣٣ جنيهًا. راح يحدق في الشاحنة ذات الثمانية عشر إطاراً التي جعلت تتدحرج بصعوبة على الطريق السريع، مدركاً أنه بهذه الكمية القليلة من الوقود لن يتسنى لـ دوج إلا أن يسير بضعة أميال أخرى قبل أن يضطر للتزود بالوقود مرة أخرى.

ما هى إلا دقائق معدودة حتى لحق السيد كينان بشاحنة دوج. عندئذ تبع الشاحنة من مسافة آمنة، لا يظهر منها السائق، على مدى العشرين ميلاً التالية، قبل أن يتوقف دوج عند محطة وقود أخرى، وما إن عاد دوج على الطريق من جديد بعد ذلك بدقائق، حتى توجه السيد كينان لفحص عداد الوقود - ٣٤ جنيهاً - ما يكفى فقط ليغضى مسافة ٢٠ ميلاً أخرى. وإذا وصل دوج رحلته إلى سليفورد عاد الضابط إلى دوفر تعلق وجهه ابتسامة فوز.

وفى الأسبوع التالى حين كان دوج عائداً من مارسيليا لم يبد أى قلق حينما طلب منه السيد كينان أن يوقف السيارة على جانب الطريق بالقرب من كشك الجمارك؛ فقد كان يعلم أن كل صندوق فى الحمولة - وكما تظهر أوراق النقل - ممتلئ بالموز. على الرغم من هذا، فإن ضابط الجمارك لم يطلب من دوج أن يفتح الباب الخلفى للشاحنة. بل سار ببساطة حول الهيكل الخارجى للسيارة ممسكاً بمفتاح ربط إنجليزى كما لو أنه آلة موسيقية مثل شوكة رنانة، بينما أخذ يضرب بها خزان الوقود العملاق. لم يتفاجأ الضابط عندما أصدر الخزان الثامن جرساً صوتياً مختلفاً تماماً عن صوت الخزانات السبعة الأخرى. جلس دوج هناك لساعات بينما أخذ ينقل الميكانيكيون العاملون بالجمارك خزانات الوقود الثمانية من على جانبى الشاحنة. أحدها فقط كان ممتلئاً بزيت الوقود، بينما احتوى الباقى على خراطيش سجائر بقيمة ١٠٠ ألف جنيه.

هذه المرة كان القاضى أقل تساهلاً مع دوج فحكم عليه بالسجن *لست سنوات؛ حتى بعد أن ذكر محاميه بأن التهم* ينتظر مولوداً ثانياً.

ارتعبت سالى حين اكتشفت أن دوج لم يف بوعده لها، وامتلات بالشكوك حين وعدها بأنه لن يعود إلى فعل ذلك مطلقاً. فى اللحظة التى أغلقت الزنزانة على دوج من جديد،

قامت هي بتأجير السيارة الثانية، وعادت لوظيفتها بوكالة العقارات.

بعد ذلك بعام كان بمقدور سالي أن تعلن دخلاً متزايداً قيمته ثلاثة آلاف جنيه، إضافة إلى راتبها ودخلها من وكالة العقارات.

المحاسب الخاص بـ سالي نصحتها أن تشتري الحقل الصغير المجاور للمنزل الريفي؛ حيث تتوقف الشاحنتان دائماً في الليل؛ بحيث يمكنها أن تطلب بناء على ذلك تخفيض الضرائب. وكما شرح لها المحاسب: "سوف يكون مكان انتظار الشاحنات بمثابة نفقات تجارية مشروعة تماماً".

وبما أن دوج بدأ حكم السجن لمدة ستة أعوام وعاد ليربح ١٢ جنيهًا ونصف أسبوعياً كأمين مكتبة السجن؛ فلم يكن في وضع يسمح له بإبداء الرأي. ومع ذلك فكم كان منبهراً عندما أعلنت سالي في العام التالي دخلاً يقدر بسبعة وثلاثين ألف جنيه، بما في ذلك المكافآت الإضافية عن مبيعاتها في وكالة العقارات. هذه المرة نصحتها المحاسب بشراء شاحنة ثالثة.

أطلق سراح دوج من السجن في نهاية الأمر بعد أن قضى نصف مدة العقوبة (ثلاث سنوات). كانت سالي متوقفة خارج بوابات السجن في سيارتها الفوكسهال، منتظرة أن تصطحب زوجها إلى المنزل. كانت ابنته تيلي ذات الأعوام التسعة تجلس بالمقعد الخلفي، إلى جوار أختها سام ذات الأعوام الثلاثة. لم تكن سالي تسمح للصغيرتين بزيارة والدهما بالسجن، وهكذا عندما احتضن الصغيرة بين ذراعيه جعلت تبكي بشدة. شرحت لها سالي أن هذا الرجل الغريب هو أبوها.

خلال تناول وجبة إفطار من البيض واللحم المقدد، استطاعت سالي أن تخبره بأن محاميها قد نصحتها بإنشاء

شركة ذات مسئولية محدودة. وقد أحرزت شركة هازليت هاو لادج أرباحاً تبلغ واحداً وعشرين ألفاً وستمائة جنيه خلال عامها الأول، وأضافت شاحنتين للأسطول المتنامي. أخبرت سالى زوجها بأنها تفكر فى ترك وظيفتها بوكالة العقارات لتتفرغ بشكل كامل لإدارة الشركة الجديدة.

قال دوج مستغرباً: "إدارة؟ كيف ستكون هذه الإدارة؟".

سعد دوج بأن يترك إدارة الشركة لزوجته سالى، مادام مسموحاً له أن يتخذ مكانه الأثير خلف عجلة القيادة كواحد من سائقى الشركة. كان من الممكن أن يستمر هذا الوضع كما هو عليه ويعيش الجميع فى سعادة، لو لم يقترب من ذلك الرجل المارسيلى - والذى لا يبدو أنه يدخل السجن أبداً - ومعه ما أكد له أنه خطة محكمة بلا أى مخاطر محتملة، والأهم من ذلك، أن زوجة دوج لن تضطر لاكتشافها أبداً.

قاوم دوج إغراءات الرجل الفرنسى لشهور عديدة، ولكنه استسلم أخيراً له بعد أن خسر مبلغاً كبيراً فى مقامرة. وعد نفسه قائلاً إنها رحلة واحدة فقط. ابتسم رجل مارسيلى وهو يناوله مظروفاً به اثنا عشر ألفاً وخمسمائة جنيه عدداً ونقداً.

استمرت شركة هازليت هاو لادج فى النمو تحت إدارة سالى؛ فاكسبت سمعة طيبة وحققت أرباحاً. وفى هذه الأثناء، صار دوج من جديد معتاداً على سيولة النقود بين يديه؛ أى مال لا يخضع بالمرّة لضبط الميزانية، وليس مطروحاً لحساب الإقرار الضريبى.

هناك شخص آخر واصل مراقبة شركة هازليت هاو لادج بعين يقظة، ومراقبة دوج على وجه الخصوص. بكل انتظام واعتياد. كان من الممكن رؤية دوج يقود شاحنته الخاصة خلال معبر دوفر، محملاً بالملفوف والبالزلاء، قاصداً مارسيلىا. غير أن مارك كينان، الذى صار أحد ضباط مكافحة تهريب



البضائع ويعمل في وحدة إنفاذ القانون، ثم يرد دوج ولو مرة واحدة يعود من رحلته إلى البلاد، مما يعث فيه القلق. تفقد الضابط سجلاته فتبين أن شركة هازليت وهاولادج ترسل الآن ثمانى شاحنات كل أسبوع إلى أجزاء مختلفة من أوروبا. ومديرة الشركة، سالى هازليت، سمعتها لا تشوبها شائبة - وهكذا شاحناتها - كما أقر كل شخص تعاملت معه، سواء من العملاء أو من رجال الجمارك. لكن السيد كينان كان لا يزال يمتلكه الفضول ليعرف لماذا لا يعود دوج من رحلته إلى مارسيليا قائداً شاحنته خلال هذا الميناء البرى، واعتبر الأمر مشكلته الشخصية.

كشفت بعض الاستجابات السرية عن أن دوج يمكن رؤيته فى مارسيليا يضرغ شحنته من الملقوف والبالزلاء، ثم يعبئ الشاحنة بصناديق الموز، ومع ذلك كان هناك هذه المرة اختلاف

واحد طفيف. كان الآن يعود من خلال نيوهيفين؛ مما يضيف ساعتين آخرين إلى مدة رحلة دوج الطبيعية كما قدر كينان. كان لدى جميع ضباط الجمارك حرية اختيار أن يخدموا لمدة شهر واحد كل عام فى نقطة حدود مختلفة، من أجل دعم فرصهم فى الترقى. العام الماضى اختار السيد كينان مطار هيثرو؛ لكنه ذلك العام اختار أن يعمل لشهر فى نيوهيفين.

انتظر الضابط كينان متجملاً بالصبر ظهور شاحنة دوج على المرفأ، ولكنه لم يظهر حتى نهاية أسبوعه الثانى هناك حين رأى خصمه القديم منتظراً فى صف لينزل عن العبارة أولسن. فى اللحظة التى قاد دوج فيها شاحنة إلى المرفأ، اختفى السيد كينان فى الدور العلوى بغرفة فريق العمل وصب لنفسه قدحاً من القهوة. سار حتى النافذة وراقب شاحنة دوج تتوقف عند مقدمة الخط، وتم السماح له بالعبور بسرعة على يد الضابطين المناوبين. لم يحاول السيد كينان التدخل بأى شكل بينما قاد دوج سيارته على الطريق ليوصل رحلته عائداً إلى سليفورد. كان على السيد كينان أن ينتظر عشرة أيام أخرى قبل أن تعاود شاحنة دوج الظهور، وهذه المرة لاحظ أنه لا شىء تغير عن المرة السابقة، ولم يظن السيد كينان أنها مجرد مصادفة.

عندما عاد دوج ليدخل البلاد عبر نيوهيفين بعد ذلك بخمسة أيام، اكتفى الضابطان المناوبان بمسح شاحنته بنظرة خاطفة وسطحية قبل أن يسمحا له بالعبور. تأكد الضابط الآن أنها أكثر من مجرد مصادفة. قدم السيد كينان تقريراً بملاحظات إلى رئيسه فى نيوهيفين وانتهى شهر عمله هناك، وعاد من جديد إلى دوفر.

أكمل دوج ثلاث رحلات أخرى من مارسيليا عبر نيوهيفين قبل أن يتم القبض على أحد ضابطى الجمارك. عندما رأى دوج خمسة ضباط يتوجهون صوب شاحنته أدرك أن منهجه الذى يستحيل تعقبه قد تم تعقبه وكشفه.

لم يهدر دوج وقت المحكمة الثمين في إنكار التهم الموجهة إليه والزعم ببراءته، لاسيما بعد أن قرر أحد ضابطي الجمارك الذي كان يقتسم معهما الغنائم أن يصرح باسم واحد مقابل تخفيض الحكم، وقد صرح باسم دوجلاس آرثر هازليت.

حكم القاضي بالسجن على دوج لمدة ثمانى سنوات، دون تصريح بالخروج من منتصف المدة نتيجة لحسن السير والسلوك، إلا إذا وافق على دفع غرامة قدرها سبعمائة وخمسون ألف جنيه. لم يكن دوج يملك هذا المبلغ وتوسل إلى سالى أن تهب لتجده؛ لأنه لم يكن يستطيع مواجهة حقيقة أن يمكث خلف القضبان لمدة ثمانية أعوام أخرى. اضطرت سالى لبيع كل شيء، بما فى ذلك المنزل الريفى، ومكان انتظار السيارات، والشاحنات التسع وحتى خاتم زواجها؛ بحيث يمكن لزوجها أن يستجيب لحكم المحكمة.

بعد أن قضى دوج عاماً فى سجن وايلاند من الفئة "ج" الذى يقع فى نورفولك، تم نقله من جديد إلى معسكر نورث سى؛ حيث عمل مرة أخرى كأمين مكتبة؛ وحيث التقيت به للمرة الأولى.

كم تأثرت لأن سالى وابنتيه - اللتين صارتا ناضجتين الآن - حرصن على زيارة دوج فى نهاية كل أسبوع، وقال لى إنهم لا يناقشون أمور المال والتجارة معاً، مع أنه أقسم أنه لن يعود لاقتراف الحماقات مرة أخرى أبداً.

حذرت سالى قائلة: "لا تفكر حتى فى ذلك؛ لقد أرسلت الشاحنة الخاصة بك بالفعل إلى تجار الخردة".

قال دوج عندما زرت المكتبة فى المرة التالية: "لا يمكننى أن ألوم المرأة المسكينة على هذا، بعد كل ما جلبته عليها بسبب أفعالى، ولكن إن لم يتركونى أجلس وراء مقود شاحنة بعد إطلاق سراحي فما الذى سأقوم به خلال ما تبقى من حياتي؟".

أطلق سراحى قبل إطلاق سراح دوج بنحو عامين، ولولا أننى توجهت إلى لنكولن للمحاضرة فى مهرجان أدبى بعد ذلك بيضعة الأعوام، لما عرفت أبداً ما الذى حدث لأمين مكتبة السجن.

بينما كنت أنظر نحو الجمهور خلال طرح الأسئلة، ظننت أننى تعرفت على ثلاثة وجوه تبدو مألوفاً لى على نحو غامض يجلسون فى الصف الثالث. رحت أجهد هذا الجزء من عقلى المعنى بتخزين الأسماء فيه؛ غير أنه لم يستجب لى. إلى أن طرح أحد الحاضرين على سؤالاً حول صعوبات الكتابة أثناء فترة السجن. عندئذ فقط تدفق كل شىء راجعاً إلى ذهنى. آخر مرة رأيت فيها سالى كان قبل ثلاثة أعوام أو نحو ذلك، حين كانت تزور دوج مصطحبة معها ابنتيها، كيلي و.... الأخرى اسمها سام.

بعد أن أجبت عن آخر الأسئلة، أخذنا راحة لتناول القهوة، وظهر الثلاثة للانضمام إلى.

"مرحباً يا سالى، كيف حال دوج؟" هكذا سألت قبل أن يقدموا لى أنفسهم، وهى حيلة سياسية قديمة، وبدا تأثرهم لذلك.

"تقاعد"، هكذا قالت سالى دون أى تفسير.

اعترضت قائلاً: "لكنه كان أصغر سنًا منى، ولم يكن يكف عن إخبار الجميع بما يخطط للقيام به بعد أن يطلق سراحه".

قالت سالى: "هذا لا شك فيه، ولكننى أؤكد لك أنه متقاعد. ندير أنا وابنتاى الآن شركة هاو لادج، مع فريق عمل يدعمنا من واحد وعشرين موظفًا، ناهيك عن السائقين".

قلت مستجلباً الأمر: "إذن فإن أموركم تمضى على خير ما يرام".

قالت بسخرية: "أنت بكل تأكيد لا تقرأ صفحات المال والتجارة فى الصحف".

تحديتها قائلاً: "إننى أفعل مثل اليابانيين، دائماً ما أقرأ الصحف من الخلف للأمام. فما الذى فاتنى إذن؟".

قالت ابنتها كيلى: "لقد طرحنا الشركة للاكتتاب العام فى السنة الماضية، والدتى رئيسة مجلس الإدارة، وأنا مسئولة الحسابات الجديدة، وسام مسئولة عن السائقين".

"وإن كنت أتذكر جيداً فإن لديكم حوالى تسع شاحنات؟".
قالت سالى: "لدينا الآن إحدى وأربعون شاحنة، وأرباحنا الصافية فى السنة السابقة كانت أقل قليلاً من خمسة ملايين".

"ودوج، ألا يلعب أى دور؟".

قالت سالى: "دوج لا يلعب إلا الجولف، وهو ما لا يتطلب منه أن يسافر عبر دوفر أو —"، أكملت وهى تتنهد بينما ظهر زوجها على مدخل الباب: "عبر نيو هيڤين".
لبث دوج ساكناً بينما فتشت عيناه عن أفراد أسرته فى جنبات الغرفة. لوحت له ولفت انتباهه. لوح لى دوج وسار بسرعة لينضم إلينا.

همست سالى وهى تبتسم بينما ظهر دوج إلى جانبي: "مازلنا نسمح له بأن يقود بنا السيارة للبيت بين الحين والآخر".

صافحت زميل الزنزانة المفضل لى، وعندما انتهت سالى والفتاتان من احتساء القهوة، رافقتهم جميعاً حتى سيارتهم؛ مما منحنى الفرصة لتبادل بعض الهمسات مع دوج.

بادرت بالقول: "يسرنى أن أسمع أن شركة هازلتي هاولادج تمضى من حال حسن إلى أحسن".

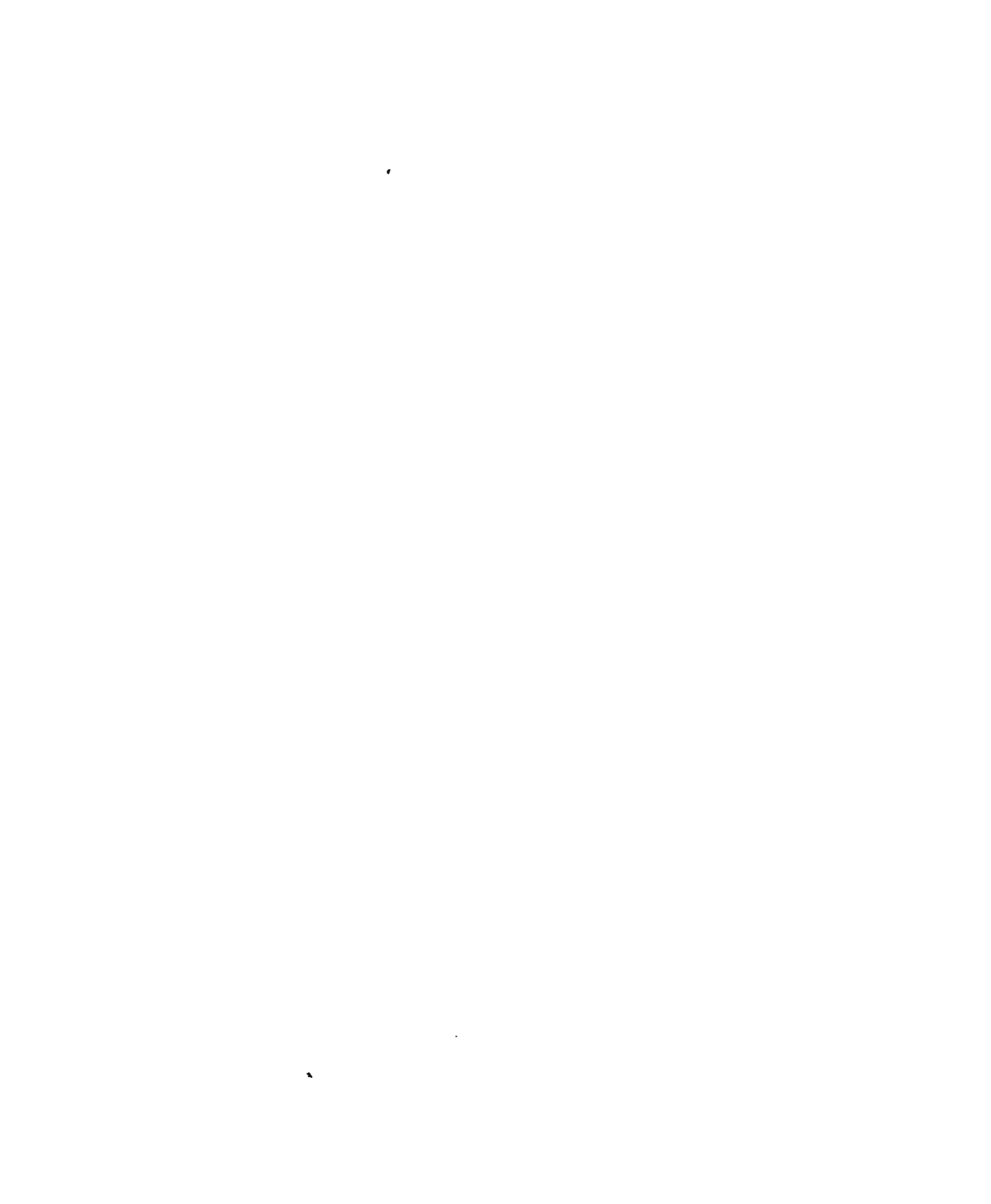
قال دوج: "الأمر كله يعود للخبرة والتجربة، لا تنس أنني علمتني كل شيء كنت أعرفه".

"ومنذ أن التقينا آخر مرة، أخبرتني كيفي أن الشركة طرحت للاكتتاب العام".

بينما كانت زوجة دوج تدخل للسيارة من الباب الخلفي، قال دوج: "كل هذا جزء من خطتي بعيدة المدى". واجهني وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة العارف ببواطن الأمور ثم أردف: "الكثير من الناس يحاولون تشمم حقيقة الأمور حالياً يا جيفرى؛ فلا تندهش إن حاولت شركة كبرى الاستيلاء على شركتنا في المستقبل القريب". بلغ مقعد السائق وعندها أضاف: "أمامك فرصة لكسب بعض الأرباح بينما أسعار الأسهم مازالت ثابتة في الوقت الحالي. أتفهم مقصدي؟".

الأقربون أولى
بالمعروف





اسمه هنرى برستون، أما أصدقاؤه القليلون للغاية، فإنهم ينادونه بهارى، وهو ليس من نوع الأشخاص الذين قد تصادفهم فى المقهى المحلى للمنطقة، أو تلتقى بهم خلال مشاهدة مباراة كرة قدم، أو تدعوهم إلى حفل شواء بمنزلك. وبصراحة لو أن هناك نادياً للمنطوين على أنفسهم، لثم اختيار هنرى رئيساً له - على مضمض.

حين كان بالمدرسة، كانت المادة الوحيدة التى تفوق فيها هى الرياضيات، ونصح بعضهم أمه، الإنسانة الوحيدة التى أحبت هنرى، بأن يتخصص ابنها فى الرياضيات. كان والده ساعى بريد. ومع الدرجة النهائية التى كان يحرزها فى مادة الرياضيات كان المجال محدوداً أمامه إلى حد كبير - إما مجال الصرافة والبنوك وإما مجال المحاسبة، وقد اختارت له أمه المحاسبة.

تم توظيف هنرى بشركة بيرسون، وكلا تريك أندرينولدز، وعندما التحق بالشركة كموظف صغير حلم بإضافة اسمه إلى أسماء الشركاء الآخرين، ولكن مع مرور الأعوام توافد رجال كانوا يصغرونه سناً ونجحوا فى نقش أسمائهم على الطرف الأيسر من أوراق الشركة، وتلاشى حلمه بالتدرج.

بعض الرجال، بعد أن يدركوا الحدود الواقعية على طموحاتهم وأحلامهم، يجدون العزاء فى أشكال أخرى، مثل النساء، أو المخدرات، أو حياة اجتماعية مزدحمة ومحمومة. أما عن المخدرات فإن هنرى لا يدخن السجائر، على الرغم من أنه يسمح لنفسه بكأس شراب واحدة فقط، وذلك يوم

الإجازة. أما بالنسبة للنساء، فإنه يميل لهن بلاى أى شك، لكن متوسط نجاحه فى العلاقات يقترب من الصفر. ولم يكن له أى هوايات.

تأتى نقطة فى حياة كل إنسان يدرك عندها خرافة الشباب الأبدى، عندما يعرف معنى التقدم فى العمر، وقد حدث كل شىء بسرعة لهنرى؛ حيث مضى نحو منتصف العمر بخطوة واسعة وبدأ يفكر فجأة فى تقاعد مبكر. عندما تقاعد السيد بيرسون، وهو أحد الشركاء، عقدت حفلة كبيرة على شرفه فى قاعة خاصة بأحد فنادق الخمس نجوم. بعد مسار مهنى طويل ومشرف، أخبر السيد بيرسون زملاءه بالشركة فى تلك الحفلة أنه سيتقاعد فى منزل ريفى بمنطقة كوتسوولدز ليعتنى بزهوره ويحاول أن يهون من نواحي قصوره فى لعبة الجولف. تبع كلمته تلك الكثير من الضحك والتهاتف والتصفيق. الشىء الوحيد الذى يتذكره هنرى من هذه المناسبة هو ما قاله له أتكينس، أحدث الموظفين بالشركة، حين كان يغادر المكان ذلك المساء: "أفترض أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تعقد الاحتفال نفسه لك أيها الرفيق العجوز".

جعل هنرى يفكر ملياً فى كلمات الشاب أتكينس بينما يسير نحو محطة الأتوبيس. لقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، وهكذا فى غضون ست سنوات فقط سيعقدون له حفلة وداع، إلا إذا أصبح أحد شركاء الشركة، وفى هذه الحالة سوف يمتد به الوقت فى منصبه حتى يبلغ الخامسة والستين من العمر. فى حقيقة الأمر، لقد تخلى هنرى منذ وقت طويل عن أى أمل فى أن يصبح أحد الشركاء، وقد تقبل بالفعل أن حفل وداعه لن يعقد بقاعة خاصة فى فندق خمس نجوم. ويكل تأكيد لن يقضى سنوات تقاعده فى منزل ريفى ليعتنى بزهوره، أما عن نواحي قصوره، فلديه منها وفرة بالفعل، ناهيك عن مسألة الجولف.

كان هنرى مدركاً تمام الإدراك أن زملاء العمل يعتبرونه شخصاً كفوئاً وضيعاً فى مجاله ويعتمد عليه، لكن هذا يضيف المزيد إلى إحساسه بالفشل، وكان أعلى مديح قد ناله عبارة : "يمكنكم دائماً الاعتماد على هنرى ؛ فهو يؤتمن على ما يقوم به خير ائتمان".
غير أن ذلك كله قد تبدل منذ يوم لقائه بآنجيلا.

كانت آنجيلا فورستر تملك شركة إيفنتس أقليميتد، وهى شركة ليست كبيرة بما يكفى لأن يضطلع بحساباتها أحد الشركاء الأساسيين، ولا صغيرة إلى حد أن يضطلع بها محاسب صغير، وهكذا انتهى المطاف بملفها إلى مكتب هنرى، الذى درس التفاصيل بكل اعتناء.

كانت السيدة فورستر هى المالكة الوحيدة للمشروع التجارى الصغير والذى تخصص فى تنظيم الاحتفالات والمناسبات الخاصة - أى مناسبات بداية من العشاء السنوى لجمعية حزب المحافظين وحتى حفل هنت الإقليمى. كانت آنجيلا شخصية منظمة بالفطرة وبعد أن هجرها زوجها من أجل امرأة تصغرها سنًا - ملاحظة جانبية: عندما يهجر رجل زوجته من أجل امرأة أصغر سنًا يكون الناتج قصة قصيرة، أما عندما تهجر امرأة زوجها من أجل رجل أصغر سنًا، يكون الناتج رواية طويلة (لا أتفق مع هذا الرأى) - اتخذت آنجيلا قراراً بأنها لن تبقى بالبيت لترثى لحالتها، لكن اختارت أن تستغل مواهبها التنظيمية؛ بحيث يمكن لها أن تشغل كامل وقت فراغها بينما تستثمر المبلغ الهزيل الذى ادخرته جانباً. ظهرت المشكلة عندما حققت آنجيلا نجاحاً أكبر قليلاً مما توقعته لمشروعها، وهو ما أدى بها لتحديد موعد مع المحاسب المتخصص هنرى .

قبل أن ينهى هنرى العمل على حسابات السيدة فورستر، راح يراجع معها ببطء الأرقام عموداً بعد آخر، عارضاً على عميلته الجديدة كيف كان يمكنها أن تطالب باستثناء بعض البنود من الحساب الضريبي، من قبيل سيارتها، وسفرياتهما، بل وحتى ملابسها؛ فقد أوضح لها أنه لزاماً عليها أن تظهر بمظهر يليق بالمناسبات التى تحضرها؛ لأنها تشرف على تنسيقها. نجح هنرى فى أن يوفر على السيدة فورستر بضع مئات من الجنيهات من الضرائب المقررة عليها؛ وهذا على كل حال ما اعتبره مسألة شرف مهنة؛ وكان جميع عملائه يتبعون نصائحه ويتركون المكتب وهم فى حال أفضل كثيراً. وذلك يحدث حتى بعد أن يضيفوا لنفقاتهم أتعاب الشركة التى يعمل بها، وهو ما كان يشير عليهم بإضافته أمام بنود تقليل الضرائب.

كان هنرى ينهى كل لقاء مع عملائه على الدوام قائلاً: "يمكننى أن أؤكد لك أن حساباتك فى غاية من الدقة والنظام، وأن رجل الضرائب لن يزعجكم بأى شكل"؛ فقد كان هنرى يعلم تمام العلم أن قليلين من عملائه هم من يرغبون بإثارة اهتمام موظف ضرائب، ناهيك عن إزعاجه لهم. وكان غالباً ما يرافق عميله حتى الباب وهو يقول: "أراك العام المقبل"، وحين فتح الباب للسيدة فورستر، ابتسمت وقالت له: "لماذا لا تحضر إحدى المناسبات التى أنظمتها يا سيد برستون؟ وعندئذ يمكنك أن ترى ما أقوم به فى أغلب الأمسيات".

لم يكن هنرى يذكر متى كانت آخر مرة دعى فيها إلى أى شيء. تردد، وهو لا يعلم كيف يجيبها. لكن أنجيلا ملأت الصمت الذى ساد للحظات، بقولها: "إننى أنظم حفلاً لصالح ضحايا المجاعات الإفريقية مساء السبت. إنه فى دار البلدية. لم لا تشرفنى بحضورك؟"



وجد هنرى نفسه يقول: "سأفعل، وشكراً لك، كم هو لطيف منك. إننى أتطلع إلى ذلك"، وندم على القرار الذى اتخذه فى اللحظة نفسها التى كان يفلق فيها الباب. على كل حال، لم تكن أمسيات السبت من كل أسبوع تحمل له من وعود أكثر من مشاهدة فيلم الأسبوع على قناة سكاي، بينما يتلذذ بتناول طعام صينى طلبه بالهاتف، وكأس شرابه الأسبوعى. ولا بد أن يكون على أية حال فى فراشه عند العاشرة مساءً لأن عليه صباح الأحد أن يتمهد فحص حسابات صندوق تبرعات دار العبادة؛ فقد كان المحاسب الخاص بالصندوق كذلك، وهو عمل تطوعى غير مأجور، كما أكد هنرى لأمه.

أمضى هنرى جزءاً كبيراً من صباح يوم السبت فى محاولة التوصل لعذر وجيه؛ صداع، اجتماع مفاجئ ومهم، ارتباط بموعد سابق كان قد غُضل عنه حينها؛ بحيث يتمكن من الاتصال بالسيدة فورستر ويضع عن كاهله الأمر برمته؛ وعندئذ أدرك أنه لا يعرف رقم منزلها.

فى الساعة السادسة من ذلك المساء ارتدى هنرى السترة الرسمية لمناسبات العشاء التى أهدتها له أمه فى يوم ميلاده الواحد والعشرين، والتى لا يرتديها إلا فيما ندر. راح يتطلع إلى صورته فى المرآة، قلقاً من أن يكون لباسه قد صار قديم الطراز؛ سترة بياقة عريضة وسروال يتسع بالتدريج من الأعلى للأسفل - غير منتبه أن هذا الطرز نفسه قد مضى وانقضى ثم عاد ليتصدر الواجهات من جديد. كان من بين آخر من حضروا إلى قاعة دار البلدية، وقد قرعزمه من قبل على أن يكون من بين أول المغادرين للحفل كذلك.

أجلست آنجيلا هنرى على طرف مائدة أهم المدعوين؛ حيث يمكنه أن يراقب مجريات الحفل، بينما يتجاوب مع حديث السيدة التى تجلس على يساره من حين لآخر.

بعد أن انتهى إلقاء الخطب، نهضت الفرقة وبدأت العزف، شعر هنرى بأنه من الأمان أن يتسلل الآن من الحفل. راح يتطلع حوله بحثاً عن السيدة فورستر. كان قد رآها قبل ذلك تذرع المكان جيئة وذهاباً، تشرف على نظام كل شىء بداية من بيع أوراق اليانصيب الخيرية إلى المسابقات إلى سحب على ورقة بعشرة جنيهات، بل والمزاد العلنى كذلك. عندما نظر إليها نظرة أكثر قرباً، وهى ترتدى ثوبها الأحمر الطويل، يغطى شعرها الأشقر كتفها، كان عليه أن يعترف بأنها... نهض وكان على وشك أن يغادر، عندما ظهرت آنجيلا فجأة تقف بجواره. قالت بصوت رقيق: "أرجو أن تكون قد استمتعت".

أكد لها هنرى قائلاً: "لقد أمضيت وقتاً رائعاً، ماذا عنك أنت؟".

أجابته آنجيلا: "ساقى يؤلمنى من كثرة الحركة هنا وهناك، لكننى على ثقة تامة من أننا سوف نحقق رقماً قياسياً فى مبلغ التبرعات هذا العام".

من خمسة ملايين، منها مليون واحد نقودًا سائلة".
قالت آنجيلا وهما يتوجهان نحو هاى ستريت: "ما أقوى
ذاكرتك يا سيد برستون، لكننى أأمل أن أتجاوز الخمسة ملايين
هذا العام"، وأضافت: "وقد أحرزت هذا المبلغ المستهدف بالفعل
حتى شهر مارس".

قال هنرى: "قد يكون هذا هو الأمر، ولكن العام الماضى
لم يتبق لك سوى اثنين وأربعين ألفًا من الأرباح، وهو أقل من
واحد بالمائة من صافى الأرباح".

قالت آنجيلا: "أنا واثقة من أنك على صواب، ولكننى
أستمتع بالعمل فهو يشغل وقتى".
"ولكن ألا تفكرين أنك تستحقين عائدًا أفضل مقابل كل
جهودك؟".

"ربما، ولكننى لا أحمل عملائى أكثر من خمسة بالمائة من
الأرباح، وكلما اقترحت عليهم أن أرفع من أتعابى يذكروننى على
الدوام بأنهم يقومون بأعمال خيرية لا تستهدف التريح".
قال هنرى: "هذا حالهم وليس حالك أنت، أنت محترفة،
ولا بد أن تؤججى على هذا الأساس".

بينما توقف أمام بنك نايت وست، وأخرجت المال لتضعه فى
الخزانة الليلية، قالت آنجيلا: "أعرف أنك محق، لكن أغلب
عملائى كانوا معى لسنوات".

ألح هنرى قائلاً: "وقد استغلوك على أكمل وجه على مدى
كل تلك السنوات أيضًا".

قالت آنجيلا: "قد يكون هذا صحيحًا، ولكن ماذا عسائى أن
أفعل حيال هذا؟".

عادت الفكرة نفسها إلى عقل هنرى، ولكنه لم يفصح عنها
للسيدة، لم يزد على أن يقول لها: "شكرًا على هذه الأمسية
الأكثر إثارة فى حياتى يا سيدة فورستر. لم أستمتع بهذا
القدر منذ سنوات". مد هنرى يده أمامه، كما اعتاد أن يفعل

الأقربون أولى بالمعروف

فى نهاية كل لقاء مع عملائه، وكان عليه أن يمنع نفسه من أن يقول: "أراك العام القادم إن شاء الله".

ضحكت أنجيلا، وقالت: "عمت مساء يا هنرى". قالتها وبدأت تسيير مبتعدة.

تردد قبل أن يقول: "لا أفترض أن...".

قاطعته قائلة: "ماذا يا هنرى؟"، والتفتت تواجهه.

"هل توافقين على تناول العشاء معى ذات يوم؟".

قالت أنجيلا: "أود ذلك للغاية، ما الوقت المناسب لك؟".

قال هنرى: "غداً" وقد واتته جرأة مفاجئة.

أخرجت أنجيلا دفتر مواعيد من حقيبة يدها وراحت تقلب صفحاته، ثم قالت: "أعلم أن غداً لا يناسبنى، لدى شعور بأنه موعد جمعية السلام الأخضر".

قال هنرى: "الاثنين؟" دون أن يكون مضطراً لمراجعة دفتر مواعيده.

قالت أنجيلا: "أسفة إنه حفل إحدى الجمعيات".

"الثلاثاء إذن؟" هكذا قال هنرى محاولاً ألا يبدو محبطاً.

قالت أنجيلا وهى تقلب صفحة أخرى: "إنه حفل منظمة العفو الدولية".

قال هنرى: "ماذا عن الأربعاء؟"، وقد راح يتساءل ترى هل غيرت رأيها.

قالت أنجيلا: "يبدو مناسباً"، ثم أضافت وهى تحديق فى صفحة خالية: "أين تود أن نلتقى؟".

قال هنرى: "ما رأيك فى لاياشا؟"، متذكراً أنه المطعم الذى يصطحب إليه أصحاب الشركة العملاء المهمين دائماً لتناول الغداء: "هل يناسبك الثامنة مساء؟".

"يناسبنى تماماً".

الأقربون أولى بالمعروف

فى نهاية كل لقاء مع عملائه، وكان عليه أن يمنع نفسه من أن يقول: "أراك العام القادم إن شاء الله".

ضحكت أنجيلا، وقالت: "عمت مساء يا هنرى". قالتها وبدأت تسير مبتعدة.

تردد قبل أن يقول: "لا أفترض أن...".

قاطعته قائلة: "ماذا يا هنرى؟"، والتفتت تواجهه.

"هل توافقين على تناول العشاء معى ذات يوم؟".

قالت أنجيلا: "أود ذلك للغاية، ما الوقت المناسب لك؟".

قال هنرى: "غداً" وقد واتته جرأة مفاجئة.

أخرجت أنجيلا دفتر مواعيد من حقيبة يدها وراحت تقلب صفحاته، ثم قالت: "أعلم أن غداً لا يناسبنى، لدى شعور بأنه موعد جمعية السلام الأخضر".

قال هنرى: "الاثنين؟" دون أن يكون مضطراً لمراجعة دفتر مواعيده.

قالت أنجيلا: "أسفة إنه حفل إحدى الجمعيات".

"الثلاثاء إذن؟" هكذا قال هنرى محاولاً ألا يبدو محبطاً.

قالت أنجيلا وهى تقلب صفحة أخرى: "إنه حفل منظمة العفو الدولية".

قال هنرى: "ماذا عن الأربعاء؟"، وقد راح يتساءل ترى هل غيرت رأيها.

قالت أنجيلا: "يبدو مناسباً"، ثم أضافت وهى تحديق فى صفحة خالية: "أين تود أن نلتقى؟".

قال هنرى: "ما رأيك فى لا باشا؟"، متذكراً أنه المطعم الذى يصطحب إليه أصحاب الشركة العملاء المهمين دائماً لتناول الغداء: "هل يناسبك الثامنة مساء؟".

"يناسبنى تماماً".

وصل هنرى إلى المطعم مبكراً عن الموعد بثلاث الساعة وقرأ قائمة الطعام والشراب من الغلاف للغلاف - مرة بعد أخرى. وكان قد اشترى أثناء استراحة الغداء فى العمل قميصاً جديداً وربطة عنق حريرية. وندم أشد الندم على أنه لم يجرب أن يقيس السترة المعروضة فى واجهة المتجر.

بعد الثامنة بقليل حضرت أنجيلا تنهادى إلى مطعم لاباشا. كانت ترتدى ثوباً منقوشاً بالزهور لونه رمادى شاحب يصل لما تحت الركبتين مباشرة. راقته لـ "هنرى" تصفيفة شعرها، لكنه أدرك أنه لن يجروء على قول هذا لها. كما راقته فكرة أنها لم تضع الكثير من مساحيق زينة الوجه وأن قطعة الحلوى الوحيدة التى وضعتها كانت عقداً من اللؤلؤ، وعندما بلغت المائدة نهض هنرى من مقعده. لم تستطع أنجيلا أن تتذكر متى كانت المرة الأخيرة التى تجشم فيها أحدهم عناء النهوض لتحيتها.

خشى هنرى ألا يجدا ما يتحدثان حوله - فتجاذب الأحاديث الصغيرة لم تكن يوماً نقطة قوته - غير أن أنجيلا سهلت عليه الأمر تماماً بحيث وجد نفسه يطلب زجاجة أخرى من الشراب، قبل أن ينتهيا من تناول الوجبة بوقت طويل. وبينما كان يحتسيان القهوة، قال هنرى: "أظن أننى قد توصلت إلى طريقة لزيادة دخلك".

فقالت له أنجيلا: "أوه، دعنا نضع أحاديث العمل جانباً".
أكد لها هنرى قائلاً: "هذا ليس حديث عمل".

حين صحت أنجيلا من نومها فى الصباح التالى ابتسمت وهى تتذكر كم كانت سهرتها مع هنرى بديعة. كل ما كانت تتذكره من حديثه قوله لها بينما كانت ترحل: "لا تنسى أن أية مكاسب تجنى من المقامرة لا ضرائب عليها". ترى ما معنى هذا؟

الأقربون أولى بالمعروف

على الجانب الآخر كان هنرى يستطيع تذكر كل جزئية صغيرة من النصائح التى أسداها لـ أنجيلا. صحا مبكراً يوم الأحد التالى وبدأ يضع المخطط المبدئى، والذى يتضمن فتح عدة حسابات بنكية، وإعداد بعض البرامج المحاسبية والعمل على برنامج استثمار طويل المدى، وكاد يضع موعد ذهابه إلى دار العبادة يومها.

فى المساء التالى شق طريقه إلى فندق الهيلتون فى بارك لين، وقد بلغه قبل منتصف الليل بدقائق معدودة. كان يحمل حقيبة من نوع جلاستن فارغة بإحدى يديه وبالأخرى مظلة. فعلى كل حال لابد أن يبدو ملائماً للدور الذى سيلعبه.

كان الحفل السنوى لجمعية وستمنستر وجمعية محافظى المدينة يوشك على الانتهاء. حين دخل هنرى إلى القاعة، كان المحتفلون يفرقون بعض البالونات ويريقون آخر قطرات المشروبات الغازية من آخر الزجاجات المتبقية. رأى أنجيلا تجلس إلى إحدى الموائد فى طرف قصى، تصنف السندات الارتهانية والشيكات البنكية والنقود السائلة قبل أن تضعها فى ثلاث كومات منفصلة. تطلعت للأعلى ولم تتمكن من إخفاء دهشتها لرؤيته. أمضت أنجيلا اليوم كله تحاول إقناع نفسها أنه لم يكن يقصد حقاً ما قاله، وأنه إذا ظهر حقاً فى المساء فلن تطاوعه فيما انتوى عمله.

"كم يبلغ المال السائل؟"، هكذا سألتها بكل بساطة، حتى قبل أن تقدم له التحية.

وجدت نفسها تقول على الفور: "اثنان وعشرون ألفاً وثلاثمائة وسبعون جنيهاً".

أخذ هنرى وقته الكافى. راجع ملاحظاته أكثر من مرة ثم وضع المال فى حقيبته البالية. ثبت أن حسابات أنجيلا صحيحة. ناولها إيصالاً بمبلغ ١٩,٤٠٠ ألفاً.

قال لها: "أراك فيما بعد". بينما تعزف الفرقة موسيقى الختام. غادر هنرى قاعة الاحتفال بينما تفرقع كلمات أغنية الختام فى الأجواء بقوة ونشاز. بقيت أنجيلا متحجرة فى مكانها بينما راقبت هنرى يسير مبتعداً. كانت تعلم أنها إن لم تنهض وتطارد هذا الرجل قبل أن يبلغ البنك، فلن يكون هناك أبداً خط رجعة.

قال المستشار بيكرنج، مقاطعاً أفكارها: "أهنتك يا أنجيلا على احتفال آخر عرفت كيف تنظمنه على خير ما يرام. لا أدري كيف كان يمكننا تدبر الأمور لولاك".
قالت أنجيلا، وهى تلتفت نحو رئيس لجنة الاحتفال: "أشكرك".

راح هنرى يشق طريقه خلال الأبواب الدوارة للفندق وينطلق نحو الشارع، مدركاً لأول مرة أن جهل الآخرين بشخصه ليست نقطة ضعف بل موطن قوة فى حقيقة الأمر. كان بوسعه سماع خفقان قلبه بينما يتوجه صوب الفرع المحلى من بنك إتش إس بى سى، وهو أقرب بنك به خزانة ودائع تعمل على مدار الساعة. أودع هنرى مبلغ ١٩,٤٠٠ ألفاً فى الخزانة، تاركاً مبلغ ٢,٩٧٠ معه فى الحقيبة. ثم نادى على سيارة أجرة وهو خروج آخر عن عاداته المعهودة. وناول السائق عنواناً فى وست إند.

توقف التاكسى أمام مؤسسة لم يدخلها هنرى قبل ذلك أبداً، على الرغم من اضطلامه بحساباتها لفترة تتجاوز العشرين عاماً.

إنه كازينو بلاك آس؛ حيث حاول المدير إخفاء دهشته عندما رأى السيد برستون يسير داخلاً إليه. هل أتى لإجراء تفتيش مفاجئ؟ لا يبدو هذا معقولاً، كما أن محاسب الشركة لم يتعرف عليه بل اتجه مباشرة نحو مائدة لعب الروليت.

الأقربون أولى بالمعروف

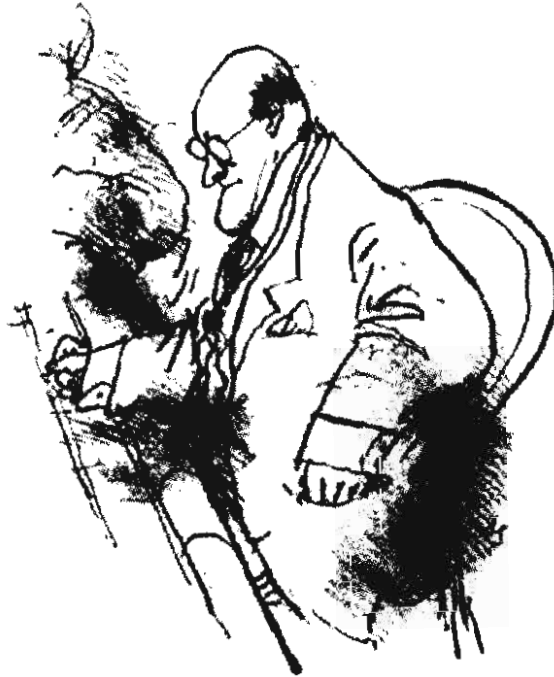
كان هنرى على اطلاع بفرص الفوز والخسارة؛ ذلك لأنه كان يحرر بنفسه موازنة نهاية العام الخاصة بالكازينو فى إبريل من كل عام، وعلى الرغم من الإيجارات، ومعدلات الضريبة، وأجور العاملين والأمن، بل وحتى الأطعمة والمشروبات المجانية الممنوحة للزبائن المهمين، كان صاحب الكازينو ينجح فى إعلان ربح لا بأس به. غير أن هنرى فى هذه الحالة تحديداً لم يكن يبدى أدنى اهتمام بمسألة ربح المكان، أو تحديداً خسائره.

اتخذ هنرى مجلسه إلى طاولة الروليت ورأى اللون الأحمر بالطاولة. فتح حقيبته الرثة وأخرج منها عشر ورقات من فئة العشرة جنيهاً وناولها للقائم على تنظيم اللعبة، والذي عدها ببطء قبل أن يعطى لهنرى مقابلها عشر فيشات صغيرة ذات لونين أزرق وأبيض.

كان هناك عدد من المقامرين يجلسون من قبل إلى الطاولة، يراهنون بفيشات ذات أثمان مختلفة، فئة الخمسة والعشرة والعشرين والخمسين، بل حتى من وقت لآخر بالفيشة ذهبية اللون ذات المائة جنيه. مقامر واحد فقط كانت أمامه كومة من الفيشات الذهبية، وكان ينثرها بعشوائية فوق أرقام مختلفة من أرقام عجلة الروليت. أحس هنرى بالسرور لأنه جذب انتباه جميع من وقفوا حول الطاولة ليتفرجوا.

بينما واصل الرجل الجالس على الطرف الأقصى من المائدة توزيع فيشاته الذهبية على الأجزاء الخضراء اللون، فإن هنرى وضع واحدة من فيشاته فئة العشرة جنيهاً على اللون الأحمر. دارت العجلة وأخذت الكرة البيضاء تتدحرج فى الاتجاه المعاكس حتى استقرت أخيراً على الرقم ١٩ الأحمر. أعاد مشغل اللعبة الفيشة فئة العشرة إلى هنرى، بينما استولى على فيشات ذهبية تتجاوز قيمتها الألف جنيه من المقامر الجالس على الطرف الآخر من الطاولة.

بينما كان مشغل اللعبة يتهاى للدورة التالية للعجلة، وضع هنرى خلسة فى جيب سترته الأيسر فيشته الوحيدة التى كسبها، فى حين ترك الفيشة الأصلية على الأحمر كما هى. أدار مشغل اللعبة العجلة من جديد، وهذه المرة توقفت الكرة البيضاء الصغيرة عند رقم ٤ أسود، وهكذا استولى مشغل اللعبة على فيشة هنرى ذات العشرة جنيهاً. بعد مراهنتين أخريين عاد هنرى كما بدأ تماماً، بلا مكاسب أو خسائر. وضع هنرى فيشة بقيمة عشرة جنيهاً على اللون الأحمر. كان هنرى قد استقر على أنه إذا غير كل ما معه من مال سائل إلى فيشات ستكون عملية طويلة ومجهدة. غير أن هنرى، وعلى خلاف أغلب المقامررين، كان يتحلى بالصبر الجميل، وهدفه الوحيد كان الخروج دون أية خسائر.



بعد ثلاث ساعات من ذلك، كان قد نجح في تغيير مبلغ الألفين وتسعمائة وسبعين جنيهاً كله إلى فيشات لعب دون أن يثير ريبه أى شخص، غادر هنرى الطاولة وقصد المشرب. إن كان هناك شخص يتتبع عن كثب ما يقوم به هنرى، فإنه سيلاحظ أنه على وشك أن يخرج من اللعبة بلا أية خسائر. لكن هذه كانت هى نيته تماماً، وأن كل مبتغاه أن يستبدل بكل الفائض المضاف فيشات قبل أن يتمكن من تنفيذ الجزء الثانى من خطته.

عندما بلغ هنرى المشرب كانت حقيبته الجلستون قد صارت خاوية وامتلاً جيبه بالفيشات، اتخذ مجلسه إلى جانب امرأة بدا أنها تجلس بمفردها. لم يتحدث إليها وهى لم تبتد أى اهتمام به، وعندما طلبت تلك المرأة، أنجيلا، شراباً آخر، انحنى هنرى للأمام وأودع كل فيشاته فى حقيبة يدها التى تركتها على الأرض بجانبها، وقبل أن يعرف عامل المشرب ماذا يطلب كان هنرى قد توجه بالفعل إلى باب الخروج.

فتح المدير بنفسه له الباب الأمامى.

قال المدير: "أرجو أن نراك ثانية فى القريب العاجل يا سيدى".

أوماً هنرى برأسه، دون أن يتجشم عناء توضيح الأمر للمدير بأن ذلك كله سوف يعد روتيناً ليلياً ثابتاً لديه. ما إن سار هنرى على الرصيف بالخارج حتى سار نحو أقرب محطة لقطار الأنفاق، لكنه لم يشرع فى الصفير حتى استدار نحو الركن.

انحنت أنجيلا وأغلقت حقيبتها، بعد أن أنهت مشروبها بوقت معقول. فى وقت سابق من هذا المساء حاول رجلان التقرب منها ولذلك غادرت المكان وهى تشعر بالإطراء والثقة. تهادت فى مشيتها وسارت لتنضم إلى طاوور قصير أمام نافذة تغيير الفيشات بالنقود. عندما بلغت الواجهة الأمامية، دفعت أنجيلا بكومة من الفيشات فئة العشرة جنيهاً تحت الشبكة

الحديدية وانتظرت.

سألها الصراف، بعد أن أحصى الفيشات الخاصة بها: "نقداً أم شيكاً يا سيدتى؟".

فأجابته أنجيلا: "شيكاً من فضلك".

كان السؤال التالى للصراف هو: "باسم من سيكون الشيك؟".

قالت أنجيلا بعد لحظة تردد: "السيدة روث ريتشارد".

كتب الصراف اسم روث ريتشارد، ومبلغ ألفين وتسعمائة وثلاثين جنيهاً، قبل أن يتاولها الشيك من تحت الشبكة المعدنية. راجعت أنجيلا الرقم. لقد خسر هنرى أربعين جنيهاً. ابتسمت وقد تذكرت أنه قال لها إن الحساب سوف يتساوى على مدى عام واحد. فعلى كل، كما شرح لها، ثم يكن يراهن بالفوائد والفروق، لكنه ببساطة يحول أى نقود سائلة يمكن تتبعها بسهولة إلى شيكات بنكية لا يمكن لأى شخص أن يتتبعها فيما بعد.

تسللت أنجيلا خارج الكازينو عندما رأت المدير يتحدث إلى أحد الزبائن الذى بدا عليه أنه خسر مبلغاً كبيراً من المال، وقد حذرها هنرى من أن المدير يضع عيناً يقظة على الرابحين أكثر بكثير مما يفعل مع الخاسرين، وبما أنها على وشك أن تباشر جولة طويلة من الربح فينبغى عليها ألا تلتفت الانتباه إليها.

أحد شروط الاتفاق التى أكد هنرى عليها هو ألا يتواصل أحدهما مع الآخر فى الكازينو بأى صورة، سواء عندما يجيء ليجمع غنائمه، أو فيما بعد خلال اللحظة القصيرة التى يودع فيها الفيشات بداخل حقيبتها المفتوحة. ثم يكن يرغب فى أن يعتقد أى شخص أن وراءهما شيئاً ما. وافقت أنجيلا على تبريره بعد تردد وعلى مفض. كانت نصيحة هترى الوحيدة الأخرى هى أنه لا يجب أن يراها أحد تجمع المال السائل

الحديدية وانتظرت.

سألها الصراف، بعد أن أحصى الفيشات الخاصة بها: "نقدًا أم شيكًا يا سيدتي؟".

فأجابته أنجيليا: "شيكًا من فضلك".

كان السؤال التالى للصراف هو: "باسم من سيكون الشيك؟".

قالت أنجيليا بعد لحظة تردد: "السيدة روث ريتشارد".

كتب الصراف اسم روث ريتشارد، ومبلغ ألفين وتسعمائة وثلاثين جنيهًا، قبل أن يناولها الشيك من تحت الشبكة المعدنية. راجعت أنجيليا الرقم. لقد خسر هنرى أربعين جنيهًا. ابتسمت وقد تذكرت أنه قال لها إن الحساب سوف يتساوى على مدى عام واحد. فعلى كل، كما شرح لها، لم يكن يراهن بالفوائد والفروق، لكنه ببساطة يحول أى نقود سائلة يمكن تتبعها بسهولة إلى شيكات بنكية لا يمكن لأى شخص أن يتتبعها فيما بعد.

تسللت أنجيليا خارج الكازينو عندما رأت المدير يتحدث إلى أحد الزبائن الذى بدا عليه أنه خسر مبلغًا كبيرًا من المال، وقد حذرها هنرى من أن المدير يضع عينًا يقظة على الرابحين أكثر بكثير مما يفعل مع الخاسرين، وبما أنها على وشك أن تباشر جولة طويلة من الربح فينبغى عليها ألا تلتفت للانتباه إليها.

أحد شروط الاتفاق التى أكد هنرى عليها هو ألا يتواصل أحدهما مع الآخر فى الكازينو بأى صورة، سواء عندما يجيء ليجمع غنائمه، أو فيما بعد خلال اللحظة القصيرة التى يودع فيها الفيشات بداخل حقيبتها المفتوحة. لم يكن يرغب فى أن يعتقد أى شخص أن وراءهما شيئًا ما. وافقت أنجيليا على تبريره بعد تردد وعلى مضض. كانت نصيحة هنرى الوحيدة الأخرى هى أنه لا يجب أن يراها أحد تجمع المال السائل

العشاء فى مطعم لاباشا. دون أن يشير أحد منهما أدنى إشارة إلى أنها قد نجحت فى التخلص من مبالغ ٢٧٦,٩٠٠، و٣١١,١٥٠، و٣٦٤,٦١٠ على مدار السنوات الثلاث السابقة، وبعد الانتهاء من كل عملية إيداع كان يصل أحدث الشيكات إلى بنك مختلف فى لندن، ودائمًا باسم السيدة روث ريتشارد. تمثلت المسئولية الأخرى الملقاة على عاتق هنرى فى التأكد من استثمار ثروتهما التى تكونت حديثًا استثمارًا ذكيًا وفعالًا، متذكرًا أنه لم يكن فى النهاية مقامرًا. ومع ذلك، فإن إحدى مزايا الإمساك بدفاتر حسابات الشركات الأخرى هى القدرة على أن تتوقع دون مشقة الشركة التى من المرجح أن تحقق أرباحًا جيدة فى العام التالى، وبما أن الشيكات البنكية لم تحرر أبدًا باسمه أو باسمها فإن الفوائد اللاحقة لم يكن من الممكن تتبعها حتى الوصول إليهما.

بعد أن وصلا للمليون الأول فى رصيد البنك شعر هنرى بأن عليهما أن يجازفا بسهرة عشاء كنوع من الاحتفال. أرادت أنجيلا الذهاب إلى مطعم موزيمان فى شارع وست هالكنز، غير أن هنرى اعترض على الفكرة، وحجز مائدة لشخصين فى مطعم لاباشا. لا حاجة بهما إلى لفت الانتباه إلى ثروتهما المكتسبة حديثًا، هكذا ذكرها.

وخلال تناول العشاء قدم هنرى اقتراحين آخرين. أبدت أنجيلا سعادة هائلة فى الموافقة على الاقتراح الأول، غير أنها لم ترغب فى الحديث عن الاقتراح الثانى. نصحتها هنرى أولاً أن تحول المليون الأولى إلى حساب منخفض العوائد إلى بنك كوك أيلاندز بينما يواصل هو نفس سياساته الاستثمارية؛ كما أنه أوصى بأنهما فى المستقبل كلما وصلا إلى مبلغ مائة ألف أخرى فإن أنجيلا عليها أن تحوله على الفور إلى المبلغ المودع فى ذلك الحساب نفسه.

رفعت أنجيلا كأسها، وقالت: "موافقة، ولكن ما هو البند الثانى على جدول الأعمال يا سيادة رئيس مجلس الإدارة؟". هكذا سألته على سبيل المشاكسة. أخذ هنرى يعرض عليها أدق تفاصيل خطة خاصة بالطوارئ. لم تكن هى ترغب فى مجرد التفكير فيها.

ثم رفعت كأسها فى نهاية الأمر، وللمرة الأولى فى حياته، بدأ هنرى يتطلع للتقاعد، والاحتفال مع جميع زملائه فى الشركة فى حفل وداع فى عيد ميلاده الستين.

بعد ذلك بستة شهور، أرسل رئيس مجلس إدارة شركة برسون، كلا تريك أند رينولدز دعوة إلى جميع موظفى الشركة، يطلب منهم الانضمام إلى الشركاء الرئيسيين لتناول المشروبات الخفيفة فى فندق محلى بثلاث نجوم بغرض الاحتفال بتقاعد هنرى برستون ومن أجل شكره على أربعين عاماً من الخدمة المخلصة للشركة.

لم يتمكن هنرى من حضور حفل وداعه بنفسه؛ ذلك أن الأمر انتهى به بالاحتفال بعيد ميلاده الستين وراء القضبان، ومن أجل مبلغ ٨٢٠ جنيهاً فقط لا غير.



راجعت الآنسة فلورنس بليكنسوب الأرقام مرة بعد أخرى. إذن فقد كانت على صواب فى المرة الأولى. هناك نقص قدره ٨٢٠ جنيهاً من المبلغ الذى أحصته قبل أن يظهر ذلك الضيف غير المدعو، والذى كان يرتدى حلة مخططة، ومعه حقيبة صغيرة ثم اختفى وبحوزته كل المال السائل. لا يمكن أن تقع المسئولية على أنجيلا بالمرّة، فعلى كل حال، لقد كانت أنجيلا إحدى تلميذاتها فى مدرسة سانت كاثرين الدينية. صرفت الآنسة بليكنسوب نظرها عن ذلك الفارق الطفيف باعتباره خطأها

هى، لاسيما أن التبرعات قد ارتفعت كثيراً عن إجمالى العام السابق.

فى العام التالى سيكون الاحتفال بالمئوية الخاصة بتأسيس المدرسة الدينية، وقد خططت الأنسة بليكنسوب من الآن بالفعل لاحتفال جدير باليوبيل الذهبى، وقد أخبرت أعضاء لجننتها أن عليهم بذل جهد كبير لتحسين الأوضاع إن أرادوا أن يحققوا رقماً قياسياً خلال العام المائة. وعلى الرغم من أن الأنسة بليكنسوب قد تقاعدت من وظيفة مديرة مدرسة سانت كاثرين قبل نحو سبع سنوات، فقد واصلت معاملة لجننتها من الصديقات والفتيات العجوزات كما لو أنهن مازلن تلميذات فى مرحلة المراهقة.

ما كان من الممكن أن يحقق الحفل المئوى نجاحاً أعظم مما حققه، وكانت الأنسة بليكنسوب هى أول من انتقى أنجيلا من أجل مديح خاص. وقد أكدت أنه فى رأيها الخاص أن السيدة أنجيلا فورستر قد بذلت قصارى جهدها حقاً.

على الرغم من هذا، فإن الأنسة بليكنسوب العجوز شعرت بضرورة أن تحصى المال الذى جمعه تلك الليلة ثلاث مرات، قبل أن يظهر ذلك الرجل الصغير ويأخذ المال كله بعيداً. حين قامت بمراجعة الأرقام فى وقت تال من هذا الأسبوع، وعلى الرغم من أنهم قد حققوا رقماً يتجاوز آخر أرقامهم بمعدل لا بأس به، فإن المبلغ المودع كان أقل بألغى جنيه من الرقم الذى دوتته بالقلم على ظهر بطاقة دعوتها.

شعرت الأنسة بليكنسوب أنها لا حيلة أمامها إلا أن تعلن عن هذا الفارق (الذى حدث لعامين متتاليين) لرئيستها السيدة ترافنجتون، والتى سألت زوجها النصح بدورها، والذى كان رئيس لجنة المراقبة المحلية. قبل أن يقوم السيد دافيد بإطفاء المصباح المجاور للضراش تلك الليلة، وعد زوجته أنه سيتحدث إلى مأمور الشرطة فى الصباح.

الأقربون أولى بالمعروف

عندما علم مأمور الشرطة بأمر هذا الاختلاس، وضع التفاصيل كلها بين يدي رئيسه المباشر، والذي مرر الكرة بدوره إلى رئيس مفتشى المباحث، والذي ودّ لو يخبر رئيسه أنه يعمل على قضية القبض على أحد القتلة وكذلك محاولة التوصل لشحنة هيروين سيبلغ ثمن بيعها في الشارع أكثر من عشرة ملايين. والحقيقة أن مدرسة سانت كاثرين لم تفقد أكثر من ألفي جنيه، كما تبين له عند مراجعة دفاتره، وهو ما لم يكن من المرجح أن يوضع على رأس قائمة أولوياته. قام بإيقاف أول شخص التقاه في الردهة وأسلمه ملف الموضوع. "أريد أن أرى تقريراً كاملاً بالأمر على مكتبي قبل الاجتماع التالي للجنة المراقبة في الشهر القادم، مفهوم أيتها الرقيببة؟".

انطلقت الرقيببة المحققة جانيت سيتون في مهمتها بهمة وكأنها تسعى في أثر أخطر سفاح على وجه الأرض.

أول شيء قامت به أنها قابلت الأنسة بليكنسوب والتي أبدت تعاونها التام، ولكنها أكدت أيضاً أنه من المستحيل أن تكون إحدى بناتها وتلميذاتها متورطة في أمر مشين كهذا، وبالتالي لم يتم استجواب أي منهن. بعد ذلك بعشرة أيام، قامت المحققة سيتون بشراء تذكرة إلى حفل نادي خيول بيبنجتون الخيري، على الرغم من حقيقة أنها لم تترك حصاناً طوال حياتها.

وصلت المحققة سيتون إلى الحفل قبيل دق الجرس واعلان دعوة الحضور إلى مائدة العشاء. سرعان ما تعرفت على آنجيلا فورستر، حتى قبل أن تجد الطاولة التي ستجلس إليها. ومع أن المحققة سيتون اضطرت لتجاذب أطراف الحديث مع الرجال المجاورين لها على الطاولة فإنها راحت تنقل عينيها حيثما ذهبت السيدة فورستر. في وقت تقديم الجبن والقهوة، كانت المحققة قد توصلت لمصلحة مفادها أنها تتعامل مع محترفة ذات براعة تامة؛ لأن السيدة فورستر لم تكن قادرة وحسب

على التعامل من وقت لآخر مع نوبات غضب واندفاع ليدي بينجتون، زوجة رئيس النادي والرابطة، بل إنها كذلك كانت تجد الوقت لكي تنسق عمل الفرقة الموسيقية، وتهتم بأمور المطبخ، والنادلين، وعمل الفطرات الترفيحية وكذلك فريق المتطوعين دون أن تهزول أو تتحرك بسرعة ولو مرة واحدة. لكن الأمر الأكثر مدعاة للدهشة هو أنها لم يبد عليها أنها مهتمة مطلقاً بمسألة جمع أموال التبرعات؛ فقد كان هذا مسئولية مجموعة من سيدات المجتمع، ممن اضطلعن بأداء المهمة دون أن يبدو أنهن بحاجة لاستشارة أنجيلا.

عندما بدأت الفرقة الموسيقية في تقديم أولى فقراتها، حاول أكثر من شاب مجالسة المحققة الشابة، لكنها رفضت، ورفضت أحدهم على وجه الخصوص بعد شيء من التردد.

كانت الساعة تقارب الواحدة صباحاً عندما بدا أن السهرة تشارف نهايتها، وعندئذ أمكن للمحققة أن ترى الرجل الذي كانت بانتظاره. من بين السترات السوداء والحمراء كان من السهل تحديده أكثر من سهولة تحديد ثعلب يجرى في مكان فضاء، كما أنه طابق الوصف الدقيق الذي قدمته الآنسة بليكنسوب العجوز: رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، أصلع الرأس ويبلغ الستين من عمره تقريباً ويرتدى ملابس تليق أكثر بمحاسب بائس أكثر من ضيف في حفل خيرى. لم ترفع عينها من عليه بينما راح هو يسير دون تسرع أو تطفل حول الحافة الخارجية للساحة إلى أن اختفى وراء الفرقة الموسيقية. تركت المحققة الشابة مائدتها في الحال وتوجهت نحو الجانب الآخر من قاعة الحفل، ولم تتوقف إلا حين تمكنت من أن ترى الاثنين رؤية واضحة تمام الوضوح. الرجل الذي يجلس الآن بجانب أنجيلا كان يحصى المال السائل، غير منتبه إلى زوج العيون الذي كان يراقبه. حدثت المحققة في أنجيلا، بينما كان الرجل يقوم بوضع الشيكات البنكية ووثائق السندات والمال

السائل في كومات منفصلة. ثم يتبادلا ولو كلمة واحدة. بعد أن تأكد هنرى من إحصاء المال السائل مرة بعد أخرى، ثم يتطلع نحو أنجيلا ولو بنظرة أخرى واحدة، فقد وضع النقود في حقيبته وأسلمها وصلًا بالتسلم. ولم يقدم تحية لـ أنجيلا أكثر من انحناءة بالرأس، ثم عاد أدراجه ملتفتًا حول الساحة من جديد وغادر قاعة الاحتفال مسرعًا. ثم يقتض الأمر كله منه أكثر من سبع دقائق. غير أن هنرى لم ينتبه إلى أن واحدة من المدعوات كانت تسعى في أثره على ميعدة خطوات منه، والأهم من ذلك أنها لم تغفل عن مراقبته بعينيها طرفة عين.

كانت المحققة الشابة سيتون مازالت تراقب الرجل مجهول الهوية بينما يسير مسافة طويلة عبر اليوابات المزخرفة بالحديد المشغول، وباتجاه القرية.

وبما أنها كانت ليلة صافية، والشوارع خالية، فإن المحققة سيتون لم تجد أية مشقة في متابعة تقدم الرجل صاحب الحقيقية دون أن يلحظها. لا بد أنه يشعر بثقة مطلقة بما أنه لم ينظر للوراء ولو لمرة واحدة. اضطرت لأن تندس في الظلام مرة واحدة؛ وذلك عندما توقف هدفها أمام الضرع المحلى لبنك نات وست. فتح حقيبته وأخرج اللفافة ووضعها في الخزانة الليلية، ثم واصل طريقه بعد ذلك، دون أن يخفف من إيقاع سيره الحثيث. إلى أين كان متجهًا؟

كان على المحققة الشابة أن تأخذ قرارًا فوريًا. فهل عليها أن تواصل مراقبة هذا الغريب، أم تعود أدراجها إلى قاعة حفل بينينجتون لترى ما الذى ستفعله السيدة فورستر؟ فى النهاية عملت بالنصيحة التى طالما وجهها إليها المشرف عليها فى كلية الشرطة؛ اتبعوا رائحة المال. عندما وصل هنرى إلى المحطة أطلقت المحققة صيحة تدمر؛ فقد تركت سيارتها فى مرآب قصر الاحتفال، وإن كان عليها أن تواصل مطاردة رجل الحقيقة

فإن عليها أن تنسى أمر سيارتها؛ ثم تأتي لأخذها ما إن تطلع شمس الغد.

بعد ذلك بدقائق معدودة وصل آخر قطار متجه إلى واترلو تلك الليلة إلى محطة بينجتون. صار من الجلى أن الرجل صاحب الحقيبة قد ضبط توقيت كل شيء بالدقيقة الواحدة. ظلت المحققة خارج نطاق نظره إلى أن استقل هدفها المشبوه القطار، فاتخذت مقعداً فى العربة التالية للعربة التى ركبها. عندما بلغا محطة واترلو نزل الرجل عن القطار وشق طريقه على وجه السرعة نحو أقرب موقف لعربات الأجرة. وقفت المحققة إلى أحد الجوانب وراقبته بينما يتقدم حتى صدارة الصف. فى اللحظة التى استقل فيها إحدى عربات الأجرة، سارت المحققة بسرعة حتى مقدمة طاوور عربات الأجرة، وأبرزت تصريحها المهنى واعتذرت بسرعة للشخص الذى كان على وشك أن يستقل سيارة الأجرة. قفزت إلى داخل السيارة وأمرت السائق بأن يتبع سيارة الأجرة التى تحركت لتوها خارج الصف.

عندما أوقف السائق سيارة الأجرة أمام كازينو بلاك آس، بقيت المحققة بداخل العربة التى استقلتها إلى أن اختفى الرجل بداخل الكازينو.

أخذت وقتها الكافى لتدفع للسائق أجرته ثم خرجت من السيارة لتتبع طريدها إلى داخل الكازينو. ملأت استمارة بعضوية مؤقتة؛ لأنها لم ترغب أن يدرك أى شخص حقيقة مهمتها.

أخذت المحققة سيتون تتجول فى أرجاء المكان وتفتحص بعينها طاولات اللعب. اقتضى منها الأمر بضع لحظات قبل أن تقع عينها على رجلها المستهدف يجلس إلى واحدة من طاولات الروليت. اتخذت خطوة إلى الأمام وانضمت إلى الواقفين للمشاهدة ممن شكلوا حدوة حصان حول الطاولة.

حرصت المحققة أن تكون على مسافة من هدفها؛ لأنها بثوبها الطويل الحريري الأزرق، والأكثر ملاءمة لحفل الكازينو، قد تلفت انتباهه، وربما تساءل إن كانت قد تبعته من قصر بينجتون.

على مدى الساعة التالية شاهدت الرجل يخرج من حقيبته أكواماً من النقود السائلة على فترات منتظمة، ثم يستبدل بها فيشات. وبعد مضي الساعة صارت الحقيبة خاوية بكل وضوح لأنه غادر الطاولة وعلى وجهه نظرة كآبة، وشق سبيله نحو المشرب.

فهمت المحققة سيتون مغزى الحكاية. لقد كان الرجل مجهول الهوية يختلس مالا من تبرعات الاحتفالات الخيرية من أجل أن يمول عاداته في المقامرة، لكنها مازالت غير واثقة إن كانت آنجيلا لها يد في ذلك أم لا.

وقفت المحققة وراء عمود رخامي بينما جلس الرجل على أحد مقاعد المشرب المرتفعة التي لا ظهر لها بجوار سيدة ترتدى ثوباً أزرق قصيراً.

أما زال معه من النقود ما يكفى ليدعو هذه المرأة إلى شراب؟ اتخذت المحققة خطوة للأمام من وراء العمود ونظرت نظرة أكثر قرباً، عندما رأت أن هنرى بدأ يسير متجهاً صوب باب الخروج انطلقت في أثره تكاد تجرى. بعد ذلك، وبعده بوقت طويل، فكرت المحققة سيتون أنه كان غريباً منه أن يغادر المشرب دون أن يحتسى شراباً. لعل المرأة التي تجلس إلى المشرب رفضت دعوته فأحبط وغادر.

خطا هنرى نحو رصيف الشارع وصاح منادياً على سيارة أجرة، وأوقفت المحققة سيارة أجرة وتبعته سيارته بينما سلكت سبيلها فوق جسر بوتنى وواصلت رحلتها على طول الضفة الجنوبية للنهر. توقفت سيارة الأجرة أخيراً قبالة مبان سكنية في واندسورث. دونت المحققة سيتون العنوان وقررت

أنها تستحق أن تعود بسيارة الأجرة ذاتها لمنزلها. بعد كل هذا
الجهد.



فى الصباح التالى وضعت المحققة سبتون تقريرها الوافى على
مكتب المفتش العام. قرأه المفتش وابتسم وغادر مكتبه وسار فى
الردهة ليعلم المأمور بالمستجدات، والذى قام بدوره بالاتصال
بكبير المحققين، الذى قرر بدوره ألا يذكر شيئاً من هذا لرئيس
لجنة المراقبة إلا بعد القبض على الرجل؛ لأنه رغب أن يقدم
للسير دافيد قضية بسيطة ومنتهية؛ قضية لا يجد المحلفون
حيالها خياراً آخر إلا إدانة المتهم.

قام هنرى بإيداع المال المجموع من حفل مؤسسة باترفلاى فى
خزانة تحت الأرض تفتح على مدار الساعة بينك تى إس بى،
والذى لا يبعد أكثر من مائة ياردة عن الفندق الذى انعقد فيه
حفل العشاء السنوى. لابد أنه قد سار ثلاثين ياردة أخرى قبل

أن تتوقف إلى جواره سيارة شرطة. لم يكن هناك أى مغزى من الإسراع بتطويقه ومهاجمته، فلم تكن بنية هنرى الجسدية تعينه على المقاومة أو الركض. وعلى أى حال، فقد خطط من قبل لمثل هذه اللحظة، ورسم فى عقله أدق تفاصيلها. تم القبض على هنرى ومحاكمته قبل يومين اثنين من الموعد المقرر لاجتماع لجنة المراقبة.

اختار هنرى السيد كليفتون سميت لتمثيله قانونياً، وهو محام أمسك هنرى دفاتر حساباته على مدى العشرين عاماً الماضية.

أنصت السيد كليفتون سميت خير إنصات لدفاع موكله، مدوناً ملاحظات كثيرة، ولكن عندما وصل هنرى أخيراً إلى نهاية قصته، لم يكن لدى المحامى إلا نصيحة واحدة فقط يسديها له: أن يعترف بالتهمة الموجهة له.

أضاف المحامى قائلاً: "سوف أعمل بالطبع على إطلاع المستشار على أية ظروف خاصة قد تسهم فى تخفيف الحكم". قبل هنرى نصيحة محاميه؛ فعلى كل حال لم يراجع السيد كليفتون سميت، خلال العشرين عاماً الماضية، هنرى فى رأى أو نصيحة، وهكذا بنيت الثقة بينهما.

لم يحاول هنرى أن يتصل بآنجيلا فى أثناء فترة المحاكمة، وعلى الرغم من أن رجال الشرطة كانوا على ثقة تامة من أنها شريكة له فى الجريمة، فسرعان ما أدركوا أنهم كان ينبغي عليهم ألا يقبضوا عليه حتى يصل إلى الكازينو مرة ثانية. من كانت المرأة التى كانت تجلس إلى المشرب؟ هل كانت بانتظاره؟ أمضت وحدة الجرائم الخاصة أسابيع فى جمع أعقاب الشيكات البنكية من الكازينوهات فى طول لندن وعرضها، لكنهم لم يعثروا على شيك واحد محرر باسم السيدة آنجيلا فورستر،

والأكثر مدعاة للحيرة لم يتوصلوا لشيك واحد محرر باسم هنرى برستون. فهل كان يخسر فى المقامرة على الدوام؟ عند مراجعتهم لدفاتر احتفالات أنجيلا، اكتشفوا أن هنرى كان هو المسئول على الدوام عن إحصاء النقود السائلة، وتوقيع إيصالات التسلم. كان حسابها البنكى منتقى من مجموعة من سندات وأسهم لكبرى الشركات، ووجدوا فى رصيدها مبلغ ١١,٣١٨ لا أكثر، مبلغ لم يزد على ذلك أو يقل كثيراً خلال الأعوام الخمسة الماضية. عندما قامت المحققة سيتون بتقديم تقرير واف للأنسة بليينكنسوب بدا أن العجوز على ثقة تامة بأنه قد تم القبض على المتهم المسئول فعلاً عن الجريمة. فعلى كل حال، وكما أخبرت المحققة من قبل، فإنه من المستحيل أبداً أن تتورط واحدة من تلميذاتها وبناتها، خريجات مدرسة سانت كاثرين، فى أمر شائن كهذا.

ولأن قضية اصطياد القاتل الطليق لم تنته بعد، ولأن محاولة إفشال عملية تهريب الهيروين مازالت قيد التنفيذ، فقد أمر كبير المفتشين بإغلاق ملف قضية اختلاس المال من أموال تبرعات مدرسة سانت كاثرين؛ فقد ألقوا بالقبض على متهم، وكان هذا كل ما يهم عند تحرير تقرير الأداء السنوى وإحصاءات الجريمة السنوية.

وبعد أن قبل المستشارون المليون بأنهم لا يمكنهم تعقب أثر أى مال مفقود، نجح محامى هنرى فى التوصل لتسوية بغرض تخفيف الحكم مع النيابة العامة الخادمة لجلالة الملكة. وكانت التسوية كالتالى، إن اعترف بذنبه فى اختلاس مبلغ ١٣٠,٠٠٠ ألف جنيه وأبدى استعداده لرد المبلغ كاملاً للأطراف المتضررة والمعنية، فإن النيابة ستوصى بتخفيف العقوبة.

تساءل القاضى بينما ألقى بنظره نحو الأسفل، حيث يجلس هنرى ومحاميه: "هل هناك ظروف خاصة تدعو لتخفيف

العقوبة فى هذه القضية ترغب فى لفت انتباهنا نحوها يا سيد كاميرون؟".

أجاب ألكس كاميرون، أحد المستشارين الكبار، بينما نهض يتأن من مكانه: "هناك ظروف تدعو لذلك بلا جدال سيدى القاضى؛ فإن عميلى لم يخف إدمانه المخزى للمقامرة، والذى كان وراء سقوطه الأساسى. ومع ذلك"، هكذا واصل السيد كاميرون قائلاً: "أشعر بثقة تامة بأن سيادتكم سوف تضعون فى الحسبان أنها السابقة الأولى لموكلى، وأنه فيما عدا هذه الزلة المؤسفة فى إساءة الحكم كان لوقت طويل وجهاً من وجوه المجتمع الشريف والنبيل بسمعة لا تشوبها شائبة. وحقيقة الأمر، أن موكلى قد ظل لسنوات يقدم خدمته المتفانية لدار العبادة التى يتبعها؛ حيث عمل لها كمحاسب تطوعاً دون أى مقابل، وهو ما سوف تتذكره يا حضرة القاضى عند شهادة رجال الدين المعنيين".

تنحج السيد كاميرون قبل أن يواصل قائلاً: "سيادة القاضى، إنك ترى أمام عينيك رجلاً محطماً ومهزوماً ومفلساً، لم يعد بين يديه شىء يعتمد عليه خلال سنوات الوحدة الطويلة لفترة تقاعده"، ثم أضاف السيد كاميرون مراجعاً ما دونه من ملاحظات: "بل إنه اضطر حتى لبيع شقته فى واندسورث حتى يسدد ما عليه من ديون". توقف قليلاً ثم قال: "لعلك تشعر يا سيادة القاضى بأن موكلى قد عانى بما فيه الكفاية؛ وبناء على ذلك يستحق معاملة رحيمة ومتسامحة"، وابتسم السيد كاميرون فى وجه القاضى ابتسامة آملة، وعاد لموضعه.

نظر القاضى نحو محامى دفاع هنرى، ورد له ابتسامته بمثلها، ثم قال: "لا، ليس بما فيه الكفاية يا سيد كاميرون. وحاول ألا تنسى أن السيد بريستون كان صاحب مهنة محترمة وقد خان الثقة الموكلة إليه، ولكن أولاً دعنى أذكر موكلك"، ثم التفت عن ذلك القاضى نحو هنرى، وواصل يقول: "إن المقامرة

داء عضال، داء ذميم حرمته جميع الشرائع، وأن على المتهم أن يسعى وراء العلاج ما إن يتم إطلاق سراحه من السجن".
تحامل هنرى على نفسه، محتملاً كل هذا التأنيب والتوبيخ، على أمل أن يعرف فى نهاية هذه المحاضرة التى كان فى غنى عنها، المدة التى سيحكم بها عليه القاضى.

لزم القاضى الصمت لبرهة امتدت كأنها الدهر، لكنه واصل تحديق هنرى بنظرته الصارمة، ثم قال: "إننى أحكم عليك بثلاثة أعوام"، ثم أضاف بعد قليل: "اصحبوا السجن للأسفل".

تم نقل هنرى إلى سجن فورد المفتوح. وفى السجن ما من أحد لاحظته حين دخل، وما من أحد انتبه إليه حين خرج. استمر فى وجوده الخفى عن الجميع بداخل السجن كما كان بخارجه. لم يتلق رسائل، لم يجر اتصالات هاتفية أو يستقبل زواراً، وعندما أطلقوا سراحه بعد ذلك بثمانية عشر شهراً، بعد أن أتم نصف المدة، لم يكن هناك أحد ينتظره عند بوابات الخروج، لكى يحييه ويعانقه.

تقبل هنرى برستون مبلغ الخمسة والأربعين جنيهًا الذى يدفع للسجين عند إطلاق سراحه، وشوهد لآخر مرة يتوجه نحو محطة السكة الحديد، حاملاً حقيبته من ماركة جلادستون التى لا تحتوى إلا على ممتلكاته الشخصية، لا غير.

كان كل من السيد والسيدة جراهام ريتشاردز يستمتعان بعيشة رغدة، مثل أى شخص يقضى فترة تقاعده على جزيرة مايوركا الخرافية. كان لديهما فيلا صغيرة تطل مباشرة على خليج بالما، وأثبت كل منهما أنهما موضع حب السكان المحليين.

فى الاجتماع السنوى العام لأعضاء نادى أوفرسيز الملكى فى بالما، قام رئيس النادى بالإعلان بأنه نجح أخيراً فى إقناع

المدير المالي السابق لشركة بترول نيجيرية وطنية كبرى، بأن يكون محاسبًا متطوعًا بدون أجر للنادي. تبع إعلانه هذا إيماءات، وكلمات استحسان، ونوبات من التصفيق الحار. واصل رئيس النادي كلامه مقترحًا بأن يدون سكرتير الاجتماع ملاحظة في مضبطة الجلسة تقول إنه مادام السيد ريتشاردز هو من سيتولى مسئولية الأمور المالية والمحاسبية فسوف تكون حسابات النادي في أدق وأروع حالة ممكنة. ثم أضاف معقبًا: "وبالمناسبة؛ فإن زوجته روث وافقت عن طيب خاطر أن تنظم لنا حفلنا الخيري السنوي".



دلیلِ نسی



قال مايك: "لقد أفلت بجريمة قتل، أليس كذلك؟".
سألته: "كيف أمكنه أن ينجح فى هذا؟".
فقال مايك: "لأنه حين يشهد حارسان فى السجن بأن شيئاً ما قد حدث، فهذا إذن ما قد حدث، ولا يمكن لأى واحد من السجناء أن يخبرك بأى شىء مختلف. أتفهمنى؟".
أجبت قائلاً: "كلا، لست أفهمك".
فقال مايك: "سوف أشرح لك الأمر إذن، هناك قاعدة ذهبية بين السجناء - إياك أن تتودد إلى فتاة زميلك بينما هو ملقى فى السجن؛ فهذا كله جزء من العرف السائد".
"قد يكون أمراً قاسياً على فتاة شابة إذا ما سجن فتاها لفترة طويلة، أن يحكم عليها بالبقاء دون أية علاقات عاطفية خلال نفس العدد من السنوات المحكوم بها على فتاها".
قال مايك: "ولكن المسألة ليست كذلك، لأن بيت قال لكارين بمنتهى الوضوح إنه سوف ينتظرها".
قلت مقترحاً: "ولكنه لن يذهب إلى أى مكان على مدى السنوات الست التالية".
قال مايك: "فاتك مربط الضرس يا زميلى جيف، إنه العرف السائد، ولكى نضى الفتاة حقها لم يكن هناك أى غبار على سلوك كارين خلال أول ستة أشهر، بعدها زلت قدمها وحادت عن الطريق، وهكذا تودد إليها أقرب أصدقاء بيت، وهو براين، الذى كان يتقرب منها لفترة قبل أن ترتبط هى ببيت، فقد كانا معاً، هى وبرائين، أيام المدرسة الإعدادية. لكن هذا لا يدخل فى الحسبان لأن كارين كانت قد رفضت يديها من

الماضى وعلاقاته القديمة ما أن تعرفت على بيت، أتقهمنى؟".
قلت: "أحسب أنتى أفهمك".

"وانتبه جيداً؛ لأن القاعدة لا تنطبق على بيت على اعتبار أنه رجل. إنه المنطق فقط، أليس كذلك؟ لأن الرجال مختلفون. إتنا الأسود، والنساء هن الحملان". أعتقد أن الليوات كانت هى الكلمة الأكثر ملاءمة، ومع ذلك فإننى أعترف أنتى لم أصرح برأى هذا ساعتها. واصل مايك قائلاً: "ومع ذلك، فالقاعدة واضحة كل الوضوح، لا يجب أن يتودد الزميل إلى فتاة زميله بينما يقاسى هذا الزميل ويلات السجن".

وضعت قلمى وواصلت الإنصات إلى تعاليم مايك المقدسة - وهو لص منازل آخر يواصل الدخول إلى السجن والخروج منه كأن أبواب السجن دارة لا تؤدى إلا إليه. قررت أن أتخلى عن أى محاولة لكتابة يومياتى؛ فقد كان من الواضح أن مايك شهيته مفتوحة على الكلام ولن يستطيع أى شىء أن يوقفه - وبالطبع لن أفعل ذلك أنا؛ وبما أن الأبواب قد أغلقت ولا مهرب لى منه، فقد قررت أن أبدأ بتدوين كلماته، ولكننا بحاجة إلى معرفة القليل عنه فى البداية.

كان مايك بويل هو شريك زنزانتى فى سجن لنكولن، وكان يقضى فترة عقوبته التاسعة على مدار السبعة عشر عاماً الماضية، وكلها ناتجة عن سرقة المنازل. كان يتباهى قائلاً: "قد أكون هجماً على البيوت، لكننى لا يمكننى أن ألجأ أبداً إلى العنف، ألا تتفق معى يا زميلى؟" هكذا أضاف، فى محاولة واضحة لى يظهر لى أنه تحلى بأخلاق سامية. أخبرنى أن له ستة أطفال من خمس نساء مختلفات، ولكنه لا اتصال له بأى واحدة منهم حالياً، ولا بد أن الدهشة بدت على وجهى، لأنه أضاف قائلاً: "لا تطلق نفسك يا جيف، فهن وأطفالهن جميعاً تحت رعاية الشؤون الاجتماعية".

واصل مايك حديثه قائلاً: "إن رغب الواحد منا في فتاة يرافقها، فسيجد كثيرات منهن متوفرات دون أن يخرجن مع زميل له إذا ما سجن، وهكذا فالعلاقات العاطفية مثل السجون، تجد هنا يدخل وذاك يخرج، دائماً وأبداً، واحد يدخل والثاني يخرج"، راح يكررها، وهو يضحك على مزحته.

من يلعب دور البطولة في هذه الحكاية، أو دور الشرير، وفقاً لوجهة نظرك فيها، هو صديق مايك واسمه بيت بايلي، وقد حوكم بتهمة سطو خطير وهو ما كشف عن آثام عديدة، وخصوصاً إذا ما طلب من المحكمة أن تضع في الاعتبار، بعد إثبات أنه مذنب، مائة واثنى عشرة جريمة مماثلة لجريمته في صحيفة سوابقه.

"والنتيجة؟ حكم على بيت بستة أعوام في السجن". توقف مايك قليلاً ليلتقط أنفاسه. "ومع ذلك فقد تمكن من قتل أقرب أصدقائه بينما كان بداخل السجن وأفلت بجريمته تلك من العقوبة، أليس كذلك؟".

"هل نجح في ذلك حقاً؟"، سألته وقد بدا على بعض الاهتمام الزائد.

قال مايك: "نعم، بكل تأكيد نجح في هذا، كان صاحبنا يعرف أنه لن يمضي في السجن أكثر من ثلاث سنوات، أي نصف العقوبة، بما أنه كان دائماً يتحول إلى مواطن حسن السير والسلوك ما إن يدخل إلى السجن، أمر منطقي، أليس كذلك؟ وهكذا فبعد أن أمضى خمسة عشر شهراً في واكفيلد - وهو سجن رهيب - أرسلوه إلى خليج هولزلي حيث يوجد أحد السجون المفتوحة في صافولك، أليس كذلك؟ من أجل إنهاء عقوبته. إنه معسكر لعين يشبه معسكرات الإجازات. أتفهم النظرية؟" واصل مايك قائلاً: "النظرية هي أن الغرض من السجن المفتوح هو تأهيلك للعودة إلى المجتمع من جديد. نوع من الأمل. كل ما قام به بيت هو قضاء الوقت بمكتبة السجن

ليقرأ أعداداً من مجلة حياة الريف، التي يتبرع بها للمكتبة فاعلو الخير الحمقى - بحيث يتسنى له أن يعرف مقدماً أى المنازل سوف يسطو عليها ما إن يخرج من السجن". تابع مايك حديثه قائلاً: "والآن هناك قاعدة ذهبية أخرى فى أى سجن مفتوح، وهى أنه مسموح للسجين بزيارة واحدة كل أسبوع، ليس الأمر مثل الزيارة الواحدة شهرياً المسموح لك بها فى السجون المشددة؛ الزيارة الأسبوعية مسموح بها للسجين مادام متميزاً، ولم يتم رفع أى تقرير عنه خلال شهر على الأقل".

تساءلت: "متميزاً؟".

"أى أن السجين يسلك سلوكاً حسناً لمدة ثلاثة شهور على الأقل، وعندما يحدث هذا يصير متميزاً، بمعنى أنه يتمتع بكل أنواع المزايا، مثل قضاء مزيد من الوقت خارج زنزانته، والحصول على وظائف أفضل بالسجن، بل الحصول على أجر أفضل فى بعض السجون".

"وكيف يرفعون عن السجين تقريراً؟".

"هذا أسهل شىء. الكلام النابى فى وجه أى حارس، الوصول متأخراً عن موعد عملك، الكشف عن تعاطيك المخدرات بعد الاختبار. بل إنهم رفعوا عنى تقريراً ذات مرة لسرقتى برتقالة من المطبخ".

سألته: "إذن هل تم رفع أى تقرير عن صديقك بيت؟"

أجابنى مايك: "أبداً. كان سلوكه مثالياً، أليس كذلك؟ لأنه كان يرغب فى زيارة من فتاته، أمضى شهوره الثلاثة يعمل بالمخازن ولم يقرب المخدرات، وهكذا، صار صاحبنا متميزاً. ويوم الأحد التالى ظهرت فتاته فى السجن لزيارته.

فى السجون المفتوحة، تعقد الزيارات فى أكبر القاعات المتاحة، غالباً فى صالة الألعاب الرياضية أو فى المقصف، ولا بد أن تتذكر، الأمن غير متشدد كما هو فى السجون مشددة الحراسة، بكلابهم التى تشمم أى شىء مريب وكاميرات

المراهبة التليفزيونية التى تتبع كل حركة تقوم بها، وهكذا يمكنك فى السجون المفتوحة أن تتصرف على طبيعتك مع فتاتك". توقف قليلاً ثم تابع قائلاً: "طبعاً، فى حدود معينة. أقصد أنك لا تستطيع أن تختلى بها بطبيعة الحال كما يفعلون فى سجون السويد. تعرف ذلك بالتأكيد - ماذا يسمونها هناك؟".

"زيارات زوجية".

"ليكن، المهم أنه اختلاء وهو ما لا يسمحون به هاهنا. أما هنا، فالحارس لن يبالي إذا ما وضع أحد المساجين يده فى يد فتاته، ولكن هذا يذكرنى بموقف جرى فى أحد السجون، عندما..".



ذكرته قائلاً: "نرجع لصاحبنا بيت".

"أوه، صحيح، بيت. على كل حال، أنت كارين لزيارة بيت يوم الأحد التالى. وسار كل شىء على خير ما يرام إلى أن سألتها بيت عن صديقه براين، وهنا توقف تدفق الحديث على لسان

كارين فجأة، ولم تنبس بكلمة واحدة؟ واحمر وجهها مثل ثمرة الطماطم. وفهم بيت حقيقة الأمر على الفور، فهم ما تورطت فيه فتاته، لقد ارتبطت بأعز أصدقائه بينما هو بالداخل. لقد جعلته يستشيط غضبًا، أليس كذلك؟ وهكذا وثب بيت من مكانه وصفعها. تكومت كارين على الأرض. وانطلق الإنذار على الفور وجاء الحراس ركضًا من كل باب. اضطروا لأن يشدوه شدًا بعيدًا عن كارين ويجرجروه حتى غرفة الحبس الانفرادى. هل سبق لك أن جربت الحبس الانفرادى؟

"كلا، لم يسبق لى".

"حسنًا"، سوف أحكى لك عنها. زنازة خالية من أى شىء، حشية للنوم على الأرضية، وحوض اغتسال من حديد مركب فى الجدار ومرحاض من حديد أيضًا لا ماء به، وفى اليوم التالى رفع تقرير عن بيت، ومثل أمام مأمور السجن، ولا بد ألا تنسى أن مأمور السجن له سلطة بلا حدود؛ فهو ليس بحاجة إلى قاض أو هيئة محلفين لمساعدته فى إقرار ما إذا كان المتهم مدنيًا أم لا - فقوانين وزارة الداخلية تكفيه تمامًا".

"وما الذى حدث لبيت إذن؟"

"عاد إلى السجن المشدد الحراسة، وتم شحنه إلى سجن لنكولن فى اليوم ذاته، بعد إضافة ثلاثة شهور أخرى إلى فترة عقوبته. بعض المساجين، عندما يعودون إلى السجن المشدد الحراسة يفقدون أعصابهم، ويبدأون فى تكسير المكان كله، ويتعاطون المخدرات، ويشعلون النيران فى زنازينهم؛ بحيث إنهم لا يخرجون من السجن أبدًا نظرًا لتمديد فترة عقوبتهم على الدوام. لقد سجننت ذات مرة مع واحد من هؤلاء الحمقى فى ليفربول. بدأ بفترة عقوبة ثلاث سنوات وهو مازال مسجونًا - وقد مرت الآن إحدى عشرة سنة. فى آخر مرة مثل فيها أمام مأمور السجن...".

قلت له محاولاً ألا أبدو ساخطًا: "لنرجع إلى بيت".

"آه، صحيح، بيت. لكن بيت على عكس هؤلاء الحمقى سار في الاتجاه المعاكس".

"الاتجاه المعاكس؟".

"بينما كان مسجوناً في سجن لنكولن كان مستقيماً ونظيفاً تماماً، وبعد مضي ثلاثة شهور صار متميزاً من جديد، واستعاد كل المزايا التي كان قد خسرها. حصل على عمل بالمطبخ، وكان يكدح مثل العبيد، وبعد ستة شهور قدم طلباً ليسمحوا له باستقبال زوار وأجيب إلى طلبه، باستثناء ألا تكون الزائرة هي كارين سلاتر، وعلى كل حال لم يكن يرغب بالمرّة في رؤية تلك المنحلة مرة أخرى. كلا، فهذه المرّة طلب بيت زيارة من أحد أصدقائه القدامى والذي كان بخارج السجن في ذلك الحين. وهكذا فإن هذا الصديق أكد له علاقة كارين وبرايين، ليس هذا وحسب بل أخيره أنها انتقلت لتعيش معه في بيته، بينما بيت وراء القضبان في لنكولن. قال مايك: "يالها من امرأة وقحة، بل إن صديق بيت سأله عما إذا كان يريد أن يقتل براين، لكن بيت قال له: "كلا، انس هذا تماماً، سوف أعتني به بنفسى، كل شيء بأوان". لكنه لم يخض بالمرّة في أى جزئية تتعلق بما يخطط له، على اعتبار أنه في النهاية دائماً ما يفتح شخص ما فمه بكلمة تفضح المستور، وهو ما يحدث في الشئون السياسية يا جيف".

"بيت".

"حسناً، استمر بيت مستقيم السير وحسن السلوك. فراشه هو الأنظف على الإطلاق، يعمل طوال ساعات العمل المفروضة، يتجنب الكلمات النابية في حديثه مع الحراس، ببساطة لم يرفع عنه تقرير واحد. والنتيجة؟ بعدها باثني عشر شهراً عاد إلى السجن المفتوح بخليج هولسلى، ولم يعد يتبقى من فترة عقوبته أكثر من تسعة أشهر".

"وحيث عاد إلى سجن خليج هويسلى، هل سعى للتواصل مع كارين؟"

"لا، لم يقدم طلباً للزيارة. الحقيقة أنه حتى لم ينطق اسمها بلسانه".

سألته، محاولاً أن أقلد اللغة الاصطلاحية للسجناء والمجرمين: "إذن ما كانت لعبته يا صاح؟"

"لم يكن فى عقله إلا لعبة واحدة يا جيف، كان كل ما يريد هو أن ينتقل إلى الجانب الآخر من السجن، أى المبنى الخاص بالسجناء الموثوق بهم".

اعترفت قائلاً: "لقد اختلط على الأمر فى هذه النقطة".
"كل هذا ليس إلا جزءاً من خطته المحكمة، أليس كذلك؟
عندما يدخل السجن أول الأمر إلى سجن مفتوح يتم تسكينه بغرفة فى أحد المبنيين الأساسيين".
"وهل سجنتم هناك؟"

"نعم، إما المبنى الشمالى أو الجنوبى. ولكن إن صرت متميزاً، وموثوقاً بك - وهذا معناه ثلاثة شهور أخرى من التزام حسن السير والسلوك وكأنك المواطن المثالى - عندئذ ينقلونك إلى مبنى السجناء الموثوق بهم، وهو ما يمنحك المزيد من المزايا".

"مثل ماذا؟"

"يمكنك أن تتلقى زيارة من صديق كل يوم أحد. لم يكن بيت مهتماً بهذا، ويمكنك أن تعود لمنزلك لتتقضى يوم الأحد مرة كل شهر - ولم يكن بيت مهتماً بذلك أيضاً. يمكنك أن تلتحق بوظيفة خارج السجن خلال أيام الأسبوع - مازال صاحبنا غير مهتم، حتى على الرغم من أن هذا سيكفل له كسب بعض الجنيهات الإضافية قبل أن يطلق سراحه".

سألته: "ولكن لماذا يتجشم المرء عناء الحصول على كل تلك المزايا مادام غير مهتم بها؟"

"ألم يكن الانتقال نفسه جزءاً من خطته المحكمة؟ أليس كذلك؟ مشكلتك يا جيف أنك لا تفكر كما يفكر المجرمون".
"إذن لماذا كان بيت متلهفًا لهذه الدرجة للانتقال إلى مبنى السجناء الموثوق بهم؟".

"طرحته سؤالاً جيداً أخيراً يا جيف، ولكن من أجل الإجابة عنه ستكون بحاجة لبعض المعلومات. كان بيت قد تبين بالفعل أنهم فى المبنى المخصص للسجناء الموثوق بهم ليس لديهم إلا خمسة حراس فقط على مدار اليوم، ولكن فى الليل يكون هناك حارسان اثنان فقط، على اعتبار أن السجنين الذى وصل لهذا المبنى هو من الموثوق بهم ولا غبار عليه، ناهيك عن أن السجن يعانى من قلة عدد الحراس أساساً، ولا تنس التالى، فى السجن المفتوح لا وجود لزنائين ولا قضبان ولا مفاتيح ولا أسوار خارجية، وهكذا يمكن لأى شخص أن يلوذ بالفرار".
سألته: "ولماذا لا يهرب السجناء إذن؟".

"ليس هناك الكثير من السجناء الذين ينزعون للهرب بعد أن وصلوا لسجن مفتوح".
"ولم لا؟".

"ليس هناك ما يدعو لذلك؛ فقد اقتربوا من نهاية تنفيذ فترة عقوبتهم، كما لو أنه قبض عليهم بعد أن هربوا، وهؤلاء المغفلون يتم القبض عليهم بنسبة تسعة من كل عشرة يحاولون الهرب، فسوف يرسلون مباشرة إلى سجن مشدد الحراسة مع وقت زائد أضيف لفترة عقوبتهم. وعلى هذا انس الأمر؛ لأنه لا يستحق المحاولة. إننى أتذكر سجيناً اسمه ديل، كان مغفلاً كبيراً. لم يكن أمامه إلا ثلاثة أسابيع وينهى تنفيذ فترة عقوبته، عندما حاول أن..".

قلت له من جديد: "بيت".

"أنت نافذ الصبر بطريقة ساذجة، كما لو أن وراء كل منا مواعيد يجب اللحاق بها. أين كنا على أية حال؟".

قلت بعد أن راجعت ملاحظاتي: "حارسان فقط في المناوبة خلال الليل في مبنى السجناء الموثوق بهم".

"نعم، صحيح. ولكن حتى في مبنى السجناء الموثوق بهم عليك أن تسجل حضورك في الساعة صباحًا ومرة أخرى في التاسعة مساء كل ليلة. والآن فإن بيت وكما أخبرتك حصل على عمل في مخازن السجن، يسلم المساجين الجدد الملابس، ويزود السجناء العاديين بالمفارش والبياضات مرة كل أسبوع، وهكذا كان الحراس يعرفون مكانه على الدوام، وهو ما كان كله جزءًا من خطة بيت المحكمة، ولكن إن لم يسجل حضوره للمكتب الأمامي في الساعة صباحًا ثم مرة أخرى في التاسعة ليلاً، فسوف يرفع عنه تقرير؛ مما سيكون معناه أنهم سوف يرسلونه من جديد إلى المبنى الشمالي بدون أية مزايا حققها؛ لذا فإن بيت لم يُفوّت نداء لتسجيل الحضور ولو مرة واحدة، وكانت زنزانته دائماً غاية في الترتيب والنظافة، ودائماً ما يطفىء النور فيها قبل الموعد المحدد في الحادية عشرة مساء بوقت طويل".

"كل هذا كان جزءًا من خطته المحكمة؟"

قال ميك: "أنت سريع البديهة، غير أن بيت واجهته عندئذ عقبة - أهذه هي الكلمة الصحيحة يا جيف، عقبة؟"، أو مات له برأسي، لكي لا أقاطع تدفقه في الحديث. "خلال الليل، كان من المفترض بأحد الحراس أن يسير في أنحاء المبنى عند الواحدة صباحًا، ويعود من جديد في الرابعة صباحًا؛ ليتأكد من أن كل سجين نائم في فراشه. كل ما كان على الحراس أن يفعلوه هو رفع ستائر الباب الخارجي، والنظر من خلال الحاجز الزجاجي وهم يمرون بمصباح يدوي مضاء على الفراش ليتأكدوا من أن السجناء يغط في نومهم. هل سبق أن حكيت لك عن السجناء الذي ضبط ذات مرة في فراشه ومعه...".

قلت: "بيت"، دون أن أرفع عيني حتى نحو مايك.

"كان بيت بيقى مستيقظاً في فراشه إلى أن يأتي الحارس عند الواحدة صباحاً ليتأكد من أنه بغرفته. يرفع الحارس الستائر، يضيء المصباح اليدوي ويوجهه نحو فراش السجين ثم يعود من حيث أتى. كان بيت يعود للنوم عندئذ، ولكنه يضبط الساعة المنبهة الخاصة به على الرابعة إلا عشر دقائق بحيث ينفض عندها الروتين نفسه. وعند الرابعة صباحاً كان يظهر على الدوام حارس آخر ليتأكد من أن كل سجين نائم في فراشه. اقتضى الأمر من بيت أكثر من شهرين ليكتشف أن هناك حارسين، وهما السيد تشامبرز والسيد دافيز، لا يتجشمان عتاء القيام بالجولة الليلية للتأكد من أن جميع المساجين نائمون في أسرّتهم. اعتاد تشامبرز أن ينام نوماً عميقاً، أما دافيز فلم يكن بمقدوره أن ينزع نفسه من أمام شاشة التلفاز. بعد ذلك كان كل ما تبقى على بيت القيام به هو الانتظار حتى يكون هذان الاثنان في مناوبة واحدة خلال الليلة نفسها".

وهكذا وقبل موعد إطلاق سراح بيت بنحو ستة أسابيع، عاد لمبنى السجناء الموثوق بهم من عمله ليكتشف أن حارسى المناوبة لتلك الليلة هما تشامبرز ودافيز. عندما أعلن بيت حضوره ووقع في الدفتر الساعة التاسعة مساءً، كان السيد تشامبرز بالفعل يشاهد مباراة كرة قدم على شاشة التلفزيون، وكان السيد دافيز رافعاً ساقيه على منضدة أمامه، بينما يحتسى الكوكا ويقرأ الصفحات الرياضية لجريدة الصن. صعد بيت إلى غرفته، وشاهد برامج التلفاز لما بعد العاشرة مساءً بوقت قليل، ثم أطفأ ضوء غرفته. دخل فراشه وجذب البطانية عليه، ولكنه بقى بجله التمرينات والحذاء الرياضى. انتظر حتى تجاوزت الساعة الواحدة ببضع دقائق ثم تسلل إلى الردهة وتأكد من أنه لا وجود لأحد - ولا أى أثر للسجين المحترمين تشامبرز ودافيز، وعندئذ سار حتى نهاية الردهة، وفتح باب

مهرب الطوارئ، واختفى هابطاً السلالم، تاركاً إسفيناً من
الورق فى حلق الباب، قبل أن يقطع رحلة من ثمانية أميال
حتى وودبريدج.



لا أحد يعرف على وجه التحديد فى أى ساعة عاد بيت تلك
الليلة، لكن المؤكد أنه قد وقع فى تقرير الحضور عند الساعة
من صباح اليوم التالى. لقد وضع السيد تشامبرز علامة أمام
اسمه، وعندما اختلس بيت نظرة إلى أوراق الحارسين، كانت
الأعمدة الأربعة أمام اسمه بها علامة فى كل خانة من الخانات
- عند التاسعة، والواحدة والرابعة والسابعة. تناول بيت إفطاره
فى المقصف ثم سجل حضوره فى المخازن ليتابع عمله.
"وهكذا أفلت بجريمته؟"

قال ميك: "ليس تماماً، فى وقت لاحق من ذلك الصباح
ظهر حراس كثيرون فى السجن وبدأوا يزحفون هنا وهناك،
دون أن يكونوا مهتمين بالعثور إلا على رجل واحد. وانتهى
بهم الأمر فى المخازن، وقبضوا على بيت وأخذوه خارج السجن

للتحقيق معه. ظلوا يستجوبونه على مدى ساعات عن مقتل كل من براين باول وكارين سلاتر، اللذين عثر عليهما مخنوقين في فراشهما. لم يفلحوا في دفع بيت للنطق بأكثر من سطر واحد تمسك به وراح يردده باستمرار: "لا يمكن أن أكون أنا الفاعل يا سيادة المأمور. لقد كنت في السجن في ذلك الوقت. ما عليك إلا أن تسأل الضابطين، السيد تشامبرز والسيد دافيز، اللذين كانا في المناوبة ليلتها". قام الشرطي المستول عن القضية بزيارة المبنى المخصص للسجناء الموثوق بهم وراجع دفاتر تسجيل حضور السجناء. تم قتل براين وفتاته في وقت ما بين الثالثة والخامسة، تبعًا للطبيب الجنائي، وعلى هذا فإن كان الضابط تشامبرز قد رأى بيت نائمًا في فراشه عند الساعة الرابعة صباحًا، فلا يمكن له أن يكون في وودبريدج في التوقيت نفسه، أليس كذلك؟ مسألة منطوق، أليس كذلك؟



"وتم إجراء تحقيق مستقل بمعرفة وزارة الداخلية البريطانية. وقد شهد كل من السيدين المحترمين تشامبرز

ودافيز بأنهما قد تحققا من وجود كل سجين مرة عند الواحدة صباحًا ومرة أخرى عند الرابعة صباحًا، وفى الوقتين كان بيت نائمًا فى غرفته، وكان مما أسعد سجناء كثيرين آخرين أن يتقدموا للإدلاء بشهاداتهم فى التحقيق ويؤكدوا بلا أدنى شك أنهم استيقظوا من نومهم عند مرور ضوء المصباح اليدوى عليهم، وذلك عند قيام كل من تشامبرز ودافيز بجولتيهما. مما قوى من موقف دفاع بيت. وهكذا توصل التحقيق إلى أن بيت لا بد أنه كان فى فراشه عند الواحدة صباحًا وعند الرابعة صباحًا فى الليلة المعنية، وهكذا لا يمكن أن يكون قد ارتكب جريمتى القتل".

كررت قولى: "وهكذا أفلت بجريمته".

فقال مايك: "هذا يعتمد على ما تقصد بقولك أفلت بجريمته؛ لأنه على الرغم من أن الشرطة لم تستطع بالمرّة أن توجه هذا الاتهام لـ "بيت"، فإن الشرطى المسئول عن القضية فيما بعد قدم تقريراً يقول فيه إن التحقيقات قد أخلقت، بما أنه لا يوجد أى شخص آخر يمكنهم التحقيق معه انتبه لهذه العبارة. وهو ما لم يكن نقطة بيضاء فى السجل الوظيفى لكل من تشامبرز ودافيز؛ وعلى هذا فقد انتويا أن يسوما بيت سوء العذاب".

ذكرت مايك قائلاً: "ولكن بيت كان أمامه ستة أسابيع فقط من فترة عقوبته قبل أن يطلق سراحه، وكان دائماً حسن السير والسلوك".

"صحيح، غير أن حارساً آخر، وهو صديق لـ دافيز، رفع تقريراً بأن بيت قد سرق سروراً من الجينز من المخازن قبل موعد إطلاق سراحه بأيام قليلة، وتم اقتياد بيت إلى الحبس الانفرادى وأعادته مأمور السجن إلى السجن مشدد الحراسة فى لنكولن فى الليلة نفسها، وقبل موعد تقديم الشاى، مع حكم بثلاثة شهور أخرى تضاف لفترة عقوبته".

"وهكذا انتهى به الأمر أنه قضى ثلاثة شهور أخرى في السجن؟".

قال مايك: "نعم، ولكن هذا حدث قبل ستة أعوام، وما زال بيت حتى يومنا هذا مسجوناً في سجن لنكولن مشدد الحراسة".

"ولكن كيف تمكنوا من...؟".

"كان الحراس يعرفون كيف يبتكرون له تهماً جديدة كل بضعة أسابيع، وكلما رفع عن بيت تقرير أمام الأمور أضاف هذا ثلاثة شهور أخرى إلى فترة عقوبته. وأراهن أن بيت سوف يقضى ما تبقى من عمره سجيناً في لنكولن".

سألته: "ولكن كيف يفلتون بذلك؟".

"كأنك لم تسمع أى شيء مما قلته لك يا جيف، قلت لك إنه حين يشهد حارسان في السجن بأن شيئاً ما قد حدث، فهذا إذن ما قد حدث، ولا يمكن لأى واحد من السجناء أن يخبرك بأى شيء مختلف. أتفهمنى؟".

أجبت: "أفهمك".



فى يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ صدرت التوصية رقم ٤٧ لعام ٢٠٠٢ والتي تنص على حكم المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان فى قضية إزيه وكونورز كالتالى: عندما يكون الجرم الذى يرتكبه أحد السجناء فى السجن شديداً لدرجة تؤدى إلى إضافة أيام أخرى إلى

جيفرى آرشر

فترة عقوبته، فإنه تسرى عليه الحماية المتضمنة فى البند رقم ٦ من الميثاق الأوروبى لحقوق الإنسان. أى إنه لابد من عقد جلسة نظر للدعوى من قبل محكمة جزئية مستقلة، ومن حق السجناء تلقى العون القانونى فى تلك الجلسات.

تم إطلاق سراح بيت بايلى من سجن نكولن فى ١٩ أكتوبر

.٢٠٠٢

مأساة يونانية



نعرف جميعاً حكاية حصان طروادة، الهدية الجميلة التي تخفى فى باطنها شراً وبيلاً، وهكذا نحذر من الهدايا اليونانية، ولكن جورج تساكيريس لم يكن واحداً من هؤلاء اليونانيين الذين يخشى المرء من تقبل هداياهم.

كان جورج محظوظاً بما يكفى ليقضى نصف عمره فى لندن ونصفه الآخر فى موطنه أثينا. كان هو وأخواه الأصغر سناً، نيقولا وأندرو، يديرون شركة إنقاذ ناجحة بشكل كبير، وهى الشركة التى ورثوها عن أبيهم.

التقيت أنا وجورج لأول مرة قبل سنوات عديدة فى أثناء حفل خيرى لمساعدة الصليب الأحمر. وكانت زوجته كريستينا ضمن أعضاء اللجنة المنظمة، وقد دعتنى لأشرف على البيع بالمزاد.

وفى كل مزاد خيرى قمت بإدارته على مدى السنوات، كان هناك سلعة أو شىء ما لا يمكنك أن تجد له مشترياً، ولم تكن تلك الليلة استثناء فى ذلك؛ ففى هذه المناسبة، تبرع عضو آخر من أعضاء اللجنة المنظمة بلوحة زيتية تصور منظرًا طبيعيًا رسمتها ابنته دون مهارة ولا تليق أن تباع فى مزاد مثل هذا. وقبل أن أصعد إلى المنصة وأفتش فى أرجاء القاعة عن سعر لبداية المزايده بوقت طويل، شعرت بأن المشتريين سوف يتخلون عنى جميعاً مرة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك فإننى لم أضع سخاء جورج فى الحسبان.

تساءلت على أمل: "هل نفتح المزاد بألف جنيهه؟" لكن أحدًا لم يهب لنجدتى. كررت قولى فى محاولة ألا أبدو يائسًا كل اليأس من بيعها: "ألف جنيهه؟" وحين أوشكت تمامًا على التخلي عن المحاولة، ارتفعت يد مثل طوق نجاة وسط بحر من حلل السهرة الرجالية السوداء. كانت يد جورج.

قلت مقترحًا: "ألفان" غير أن أحدًا لم يكن مهتمًا باقتراحى. "ثلاثة آلاف" قلتها هذه المرة وأنا أنظر مباشرة نحو جورج، ومرة أخرى ارتفعت يده. أعلنت عندها فى ثقة: "أربعة آلاف" غير أن ثقتى كانت قصيرة الأجل، فعدت لانتبه مرة أخرى نحو جورج. طالبت قائلاً: "خمسة آلاف"، ومن جديد أذعن لاقتراحى، وعلى الرغم من أن زوجته عضوة باللجنة المنظمة فقد شعرت بأن فى هذا ما فيه الكفاية. أعلنت قائلاً: "بيعت القطعة بخمسة آلاف، للسيد جورج تساكيريس" فعلا التصفيقُ وظهرت نظرة ارتياح على وجه زوجته كريستينا.



وهكذا فإن جورج المسكين، أو لتحرى الدقة جورج الثرى، كان يأتى بانتظام لإنقاذى فى مثل تلك المواقف، وكثيراً ما كان يشتري أشياء سخيفة، لا يكون عندى أمل فى الوصول حتى لسعر مناسب لفتح المزاد عليها. يعلم الله وحده كم من المال أرغمت الرجل على دفعه باسم المزادات الخيرية.

العام الماضى، دفعته ل شراء تذكرتى سفر إلى أوزبكستان، زائد تذكرتين من الدرجة الاقتصادية مقدمتين هدية مجانية على شركة طيران إيروفلوت، وبعد المزاد شقت طريقى إلى طاولته لأشكره على جوده وكرمه.

جلست إلى جانب جورج الذى قال لى: "لا داعى للشكر، فما من يوم واحد يمر بى دون أن أتذكر كم كنت شخصاً محظوظاً وسعيد الطالع، وكم أنا محظوظ لمجرد أنى مازلت حياً حتى الآن".

شممت فى كلامه رائحة قصة، فسألته: "محظوظ لأنك مازلت حياً؟"

اسمحو لى عند هذه النقطة أن أشير إلى أن المقولة المعروفة والثرية بأن حياة كل منا كتاب ممتع فكرة خاطئة. ومع ذلك فقد تقبلت على مدار الأعوام أن أغلب الناس قد عاشوا حدثاً واحداً على الأقل خلال حياتهم يعد حدثاً فريداً حقاً، ويصلح تماماً لصياغته فى قصة قصيرة، ولم يكن جورج استثناء فى هذا. كررت متسائلاً: "محظوظ لأنك مازلت حياً؟".

مسئولية الشركة التجارية مقسمة بالتساوى تماماً بين جورج وأخويه: جورج يدير مكتب لندن، فى حين يبقى نقولاس فى أثينا؛ مما يتيح لآندرو أن يتجول فى أنحاء العالم كلما كان أحد زبائنهم غارقاً ويحاجة لمساعدته على أن يبقى طافياً على وجه الماء.

وعلى الرغم من أن جورج كان يمتلك مؤسسات فى لندن،
ونيو يورك، وفى سان بول دوفينس بمدينة فينيسيا، فقد كان
لا يزال يرجع بانتظام إلى أرض الأسلاف العظام؛ بحيث يبقى
على اتصال بفروع شجرة العائلة الضخمة. هل سبق لك أن
لاحظت كيف أن الأشخاص الأثرياء دائماً ما تكون لديهم
عائلات ضخمة ومتشعبة؟

فى حفل عقد مؤخراً لصالح الصليب الأحمر، فى
دورشيستر، لم يهب أحد لنجديتى عندما عرضت أحد قمصان
اللعبة لفريق ليوتر البريطانى للرجبى، قميص وقع عليه
جميع لاعبي الفريق الذين عادوا توأ من رحلتهم إلى نيوزلندا
مكلمين بالهزيمة. لم أستطع أن أرى جورج فى أى موضع، بما
أنه كان قد عاد لأرض أجداده من أجل حضور حفل زواج إحدى
بنات العمومة المقربات منه. ولولا الحادثة الغريبة التى جرت
فى حفل الزفاف ذلك لما تمكنت من رؤية جورج بعد ذلك أبداً.
وبطبيعة الحال لم أتمكن فى ذلك المزد أن أحصل على سعر
افتتاح لقميص لعب فريق ليوتر المهزوم.

كانت ابنة أخ جورج، واسمها إزابيلا، تعيش فى سيفالونيا؛
إحدى أجمل الجزر اليونانية التى تبدو كأنها جوهرة ثمينة
فى البحر الأيونى. كانت إزابيلا قد أغرمت بشاب، هو ابن
لأحد زارعى الكروم من أبناء البلد، وقد توفى أبوها منذ
زمن. وعرض جورج أن يستضيف المدعويين ويعقد لهم حفل
الاستقبال، الذى كان من المفترض عقده فى منزل العروس.

فى إنجلترا جرى العرف أن يدعى الأقارب والأصدقاء
لحضور مراسم عقد الزواج ثم يتبع ذلك حفل الاستقبال،
الذى غالباً ما ينظم بداخل سرادق كبير فى فناء منزل والدى.
وعندما لا يكون فناء المنزل كبيراً بما يكفى فإن الاحتفال ينتقل
لنادى القرية أو قاعة البلدية الخاصة بها، وبعد إلقاء الخطب
الرسمية وبعد انقضاء فترة معقولة من الوقت يغادر العريس

مأساة يونانية

والعروس إلى حيث سوف يقضيان شهر العسل، وبعد أن يغادرا بوقت قليل ينصرف المدعوون كل إلى بيته.

أما بالنسبة لليونانيين، فإن مغادرة حفل قبل انتصاف الليل ليس مما جرى به العرف عندهم؛ فهم يفترضون أن أي احتفال فيه مرح وقصص ولهو بعد عقد مراسم الزفاف لابد أن يستمر حتى مطلع الفجر، في الصباح التالي على الأقل، وخصوصاً إن كان العريس من مالكي مزارع الكروم. وعندما يتزوج اثنان من أبناء البلد بإحدى الجزر اليونانية، تسرى الدعوة للعرس بين السكان المحليين سريان النار في الهشيم، دون أن يضطر أي من العائلتين لدعوتهم رسمياً؛ فإن المتطفلين على حفلات الزفاف كما نعرفهم هنا في إنجلترا هو مصطلح غير موجود في قاموس العادات الاجتماعية هناك؛ فأم العروس ليس عليها أن تكلف نفسها عناء إرسال بطاقات الدعوة المذهبة الحواف مع كلمات حارة تهيب بالمدعوين أن يلبوا دعوتها في الركن الأدنى على يسار بطاقة الدعوة، وهذا لسبب بسيط تماماً؛ لن يتجشم أحد عناء الإجابة على بطاقة الدعوة بالهاتف أو البريد، لكنهم سوف يحرصون على الحضور كل الحرص، ببطاقة دعوة أو بدوتها.

وثمة اختلاف آخر بين الأمتين العظميين هو أنه هناك ليس من الضروري أن تؤجر سرادقاً كبيراً أو تؤجر قاعة دار البلدية للاحتفال، لأنه من غير المحتمل أن تسقط الأمطار فوق رؤوسهم في حفل عرس، وخاصة في وسط الصيف - الذي يستمر حوالي عشرة شهور. أي شخص يمكنه أن يصير متخصصاً في الأحوال الجوية في اليونان.

اقترحت كريستينا على زوجها جورج، في الليلة السابقة على حفل الزفاف مباشرة، بما أنه سيكون هو المضيف فمن الحكمة بالنسبة له أن يحافظ على صحوه ووعيه حتى نهاية الحفل، وأضافت أنه لابد من وجود شخص يحتفظ بعين يقظة

على مجرى الأمور، وخاصة عند وضع مهنة العريس وأهله كمزارعين للكروم في الاعتبار. وافق جورج على رأيها على مفضل.

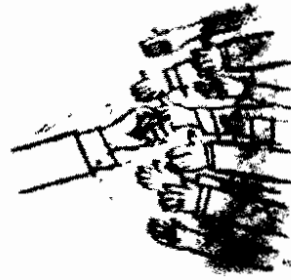
عقدت مراسم عقد الزفاف في دار عبادة صغيرة بالجزيرة، وقد اكتظت المقاعد بالمدعوين وغير المدعوين من الضيوف، قبل النطق بالعهد بوقت طويل. وبدماثته ولطفه المعهودين تقبل جورج في نفسه فكرة أنه بصدد أن يضيف ويرحب بجمع أكبر من ذلك الحشد قليلاً. راح يراقب ابنة أخيه الشابة ترتبط برباط الزواج مع الفتى الذي أحبته واختارته، وعلى الرغم من اختفاء إزابيلا تحت وشاح من دانتيل بيضاء، فإن جمالها معروف من قبل كل شباب الجزيرة. كان خطيبها والذي سيصبح زوجها عما قليل، أليكس كالكونديس، طويلاً ونحيفاً، وكان خصمه النحيل لا يبدي أى دليل على أنه سوف يكون وريثاً لمزرعة كروم.

وبالنسبة لمراسم عقد الزواج، يلتقى الإنجليز واليونانيون هنا لبرهة قصيرة ولكن سرعان ما يفترقون من جديد؛ فقد أقام المراسم رجل دين ملتج اكتسى بلباس دينى ذهبى اللون واعتمر قبعة طويلة سوداء. العبير حلوا الرائحة الذى تطاير من المباخر والمجامر سرى عقبه فى أرجاء دار العبادة، بينما رجل دين آخر يرتدى أكثر العباءات زخرفة وله أطول نحية بين الآخرين يتراأس مراسم عقد الزواج، مع مصاحبة أناشيد وأدعية.

كان جورج وزوجته كريستينا من بين أوائل من غادروا دار العبادة بمجرد انتهاء المراسم؛ لأنهما أرادا أن يعودا إلى المنزل فى وقت مناسب بحيث يرحبان بأول من يصل من الضيوف.

كان المنزل الريفى القديم لأهل العروس يربض على منحدرات تل فوق الأراضى المنبسطة للكروم؛ كان البستان الفسيح والمحاط بأيكات الزيتون المستعملة كمصاطب مرتفعة،

ممثلًا بمن يغمفون بأصابع
الأمنيات للعروسين قبل وقت
طويل من وصول العروسين.
اضطر جورج لصافحة أكثر
من ألقى يد، قبل أن يظهر
الزوجان الجديدان، السيد
كاثكانديس وحرمه، وقد أعلن
وصولهما مجموعة كبيرة من
أصدقاء العريس الأجلاف



ممن طفقوا يطلقون الرصاص من مسدساتهم الصغيرة في
الهواء، على سبيل التحية والاحتفال؛ وهي عادة يونانية أشك
في أنها قد ارتحلت إلى أحد أفنية الريف الإنجليزي، وبإلطبع
لم نشهدها في دار بلدية بأى قرية.

إذا استثنينا أفراد العائلة المباشرين وأولئك الضيوف
المنتقنين ليجلسوا إلى مائدة الصدارة بجانب مربع الرقص؛
ففي حقيقة الأمر ومن بين كل الضيوف لم يكن هناك إلا قلة
قليلة قد رأهم جورج من قبل ولو لمرة واحدة.

اتخذ جورج مجلسه في وسط مائدة الصدارة، وإزابيلا عن
يمينه وألكس على يساره، وما إن جلس الجميع حتى بدأ تقديم
الطعام صنفاً بعد آخر من الأطباق المحملة التي وضعت أمام
الضيوف، وتدفق شراب الكروم كما لو أن اليونان قد عادت في
طرفه عين إلى سالف مجدها في العصور القديمة، حين كانت
تتدفق أنهار الشراب في احتفالات الانتصارات.

ومن بعيد دقت ساعة دار البلدية الحادية عشرة مساءً،
وعندئذ أوما جورج للإشبين بأنه قد يكون هذا هو الوقت
المناسب لإلقاء كلمته. وبخلاف جورج، كان الإشبين نفسه قد
صار متبعاً، ولا شك أنه نسي كل ما قاله في تلك الخطبة
القصيرة من كلمات في الصباح التالي مباشرة. وتلا الإشبين

العريس نفسه، وعندما حاول أن يعرب عن حظه السعيد بفوزه بفتاة جميلة، تواب أصدقاؤه الحمقى من جديد فوق مربع الرقص وأطلقوا المزيد من الطلقات في الهواء.

كان جورج هو آخر المتحدثين؛ ولأنه كان مدركاً لتأخر الوقت، والنظرة المتبعة في عيون ضيوفه، والزجاجات نصف الممتلئة المتناثرة على الطاولات، اكتفى بأن يتمنى للعروسين حياة مباركة، وهي تعبير ملطف في اللغة اليونانية عن الرفاء والبنين. وعندئذ دعا هؤلاء الذين مازالوا قادرين على النطق بأمنية أن يتمنوا معه للعروسين أطيب التمنيات. وصاح الجميع بصوت واحد تقريباً: إزابيلا وأليكس.

وما إن هدأ هدير التصفيق والتهليل حتى بدأت الفرقة الموسيقية عزفها. ونهض العريس من مكانه على الفور، والتفت نحو عروسه وطلبها للرقصة الأولى. خطا العروسان الجديدان إلى مربع الرقص، مصحوبين بوابل جديد من الطلقات، وتبعهما والدا العريس، وما هي إلا دقائق حتى انضم إليهم جورج وكريستينا.

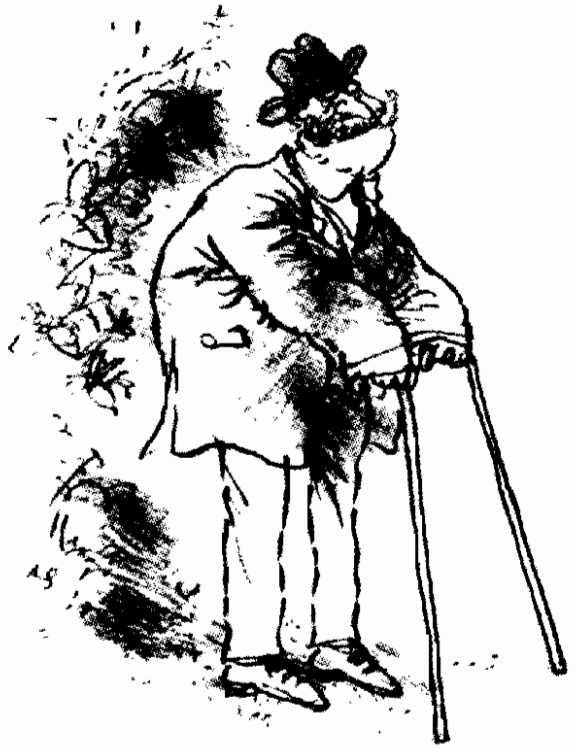
بعد أن راقص جورج زوجته، ورقص العروسان، عاد إلى حيث يجلس في المقعد المركزي من مائدة الصدارة، وهو يصافح المزيد من الأيدي على طول طريقه من الضيوف الكثيرين الذين نثروا أمنياتهم الطيبة من أفواههم.

وبما أن جورج قد أدى كل واجباته الرسمية في الاحتفال فقد كان يصب لنفسه أخيراً كأساً من الشراب، وفي هذه اللحظة ظهر الرجل العجوز.

نهض جورج واقفاً على الفور لحظة أن رأى الرجل العجوز يقف بمفرده عند مدخل البستان. أعاد كأسه لموضعها على الطاولة وسار بهمة وبسرعة عبر الباحة ليرحب بالضيف غير المتوقع.

مأساة يونانية

كان أندرياس نيكولاديس ينحني بشدة على عصا المشي الخاصة به. انزعج جورج من التفكير في الطريق الطويل الذي توجب على العجوز أن يقطعها صاعداً الطريق من كوخه الريفي الصغير في منتصف طريق الجبال. انحنى جورج خافضاً رأسه للأسفل وقدم التحية للرجل العجوز؛ ذلك الرجل الذي كان يعد أسطورة في جزيرة سيفالونيا وكذلك أسطورة في شوارع أثينا كلها، على الرغم من أنه لم يغادر الأرض التي ولد عليها ولو لمرة واحدة، وعندما كان الناس يسألون أندرياس لماذا لم يغادر موطنه أبداً، كان يجيب بكل بساطة: "الوطن هو جنة الله على الأرض، فمن ذا الذي يطمح لمغادرة جنة الأرض إلا ليصعد إلى جنة السماء".



فى عام ١٩٤٢، عندما احتل الألمان جزيرة سيفالونيا، هرب أندرياس إلى التلال وصار زعيمًا لحركة المقاومة، وهو فى الثالثة والعشرين من العمر، وعلى مدى الاحتلال الطويل للجزيرة لم يغادر تلك التلال أبدًا، وعلى الرغم من المكافأة الضخمة التى رصدت لمن يقتله، فإن أندرياس وعلى غرار الإسكندر المقدونى، لم يرجع إلى أهله وقومه إلا بعد أن دفع الغزاة للعودة إلى البحر من حيث أتوا.

وما إن تم إعلان السلام فى عام ١٩٤٥، حتى عاد أندرياس مكللاً بالنصر. تم انتخابه عمدة لجزيرة سيفالونيا، وهو المنصب الذى تقلده، بالتركية، على مدى الثلاثين عامًا التالية، والآن وقد صار فى الثمانينات من عمره، لم تكن هناك عائلة فى الجزيرة لا تشعر بأنها تحمل دينًا فى عنقها نحو أندرياس، وقليلون جدًا هم من لا يزعمون أنهم يمتون إليه بصلة قرابة. قال جورج وهو يخطو للأمام محيياً العجوز: "طاب مساؤك يا سيدى، إن حضورك لزفاف ابنة شقيقى لهو شرف كبير لنا جميعاً".

أجابه أندرياس وهو يحنى رأسه فى المقابل: "الشرف لى أنا. إن الجد الكبير لابنة شقيقك قاوم المحتل معى ومات إلى جانبى"، ثم أضاف وهو يغمز بعينه فى مرح: "وعلى كل حال، فهناك امتياز يقتصر على رجل عجوز مثلى، وهو أن أقبل كل عروس جديدة على هذه الجزيرة".

قاد جورج ضيفه المميز ببطء على طول المحيط الخارجى لمربع الرقص، ثم اتجه به نحو مائدة الصدارة. توقف الضيوف عن الرقص وراحوا يتصايحون ويهللون بينما العجوز يمر بهم. أصر جورج على أن يأخذ أندرياس مكانه فى مركز مائدة الصدارة؛ بحيث يمكنه أن يتوسط العريس والعروس. وعلى استحياء قبل أندرياس مقعد الشرف الخاص بمضيفه، وعندما التفتت إزابيلا لتتري من يجلس بجانبها انخرطت فى البكاء

مأساة يونانية

الحار وألقت بذراعيها حول الرجل العجوز. قالت: "بحضورك اكتملت فرحتي وصار الحفل لا ينقصه شيء".
ابتسم جورج وهمس له "أندرياس" قائلاً: "كم أتمنى الآن لو كان لي نفس هذا التأثير على النساء عندما كنت أصغر سنًا".

ترك جورج أندرياس جالسًا في مقعده بمركز مائدة الصدارة، يتجاذب الحديث بكل سعادة مع العريس والعروس. التقط صحنًا فارغًا وسار ببطء نحو المائدة المحملة بالطعام. أخذ جورج وقته الكافي لكي يتخير أرق الأطعمة وأسهلها هضمًا على الرجل العجوز، وأخيرًا اختار زجاجة من الشراب من حقيبة زجاجات كان والده قدمها له في ليلة زفافه. استدار جورج عائداً ليأخذ ما جلبه إلى ضيف الشرف المتميز بينما كانت ساعة البرج تعلن انتصاف الليل، معلنة قدوم يوم جديد.

ومرة أخرى وثب شباب الجزيرة فوق مربع الرقص وراحوا يطلقون الرصاصات من مسدساتهم في الهواء؛ مما بعث البهجة والحماس في الضيوف المتجمهرين. قطب جورج في ضيق، ولكنه للحظة سريعة استعاد أيام شبابه. واصل السير، حاملاً الطبق في يده والزجاجة في يده الأخرى، نحو وسط المائدة، ونحو مقعده الذي يشغله الآن أندرياس نيكولاديس.

وفجأة، ودون سابق إنذار، ركض أحد مطلقى الرصاص الشبان ممن كانوا أفرطوا في الشراب وثلثوا قليلاً، واتجه للأمام، وزلت قدمه على حافة مربع الرقص، في اللحظة نفسها التي كان يطلق فيها آخر الرصاصات. تجمد جورج هولاً في مكانه عندما رأى الرجل العجوز يسقط إلى الأمام وهو جالس في مقعده، وتقع رأسه لترتطم بالمائدة. أسقط جورج من يده كلاً من الطبق والزجاجة على العشب بينما راحت العروس تطلق الصرخات. ركض مسرعاً نحو مركز المائدة،

جيفرى آرشر

ولكن كان الأوان قد فات؛ فقد قضى أندرياس نيكولاديس نحيبه.

فجأة سرى فى الحشد الضخم والمشتعل بالحماس اضطراب عظيم وفوضى، البعض يصرخ، البعض يبكى وينوح، بينما سقط آخرون على ركبهم هولاً ودهشة، لكن الغالبية حط على رءوسها الطير ولزمت الصمت المصدوم والكئيب، عاجزين حتى عن استيعاب ما جرى.

انحنى جورج فوق الجثة، ورفع العجوز بين ذراعيه. حمله بيضاء سائراً بالباحة، وقد تجمع الضيوف، عن يمينه وعن يساره، مثل ممر من الرعوس المحنية، بينما سار بينهم متوجهاً نحو المنزل.

كان جورج قد اشترى ، فى المزاد، مقعدين بمبلغ خمسة آلاف جنيه، فى حفل وست أند الموسيقى، ذلك الحفل الذى كان قد انتهى عندما روى لى حكاية أندرياس نيكولاديس.

التمعت عينا جورج بذكري الرجل العجوز المناضل، وتهدج صوته وكأنه يراه أمامه وهو يقول لى: "يقولون إن أندرياس قد أنقذ حياة أهل الجزيرة جميعهم خلال زمن الاحتلال". توقف قليلاً قبل أن يضيف: "وكنت أنا من بين من أنقذ حياتهم، ولو بعد الاحتلال بزمن طويل".



المأمور



تساءل المأمور: "ولم يريد أن يقابلني؟".

"يقول إنها مسألة شخصية".

"كم مضى عليه بعد أن خرج من السجن؟".

ألقت سكرتيرة المأمور بنظرة سريعة على الملصق الخاص

بـ راج مالك. لقد تم إطلاق سراحه منذ ستة أسابيع".

تهض ناريش كومار واقفاً، دفع مقعده للوراء وراح يسيير

فى أنحاء الغرفة؛ وهو الشيء الذى كان يقوم به على الدوام

عندما يكون بحاجة للتفكير فى مشكلة ما. كان قد أقنع

نفسه - حسناً، تقريباً أقنع نفسه - بأن المشى فى الغرفة هو نوع

ما من التمرين البدنى. مضى زمن طويل على الوقت الذى

كان بمقدوره فيه أن يلعب مباراة هوكى خلال فترة ما بعد

الظهيرة، وثلاث مباريات اسكواش فى المساء نفسه ثم يهرول

عائداً إلى مقر نقطة الشرطة. مع كل ترقية جديدة كان ينالها،

ومع كل شارة فضية جديدة تضاف إلى كتفيه كان يضاف معها

إلى محيط خصره بوصات جديدة.

كان يقول لمساعدته رقم اثنين أنيل خان: "ما إن أتقاعد

ويصير لدى المزيد من الوقت فسوف أبدأ التمرن مرة أخرى".

دون أن يصدق العبارة؛ لا قائلها ولا سامعها.

بدأ المأمور ينتظر خارج النافذة محدقاً للأسفل نحو شوارع

مومباى التى تعج بالبشر، تحته بنحو أربعة عشر طابقاً؛ عشرة

ملايين نسمة، يتراوحوون من أفقر الفقراء إلى أثرى الأثرياء.

من المتسولين إلى أصحاب المليارات، وكانت مسئوليته أن يكون

رئيس الشرطة على جميع هؤلاء. ترك له سلفه الذى تقلد هذا

المنصب من قبله عبارة تقول: "في أفضل الأحوال، لا يمكنك إلا أن تبقى الغطاء الذي يكبت انطلاق الغليان". وبعد أقل من عام، حين نقل ناريش المسئولية على نائبه، لم يجد كلمات معبرة خيراً من هذه ليقدمها له كمنصحة أخيرة.

كان ناريش كومانر رجل شرطة طوال حياته، مثل أبيه من قبله، وما كان يتمتع به أكثر مما سواه في وظيفته هو عدم القدرة على التنبؤ بأى شيء فيها بالمرّة، واليوم لم يكن مختلفاً عن ذلك، على الرغم من أن أموراً كثيرة قد تغيرت منذ أن كان بوسع المرء أن يقرص صبيّاً من أذنه لأنه أمسك به وهو يسرق ثمرة مانجو، فمن يحاول القيام بهذا اليوم سوف يقاضيه الوالدان بتهمة الاعتداء على ابنتهما وسوف يصرخ الصبي طالباً لمحام يدافع عنه، ولكن لحسن الحظ، فإن نائبه أنيل خان قد صار يتقبل تماماً أن المسدسات في الشوارع، وتجار المخدرات، والحرب ضد المخربين، كل هذا جزء لا يتجزأ من قدر رجل الشرطة في العصر الحديث.



عادت أفكار الأمور إلى راج مالك من جديد، الرجل الذي كان هو مسئولاً عن إرساله إلى السجن في ثلاث مرات مختلفة

المأمور

على مدار الثلاثين عاماً الماضية. لماذا يرغب السجين القديم فى لقاءه؟ ليس أمامه إلا طريقة واحدة ليكتشف بها الأمر. التفت بوجهه نحو سكرتيرته، وقال: "حددى موعداً لى لقاء ماليك، ولكن بحيث لا يتجاوز وقت اللقاء خمس عشرة دقيقة".

نسى المأمور أنه وافق على لقاء ماليك ولم يتذكر ذلك إلا عندما وضعت السكرتيرة الملف على مكتبه قبل موعد وصول ماليك بدقائق معدودة.

قال المأمور: "إن تأخر دقيقة واحدة فقط ألغى الموعد دون تردد".

أجابته قائلة: "لكنه ينتظر منذ الآن فى الردهة يا سيدى".

عسى كومانر مقطباً جيبنه، وراح يتصفح الملف. بدأ ينعش ذاكرته بشأن السجل الإجرامى لسوابق ماليك، أغلب ذلك السجل كان يمكنه تذكره بالاعتماد على الذاكرة وحدها؛ لأنه فى مناسبتين كان هو الضابط الذى قبض عليه بنفسه، الأولى عندما كان برتبة رقيب، وفى المرة الثانية كان قد رقى حديثاً إلى رتبة مفتش.

كان ماليك من المجرمين المهرة والأذكياء، والمؤهلين تماماً للاضطلاع بمهام خطيرة، وعلى الرغم من ذلك، وفى فترة شبابه سرعان ما اكتشف أنه يملك من السحر والجاذبية ما يكفى للنصب والاحتيال على السذج من الناس، وخصوصاً النساء العجائز؛ بحيث يستولى منهن على مبالغ مالية، دون أن يبذل قدرًا كبيراً من الجهد.

لم تكن أولى عمليات الاحتيال الأولى له فريدة أو غريبة على مومباى. كل ما كان بحاجة إليه هو آلة طباعة صغيرة، أو دفتر أوراق مطبوع عليه بيانات محددة، وقائمة بالأرامل. ما

إن ينجح فى الحصول على الضحايا - حيث كان يحصل على أسمائهن من صفحات الوفيات فى صحيفة بومباى تايمز - حتى يصير منشغلاً بالعمل، وقد تخصص فى بيع أسهم لشركات تقع فيما وراء البحار، تلك الشركات التى لا وجود لها. كان هذا العمل يزوده بدخل منتظم، إلى أن حاول أن يبيع بعض الأسهم لأرملة نصاب آخر.

عند محاكمة مالك، اعترف باستيلائه على أكثر من مليون روبية هندية، لكن المأمور شك بأن المبلغ كان يتجاوز ذلك بكثير؛ فعلى كل حال كم عدد النساء الأرامل اللواتى كن على استعداد لأن يعترفن بأن سحر مالك قد سلب لبهن؟ حكم على مالك بالسجن لمدة خمسة أعوام فى سجن بيونى، وفقد كوماتر أثره بعدها على مدار عشرة أعوام تقريباً.

عاد مالك للسجن مرة أخرى بعد القبض عليه متهمًا ببيع مبنى سكنى متعدد الطوابق على أرض اتضح فيما بعد أنها مستنقع، وفى هذه المرة حكم القاضى عليه بالسجن لمدة سبعة أعوام، ومرت عشر سنوات أخرى.

كانت جريمة مالك الثالثة أكثر عبقرية بكثير، ونال عنها عقوبة بالسجن لفترة أطول بكثير كذلك. كان يقدم نفسه باعتباره سمساراً لبيع بوليصات التأمين على الحياة. ولسوء الحظ لم يتم تسديد الأقساط السنوية - إلا بالنسبة لـ"مالك" نفسه الذى سدد الدين من سنوات حياته.

اقترح محاميه على القاضى بأن يسدد موكله حوالى اثنى عشر ألف روبية لهؤلاء الذين مازالوا أحياء، لكن القاضى شعر بأن العائد المناسب لعمليات النصب تلك لابد أن يكون اثنى عشر عاماً فى السجن.

عندما قلب المأمور الصفحة الأخيرة من الملف، كان مازال حائراً بشأن سبب رغبة مالك فى مقابلته. ضغط زراً تحت مكتبه لينبه سكرتيرته بأنه مستعد لموعده التالى.

تطلع المأمور كوماً ببصره عندما فتح الباب. حدق برجل
لا يكاد يتعرف عليه. لابد أن مائيك كان يصغر المأمور بعشر
سنوات، ولكنه ظهر وكأنه فى مثل سن المأمور، وعلى الرغم
من أن المعلومات الواردة فى ملفه تقول إن طولهُ خمس
أقدام وثمانى بوصات، وإن وزنه مائة وسبعون رطلاً، فإن
الرجل الذى دخل مكتبه لم يكن مطابقاً لهذه المواصفات.



كانت بشرة النصاب القديم مجعدة وجافة، وظهره محنياً،
بحيث بدا حجمه أصغر وأضال. كان واضحاً أنه رجل قضى
نصف حياته خلف قضبان السجن. كان يرتدى قميصاً أبيض
اهترأ نسيجه عند الياقة والكمين، وسترة واسعة عليه لابد
أنها خيطة خصيصاً له فى ماضى الزمان. لم يكن هذا هو
الرجل الوثائق من نفسه الذى قبض عليه المأمور قبل أكثر
من ثلاثين عاماً، الرجل الذى كان لديه جواب حاضر على كل
سؤال يطرح عليه.

توقف ماليك أمام المأمور وأسفر وجهه عن ابتسامة باهتة.
قال بهدوء: "شكرًا لك لوافقتك على مقابلتى يا سيدى".
حتى صوته كان متهدجًا ومنكمشًا.
أوما المأمور، ولوح بيده مشيرًا نحو مقعد على الجانب
الآخر من مكتبه، ثم قال: "إن أمامى نهار مزدحم بالمهام يا
ماليك؛ فلذلك أريدك أن تدخل فى الموضوع مباشرة".
أجاب ماليك، قبل أن يتخذ مجلسه: "بالطبع، يا سيدى،
الأمر ببساطة أننى أبحث عن عمل".
كان المأمور قد فكر فى أسباب عديدة قد تدفع ماليك
لمقابلته، ولكن السعى لوظيفة لم يخطر بباله قط.
واصل ماليك، قائلًا: "قبل أن تضحك، اسمح لى أرجوك
أن أعرض موقفى".
اضطجع المأمور فى مقعده وشبك أصابعه.
قال ماليك: "لقد أنفقت جزءًا أكثر من اللازم من حياتى
فى السجن". توقف قليلاً، ثم تابع قائلًا: "ولقد بلغت مؤخرًا
سن الخمسين، ويمكننى أن أؤكد لك أننى لا أرغب بالمرّة فى
العودة للسجن مرة أخرى".
أوما المأمور برأسه، دون أن يعرب عن أى رأى.
واصل ماليك حديثه قائلًا: "سمعت الأسبوع الماضى يا
سيدى المأمور أنك قمت بإلقاء كلمة فى الاجتماع السنوى
للغرفة التجارية لمدينة مومباى. لقد قرأت كلمتك التى نشرت
فى التايمز باهتمام عظيم، وقد وجهت كلمة إلى أصحاب
الأعمال فى هذه المدينة أن يفكروا فى توظيف الأشخاص
الذين سبق لهم أن سجنوا - وأن يمنحهم فرصة ثانية، أنت
قلت هذا يا سيدى، أو أن أصحاب السوابق هؤلاء بكل بساطة
سيختارون الاختيار السهل ويعودون لحياة الإجرام. وهو الرأى
الذى لا يسعنى إلا الاتفاق معه تمامًا".

المأمور

قاطععه المأمور قائلاً: "ولكننى أوضحت تماماً أنى أتحدث عن أصحاب السابقة الأولى فقط".

رد عليه ماليك الحجة بمثلهما قائلاً: "وهذه هى النقطة تماماً، إذا اعتبرت أن هناك مشكلة بالنسبة لأصحاب السابقة الأولى والوحيدة، تخيل فقط ما الذى ألقيه وأعانيه عندما أبحث الآن عن عمل". توقف ماليك قليلاً وفرد رباط عنقه ثم واصل قائلاً: "إذا كان خطابك فى الغرفة التجارية صادقاً ومخلصاً وليس مجرد كلام لإبهار وسائل الإعلام، فربما يتوجب على سعادتك أن تتبع القول بالعمل، وتضرب للآخرين مثلاً يتبعونه".

سأله المأمور: "وما نوع العمل الذى خطر لك؟ لأنك بطبيعة الحال لا تملك المؤهلات الكافية للعمل فى الشرطة". تجاهل ماليك سخريه المأمور، وراح يتقدم فى سبيله بكل جرأة، قائلاً: "فى الصحيفة نفسها التى نشر بها خطاب سيادتكم، كان هناك إعلان عن الحاجة لموظف أرشيف لسجلات قسم الشرطة الخاص بكم. لقد بدأت حياتى كموظف أرشيف بشركة بى أند أو للشحن، هنا فى المدينة. وعندما تراجع السجلات أنا واثق أنك سوف تكتشف أننى كنت أضطلع بمهام عملى بكل حماس وبمنتهى الكفاءة، وأننى فى هذه الشركة تحديداً غادرت العمل بسجل لا تشوبه شائبة".

قال المأمور، دون أن يكثر بالإشارة للملف المائل أمامه: "لكن هذا كان منذ أكثر من ثلاثين عاماً".

فأجابته ماليك: "إذن سوف أنهى حياتى المهنية من نفس نقطة البداية، موظف أرشيف".

لم ينطق المأمور بأى شىء لبعض الوقت فيما فكر فى الاقتراح الذى قدمه ماليك. انحنى للأمام فى نهاية الأمر، واضعاً يديه على المكتب، وقال: "سأفكر فى مطلبك يا ماليك. هل تعرف سكرتيرتى وسيلة اتصال بك؟".

أجاب ماليك وهو ينهض من مقعده: "بلى، لديها وسيلة اتصال بى يا سيدى، يمكن العثور على كل ليلة فى نزل جمعية الإحسان بشارع فيكتوريا". توقف لبرهة ثم قال: "وليس لدى أى خطط للانتقال إلى أى مكان آخر فى القريب العاجل".

عند تناول الغداء فى قاعة الطعام الخاصة بالضباط، روى المأمور كومار ما جرى باختصار لنائبه.

اندفع النائب أنيل خان فى الضحك. وقال بحرارة: "من حضر حفرة لأخيه وقع فيها".

أجابه المأمور وهو يتناول ملعقة أخرى من الأرز: "صحيح تمامًا، وعندما تضطلع بمسئولياتى فى العام القادم، لعل هذه الحادثة الصغيرة تعمل على تذكيرك بالعواقب الوخيمة التى قد تنتج عما تقدمه من تصريحات وكلام، وخصوصًا عندما تطلق هذه التصريحات على رعوس الأشهاد".

نظر إليه أنيل خان عبر المائدة، وسأله: "هل معنى ذلك أنك تفكر بجديفة فى توظيف ذلك الرجل حقًا؟"

أجاب كومار: "أمر محتمل، لماذا، هل تعارض الفكرة؟" ذكره خان قائلاً: "إنه عامك الأخير فى الخدمة يا سيادة المأمور، ولك سمعة بالاستقامة والكفاءة تحسد عليها ويضرب بها الأمثال. فلماذا تتخذ مغامرة قد تعرض هذا السجل الوظيفى الرائع للخطر؟"

قال المأمور: "أشعر أنك تحمل الأمر ما لا يحتمل، إن ماليك مجرد رجل محطم، وسوف ترى ذلك بنفسك إذا ما حضرت الاجتماع".

أجابه خان: "لكن من كان محتالاً ذات مرة يظل محتالاً حتى آخر العمر، ولهذا أكرر، لماذا تخاطر؟"

أجابه المأمور: "ربما لأن هذا هو التصرف الصحيح، مع النظر للظروف، إذا ما أغلقت الباب فى وجه ماليك، فلن

المأمور

ينصت أى شخص لأرائى بعد ذلك أبداً، بما أننى أنصح بما لا أقوم به".

قال خان معترضاً: "ولكن العمل فى الأرشيف وظيفه ذات حساسية خاصة، فسوف يطلع مالك على معلومات يجب أن تظل مقتصره على الأشخاص الموثوق برشدهم العلقى ونزاهتهم".

قال المأمور: "لقد فكرت فى ذلك من قبل، إن لدينا قسمين للأرشيف: أحدهما فى هذا المبني وهو يتسم كما أشرت أنت بحساسية شديدة، والآخر يقع فى ضواحي المدينة وهو يتعامل مع القضايا المنتهية، والتي إما توصلنا فيها لنتيجة نهائية أو لم نعد نتتبعها على الإطلاق".

قال خان وهو يعيد شوكته وسكينه إلى الصحن: "ومع ذلك لا أميل للمخاطرة بذلك".

أجاب المأمور: "لقد قللت من احتمالات المجازفة أكثر من هذا، سوف أضع مالك فى مرحلة تدريب لمدة شهر، وسيكون هناك مشرف يراقبه بعين يقظة، ويعد تقريراً ويرفعه إلى مباشرة، وإن تجاوز مالك الخط الرفيع بخطوة واحدة فسوف يعود إلى الشوارع فى اليوم نفسه".

كرر خان قوله: "مازلت لا أميل للمخاطرة بذلك".

فى اليوم الأول من الشهر تسلم راج مالك عمله بالقسم الخاص بسجلات الشرطة، الكائن بمبنى ٤٧ من شارع مهاتما درايض، بضواحي المدينة. كانت ساعات عمله تمتد من الثامنة صباحاً إلى السادسة مساءً، لمدة ستة أيام فى الأسبوع، براتب شهرى قدره تسعمائة روبية هندية. كانت مسئولية مالك أن يقوم بزيارة كل قسم شرطة فى الإقليم الخارجى، على دراجته ويجمع ملفات القضايا التى انتهت التحقيقات فيها، وبعد ذلك يسلمها إلى مشرفه المباشر، الذى كان يخزنها فى القبو، ونادراً

ما يتم الرجوع إليها مرة أخرى .

وعند نهاية شهره الأول، رفع مشرف ماليك تقريراً إلى
المأمور وفقاً لأمره به . قال للمأمور: "يرجو المراء لو أن
لديه عشر نسخ من ماليك؛ فهو على عكس شباب هذه الأيام،
يحافظ على مواعيده على الدوام، ولا يأخذ راحات أطول
من الوقت المحدد له، ولا يشتكى أو يتذمر أبداً عندما تكلفه
بعمل خارج مهامه الوظيفية". ثم أضاف المشرف قائلاً: "وإذا
سمحت سيادتكم لى، فإننى أود أن أرفع راتبه إلى ألف روبية فى
الشهر".

كان التقرير الثانى للمشرف أروع وأبدع؛ فقد قال: "فقدت
أحد أفراد طاقم العمل نظراً لمرضه خلال الأسبوع الماضى، وقد
تولى ماليك العديد من مسئوليات الموظف المتغيب، ولا يعلم
إلا الله كيف تدبر أمره للتهوض بعمله ويعمل زميله فى الوقت
نفسه".

أما التقرير الذى قدمه المشرف فى نهاية الشهر الثالث لـ
ماليك، فقد كان من الإطراء بحيث إن المأمور عندما ألقى كلمته
على حفل العشاء السنوى فى نادى روتارى مومباى لم يكتف
بمناشدة أعضاء النادى بمد يد العون للمساجين السابقين؛ بل
مضى ليؤكد لهم أنه اتبع نصيحته الخاصة وعمل بها واستطاع
أن يبرهن بالتجربة العملية على واحدة من النظريات التى
طالما اعتنقها. إذا ما منحتم السجناء السابقين فرصة حقيقية
فلن يعودوا لبرائن الجريمة.

وفى اليوم التالى كان أحد العناوين الرئيسية لصحيفة
مومباى تايمز، هو:

المأمور يضرب مثلاً ليقنتدى به الآخرون

وقد تم نقل عبارات كومار بتفاصيلها الدقيقة، إلى جانب
صورة فوتوغرافية لـراج ماليك، وكتب تحتها، سجين سابق
تعرض للإصلاح، وقد وضع المأمور المقال على مكتب نائبه.

انتظر ماليك إلى أن غادر مشرفه ليتناول غداءه. كان المشرف دائماً ما يقود سيارته بعد الثانية عشرة تماماً ويقضى ساعة مع زوجته. ظل ماليك يراقب بينما كانت سيارة رئيسه تختفي عن النظر قبل أن يتسلل نازلاً إلى القبو. وضع كومة من الأوراق التي تحتاج لأن يتم تخزينها على ركن النضد، فقط في حالة ما إذا دخل شخص ما دون سابق إنذار وسأله عما يفعل.

ثم انحنى وفتح أحد الملفات، بعد تسعة أشهر وصل أخيراً للبحث في حرف "الباء" وما زال لم يجد المرشح النموذجي لخطته، وقد عثر بالفعل على عشرات الأشخاص باسم "باتل" خلال الأسبوع السابق، وقد صرف نظره عنهم جميعاً، إما لأنهم لا يمتون بصلة للأمر أو غير متوافقين مع ما يدبر له في رأسه. كان ذلك قبل أن يعثر على واحد، كان الحرف الأول من اسمه واسم أبيه هو الهاء.

رفع ماليك الملف الثقيل من الخزانة، ووضعها على النضد وبدأ يقلب صفحاته ببطء. لم يكن بحاجة لأن يقرأ التفاصيل مرة ثانية لكي يعرف أنه قد عثر على الورقة الرابعة.

دون الاسم بسرعة، والعنوان وأرقام الهواتف بنظام وترتيب على قطعة من الورق، ثم أعاد الملف إلى موضعه في الخزانة. ابتسم، وخلال استراحة تناول الشاي، استطاع أن يتصل بالسيد "ه. ه. باتل"، ويحدد موعداً لمقابلته.

قبل أسابيع قليلة من الموعد المحدد لتقاعد المأمور كومان، كان قد نسى كل ما يتعلق بأعجوبته التي اقترحها حينما حول ماليك من شخص طالح إلى شخص صالح. كان ذلك بالتحديد عندما تلقى اتصالاً هاتفياً من السيد "ه. ه. باتل"، أحد أصحاب البنوك البارزين في المدينة. كان السيد باتل يطلب لقاء عاجلاً مع المأمور - مناقشة مسألة شخصية.

لم يكن المأمور كومار يعتبر السيد "باتل" مجرد صديق، بل أيضاً كرجل صاحب نزاهة وكرامة، وبكل تأكيد ليس واحداً ممن يستعملون كلمة "عاجل" دون سبب وجيه.

نهض كومار من خلف مكتبه حين دخل السيد باتل إلى الغرفة. أشار لصديقه القديم نحو مقعد مريح فى ركن الغرفة ثم ضغط زراً تحت مكتبه. بعد دقائق ظهرت سكرتيرته ومعها قندح الشاى وطبق بسكويت من نوع باث أوليفر، وظهر فى أثرها نائب المأمور.

قال كومار: "لقد رأيت أنه من الحكمة أن يحضر أنيل خان هذا اللقاء، يا سيد باتل بما أنه سوف يتولى جميع مهامى خلال أسابيع معدودة".

قال السيد باتل وهو يصافح خان بكل حرارة: "لقد سمعت بك بطبيعة الحال، ويسرنى أن تنضم إلينا".

ما إن انتهت السكرتيرة من تقديم الشاى للرجال الثلاثة حتى غادرت الغرفة. ولحظة إغلاق الباب، توقف المأمور كومار عن أية محادثات لا داعى لها، وقال: "لقد طلبت لقائى عاجلاً من أجل مسألة شخصية يا سيد باتل".

أجاب باتل: "نعم، وددت أن تعلم أنى تلقيت بالأمس زيارة من شخص يزعم أنه يعمل لحسابك".

رفع المأمور حاجباً مندهشاً.

"السيد راج مائيك".

"إنه موظف أرشيف صغير فى ...".

"فى مهمة خاصة، إنه لم يتوان عن توكيد هذا".

بدأ المأمور يندق ذراع مقعده براحة يده اليمنى، بينما واصل باتل حديثه: "قال مائيك إنك كنت تملك ملفاً يثبت أننى خضعت لتحريرات تتعلق بغسل الأموال".

قال المأمور بصراحته المعهودة: "وهذا صحيح يا سيد باتل؛ ففى أعقاب حادثة الحادى عشر من سبتمبر كلضنى السيد وزير

الداخلية بإجراء تحريات حول أى مؤسسة تتعامل بمبالغ مالية ضخمة. وهذا يشتمل على الكازينوهات، ونوادي السباق، وفى حالتكم، يصدق على بنك مومباى أيضاً. لقد التقى عضو من فريق عملى بمدير الحسابات لديكم وقدم له النصح بشأن الغرض من هذا التفتيش، وأنا شخصياً قمت بتوقيع شهادة إبراء الذمة الخاصة بشركتكم".

قال باتل: "إننى أتذكر؛ فلقد أعلمتني بمجمل الأمر فى حينه، لكن رجلك ماليك...".
"إنه ليس رجلى".

"... قال إن بوسعه أن يتدبر أمر التخلص من ملفى".
توقف قليلاً قبل أن يقول: "مقابل إكرامية صغيرة".
فقال كومار وهو يكاد يثب من مقعده: "ماذا قال؟".
سأل خان نائب المأمور فى هدوء: "إكرامية صغيرة إلى أى حد؟".

أجاب باتل: "عشرة ملايين روبية".
قال المأمور: "سيد باتل، لا أدرى ماذا يمكننى أن أقول لك".

قال باتل: "ليس عليك أن تقول أى شىء؛ لأنه لم يخطر بذهنى بالمرّة، ولو للحظة واحدة، أنك قد تكون متورطاً فى أى شىء على هذه الدرجة من الحماسة، أو تحدثت مع ماليك على هذا الأساس".

قال المأمور: "إننى ممتن لك".
قال باتل: "لا عليك، لكننى أعتقد حقاً أنه ربما هناك آخرون أقل نزاهة منى...". توقف قبل أن يكمل: "خصوصاً وأن زيارة ماليك تأتى قريبة للغاية من موعد تقاعدك...."، تردد ثانية ثم قال: "وإذا ما حصلت الصحافة على قصة كتلك، فمن السهل أن يساء فهمها".

قال كومار: "إننى شاكر لاهتمامك، وبالسرعة التى تصرفت بها، سأحمل دينك هذا فى عنقى إلى الأبد".
قال باتل: "لا أريد شيئاً فى المقابل سوى أن تعرف أن هذه المدينة سوف تظل تحمل ديونك لها فى عنقها إلى الأبد، وهكذا فحين تغادر هذا المكتب لأبد أن تكون مكلاً ببريق المجد، وليس بعلاصات استفهام تحوم حول رأسك، والتى كما يعرف كل منا سوف تبقى لوقت طويل بعد تقاعدك".
وبينما كان ينهض السيد باتل من مقعده أوماً نائب الأمور برأسه موافقاً على كلامه.

التفت السيد باتل بوجهه نحو الأمور قائلاً: "أعرف يا ناريش؟ ما كنت أبداً لأوافق على مقابلة هذا الرجل الملعون إذا لم تذكره بكل فخر فى خطابك بنادى الروتارى الشهر الماضى: حتى إنه قدم لى المقال المكتوب عنه فى صحيفة مومباى تايمز. واقترضت بالتالى أن هذا الرجل قد أتى لى بموافقتك ورضاك". التفت السيد باتل نحو خان، ثم قال: "كم أتمنى لك الحظ عندما تتقلد منصب الأمور"، ثم أضاف، وهو يصافح النائب: "من العسير عليك أن تكون خلفاً لمثل هذا السلف العظيم". ابتسم كومار للمرة الأولى خلال هذا الصباح.
"سأعود خلال دقيقة"، هكذا قال الأمور وهو يغادر المكتب ليرافق السيد باتل حتى الباب الأمامى.

راح نائب الأمور يحدق من النافذة بينما ينتظر عودة رئيسه. راح يمضغ قطعة بسكويت وهو يتفكر فى عدة بدائل محتملة لهذا الأمر، وعندما عاد الأمور من جديد إلى الغرفة، كان خان يعرف على وجه التحديد ما يجب عمله، ولكن هل سيكون بمقدوره إقناع رئيسه به؟
التقط الأمور سماعة الهاتف من فوق مكتبه وهو يقول:
"سأمر بالقبض على مالك وإلقائه وراء القضبان خلال ساعات قلائل".

المأمور

فقال النائب خان بكل هدوء: "إننى أتساءل يا سيدى ما إذا كان هذا هو التصرف الصحيح - مع الوضع فى الاعتبار الظروف المحيطة".

فقال المأمور وقد شرع فى طلب الرقم: "ليس لدى خيارات أخرى".

قال خان: "قد تكون محقًا، ولكن قبل أن تتخذ قرارًا لا يمكن الرجوع عنه، ربما يكون علينا أن ن فكر كيف سيمضى هذا الأمر كله"، توقف قليلاً ثم قال: "مع الصحافة".

"الصحافة ستجد يومها المشهود وسوف يقيمون الأعياد". هكذا قال كوما بعد أن وضع سماعة الهاتف مكانها، وبدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا. "لن يترددوا إذا ما وجدونى مشوقاً باعتبارى محتالاً ومستعداً لقبول الرشاوى، أو حتى إذا ما وجدونى أفضل من الخدمة باعتبارى أكثر مأمورى الشرطة حماقة فى التاريخ. لا هذا السيناريو ولا ذاك يحتمل المرء أن يفكر فيه".

ألح النائب خان قائلاً: "ولكن علينا أن ن فكر فى الأمر؛ ذلك لأن أعداءك - وحتى أصلح الرجال لهم أعداؤهم - سوف يرضيهم تمامًا أن تظهر كشخص مرتش، بينما لن يكون بمقدور أصدقائك أن ينكروا أهون تهمة، وهى السداجة".

"ولكن بعد أربعين عامًا فى الخدمة، لا شك أن الناس لن تصدق..".

قال خان، مؤكدًا أسوأ مخاوف المأمور: "سوف يصدق الناس ما يرغبون فى تصديقه أياً كان، وبكل تأكيد لن يكون بمقدورك أن ترسل مالىك إلى السجن من جديد من غير أن تتاح له الفرصة للوقوف على منصة الشهود ليخبر العالم كله بروايته هو".

"ولكن من سوف يصدق ذلك ال....".

"لا يوجد دخان بلا نار، سوف يتهايمسون بذلك فى ردهات قاعات المحكمة، وسوف تتم مقارنة هذا على استحياء بعناوين الصحف فى الصباح بمجرد أن يقضى مالك يوماً أو اثنين فى الاستجواب من قبل محام ودود لا يرى فى موقفك أكثر من فرصة للصعود المهني".

واصل كومار سعيه الحثيث فى أرجاء الغرفة؛ لكنه لم يجب.

قال خان: "دعنى أضمن عناوين الصحف التى ستتبع هذا الاستجواب". توقف قليلاً ثم أكمل: "المأمور يتلقى الرشاوى لكى يتخلص من ملفات أصدقائه". قد يكون هذا هو العنوان الرئيسى لصحيفة التايمز، أما الصحف الصفراء فالمؤكد أنها ستكون أكثر بهرجة: "نهر الرشاوى يصب فى مكتب المأمور بمعاونة فتى توصيل الطلبات"، أو ربما: "المأمور كومار يوظف محتالاً سابقاً لينفذ له أعماله القذرة".

ارتدى المأمور مرة أخرى على مقعد إلى جوار خان وهو يقول: "أظن أننى أتخيل الآن الوضع. ما الذى يفترض بى القيام به إذن؟".

فأجاب خان: "ما قمت به دائماً فى الماضى، أن تلعب اللعبة على أصولها".

نظر المأمور نحو نائبه ليستفهم منه قائلاً: "ما الذى يدور بخلدك؟".

صاح المشرف بأعلى صوته، حتى قبل أن يضع سماعة الهاتف من يده: "يا مالك ايريد المأمور كومار أن يراك حالاً".

سأله مالك فى توتر: "هل ذكر السبب؟".

أجاب المشرف: "كلا، ليس من عادته أن يطلعنى على الأسباب وراء أوامره، ولكن لا تتأخر عليه لأنه ليس من نوع الرجال الذين يروقه الانتظار".

المأمور

أجابه مالك: "حاضر يا سيدى". أغلق الملف الذى كان يعمل عليه، ووضعه مكانه على مكتب المشرف. ذهب نحو خزانته وفك قفل دراجته وغادر المبنى دون كلمة واحدة أخرى. عندما صار بالخارج على الرصيف بدأ يرتجف. هل كشفوا لعبته الأخيرة؟ لابد أنها لم تثبت نجاحها. فك السلسلة التى تمسك بعجلات الدراجة وشرع يفكر فى الخيارات المتاحة أمامه. هل يلوذ بالفرار، أم ينكر الأمر بكل وقاحة؟ لم يكن أمامه الكثير من الخيارات. وعلى كل حال، إلى أين بوسعه أن يهرب؟ وحتى إذا ما قرر أن يلوذ بالفرار، ما هى إلا أيام معدودة، ولعلها ساعات معدودة، قبل أن يقبضوا عليه.

انزلق مالك على دراجته، واعتلى موضع الركوب وبدأ يدفع البدالين ببطء نحو مركز المدينة. كانت الطرقات البنية المترية تعج بالدراجات الأخرى، والسيارات وأعداد لا تحصى من الناس، كل يتجه اتجاهًا مختلفًا. الصفير المتواصل لأبواق السيارات، والروائح المختلفة العديدة، وضربات الشمس، وضجيج الحياة اليومية؛ كل ذلك أكد أن مومباى لم تكن مثل أى مدينة أخرى على وجه الأرض. كان الباعة الجائلون يشقون طريقهم بأذرعهم بينما يمر مالك على دراجته، ويوقفونه فى محاولة لأن يبيعوه سلعهم، بينما كان المتسولون يجرون إلى جواره ولكن دون أذرع؛ مما أعاق تقدمه. هل ينبغى عليه أن يكون صريحًا ويعترف بما كان يخطط له؟

دار بدراجته لبضع ياردات أخرى. كلا، لن يعترف بأى شىء، إنها قاعدة ذهبية قد تعلمها بعد سنوات طوال فى السجن. انحرف بالدراجة لكى يتفادى بقرة وكاد أن يسقط بسبب هذا.



افتراض أنهم لا يعلمون أى شىء حتى يثبت العكس، وحتى عندئذ، فلتصرّ على إنكار كل شىء، هكذا أخذ يفكر، وعندما استدار حول المنعطف التالى، لاح مقر الشرطة قبالة يوحى بالتهديد والخطر. إن كان عليه أن يهرب بفعلته، فيجب أن يحدث هذا الآن وإلا فلا. واصل الضغط على البدالين حتى صار على مبعدة ياردات قليلة من السلالم المؤدية إلى المدخل الأمامى. ضغط بشدة على المكابح المرهقة إلى أن تباطأت الدراجة ثم توقفت بدون ثبات. نزل عن الدراجة، وهى ملكيته الوحيدة فى هذه الدنيا، وربطها بالقفل إلى أقرب سياج. صعد السلالم فى ببطء نحو مقر الشرطة، وشق طريقة خلال الأبواب الدوارة وتوجه متوتراً نحو مكتب الاستقبال. أخبر الضابط المناوب باسمه. ربما يكون قد حدث خطأ ما.

"لدى موعد مع...".

"أوه نعم". هكذا أجاب الضابط المناوب بنبرة منذرة بالشؤم، دون حاجة لأن يرجع إلى جدولته ثم أكمل قائلاً: "المأمور ينتظر أن يراك. سوف تجد مكتبه فى الطابق الرابع عشر". استدار ماليك وبدأ يسير نحو المصعد، مدركاً أن عيني الضابط المناوب لم تتحولاً عنه. ألقى ماليك بنظرة خاطفة نحو الباب الأمامى. ستكون هذه فرصته الوحيدة ليهرب، هكذا فكر بينما انفتح باب أحد المصاعد. دخل إلى المصعد المزدهم، والذي توقف عدة مرات فى رحلته البطيئة كثيرة المحطات نحو الطابق الرابع عشر. عندما بلغ الطابق الأخير، كان يتصبب عرقاً، ولم يكن السبب فى ذلك فقط الازدحام فى المكان وعدم وجود مكيف الهواء.

عندما انفتح باب المصعد أخيراً كان وحده. خطأ ماليك على الردهة الوحيدة فى المبنى المقروشة بالسجاد السميك. نظر حوله وتذكر زيارته الأخيرة للمكان. بدأ يسير ببطء نحو مكتب فى الطرف الأقصى من الردهة. كانت كلمة المأمور مطبوعة بحروف غليظة على الباب.

دق ماليك الباب بهدوء - تمنى أن يكون قد حدث شيء أكثر أهمية، جعل المأمور يغادر المكتب دون سابق إنذار. سمع صوتاً أنثوياً يدعو للدخول. فتح الباب ليرى سكرتيرة المأمور تجلس خلف مكتبها، تدق على لوحة الأزرار بهمة ونشاط، وقد توقفت عن الدق لحظة رؤيتها ل ماليك.

كل ما قالت له: "المأمور بانتظارك" ولم تبتمس أو تعبس أو يبدو عليها أى رد فعل بينما نهضت من مكانها. لعلها جاهلة بمصيره. اختفت السكرتيرة وراء باب آخر ثم عادت فى الحال تقريباً. قالت: "سوف يقابلك المأمور الآن يا سيد ماليك"، وأمست بالباب مفتوحاً قبالتها.

دخل ماليك إلى غرفة المأمور، ليجده جالساً إلى مكتبه، وعيناه تفحصان ملفاً مفتوحاً. رفع رأسه ونظر مباشرة نحوه

وقال: "اجلس يا ماليك" لم يقل راج، ولا سيد، فقط ماليك.
اندس ماليك فى مقعد مقابل الأمور. جلس فى صمت،
محاولاً ألا يبدو متوتراً بينما يراقب عقرب الدقائق فى ساعة
الحائط التى خلف المكتب يكمل دورة من دقيقة تامة.
تحدث الأمور أخيراً قائلاً: "ماليك" وهو ينظر من فوق
الأوراق الموضوعه على مكتبه: "لقد قرأت توأ تقريرك السنوى
الذى قدمه لى مشرفك".

بقى ماليك صامتاً، على الرغم من أنه شعر بقطرة كبيرة
من العرق تنزلق فوق أنفه.

عاد الأمور ينظر نحو الأسفل، قائلاً: "إنه راضى تمام
الرضا عن أدائك فى العمل، ويثنى عليك كل الثناء، وهذا
أفضل كثيراً مما كان يمكن لى أن أتوقعه عندما جلست على
هذا المقعد نفسه قبل حوالى عام من الآن". رفع الأمور رأسه
وابتسم ثم أردف قائلاً: "والحقيقة أنه يوصى بترقيتك".
قال ماليك باقتضاب: "ترقيتى؟".

"نعم، على الرغم من أن الأمر ليس بهذه السهولة، بما
أنه لا توجد الكثير من الوظائف المناسبة والمتاحة لشغلها فى
الوقت الحاضر. ومع ذلك، أعتقد أننى عثرت على وظيفة
مناسبة لمواهبك بصورة مثالية".

قال ماليك، وقد استرخى للمرة الأولى: "شكراً، شكراً لك
يا سيدى".

فتح الأمور ملفاً آخر ثم قال مبتسماً: "هناك وظيفة -
وظيفة مساعد فى مشرحة المدينة"، أخرج صفحة منفردة من
الورق وبدأ يقرأ منها.

"سوف تكون مسئوليتك أن تغسل الدماء عن الألواح
الخشبية، وأن تنظف الأرضية على الضور بعد الانتهاء من
تشريح الجثث وتخزينها. قيل لى إن الرائحة لن تكون سارة
بالمرة، لكنهم سوف يزودونك بقناع للوجه، ولا شك لى أن

المأمور

المرء يمكنه الاعتياذ على ذلك مع الوقت". واصل حديثه وهو بيتسم ناظرًا نحو مالك: "هذه الوظيفة تعد ارتقاءً إلى صف مشرف مساعد إلى جانب زيادة جيدة للراتب، كما أن فيها أيضًا مزايا أخرى لا تقتصر على أنه سيكون لديك غرفتك الخاصة أعلى المشرحة مباشرة، وهكذا لن تكون مضطراً للإقامة في بيت الإحسان الذي تعيش فيه بعد ذلك". توقف المأمور قليلاً، قبل أن يكمل: "وإذا ما واصلت الخدمة في هذه الوظيفة حتى تبلغ الستين من العمر، سوف يصرف لك معاش تقاعدي لا بأس به". أغلق المأمور ملف مالك ونظر نحوه مباشرة. سأله: "أية أسئلة؟".

فقال مالك: "سؤال واحد يا سيدي، ألا توجد أية بدائل متاحة؟".

أجاب المأمور: "بلى، هناك بديل آخر. أن تقضى ما تبقى من حياتك في السجن".



عين المحب





فيما عدا حقيقة أنهما كانا طالبين في المدرسة نفسها، لم يكن هناك أية قواسم مشتركة بين هذين الشخصين.

كان جيان لورنزو فينشى طفلاً مجتهداً منذ أول طابور صباح وقف فيه وهو في عمر الخامسة، في حين كان باولو كاستيللي ينجح دائماً في التأخر عن موعد الحضور، بطريقة أو بأخرى، وهذا أيضاً منذ أول طابور صباح يحضره.

كان جيان لورنزو يشعر بالألفة في الحصص الدراسية، وبصحبة الكتب، ولا يجد أى مشقة مع كتابة المقالات واجتياز الاختبارات؛ حيث تألق وفاق أقرانه، وقد حقق باولو النتائج المبهرة نفسها ولكن في ملعب كرة القدم، وأحرز نجاحاً في تبديل السرعة والالتفاف المخادع وفي تصويب الكرة نحو شباك الخصم ليحرز هدفاً يدهش به فريقه بجانب الفريق الخصم.

انتقل الشابان إلى مدرسة سانت سيسليا وهى من أفخر وأشهر المدارس الثانوية فى مدينة روما، وهناك أمكن لكل منهما أن يظهر مواهبه على نطاق أوسع.

عندما انتهت فترة الدراسة، تخرج كل منهما فى روما: تخرج جيان لورنزو كمعلم فى أعرق الجامعات الإيطالية، بينما تخرج باولو من أعرق نوادى كرة القدم الإيطالية كهداف. وعلى الرغم أن لكل منهما دوائره الاجتماعية ومحيطه المختلف؛ فقد كان كلاهما مطلعاً تماماً على منجزات الآخر. وبينما راح جيان لورنزو يصقل مهاراته ويحقق النجاحات فى مجال واحد وحيد، كان باولو يكلل بالفار فى معركة رياضية بعد أخرى، وكل يحقق أهدافه على طريقته الخاصة.

بعد أن غادرا الجامعة، التحق جيان لورنزو بأبيه فى جاليرى فينشى للأعمال الفنية، وانطلق فى الحال لكى ينتفع بأعوام الدراسة فى عمل شىء له طابع عملى، بما أنه كان يتمنى أن يحاكى مثال والده ويصير أكثر تجار التحف الفنية احتراماً وشهرة فى إيطاليا كلها.

فى الوقت الذى بدأ فيه جيان لورنزو تدريبيه مع والده، كان باولو قد حصل على لقب كابتن روما، محاطاً بهتاف وتملق المعجبين الذين يتعلقون حوله حيثما حل، بعد أن قاد الفريق القومى لإحراز بطولة أوروبية مجيدة. لم يكن على جيان لورنزو إلا أن يقلب الصفحات الأخيرة فى أية صحيفة، وهذا بوتيرة يومية تقريباً، لكى يتتبع مآثر زميل الدراسة القديم، وينظر على أبواب النميمة كان يعرف من آخر الجميلات التى تعلقت بذراع اللاعب الشهير: وهو اختلاف آخر بينهما.

سرعان ما أدرك جيان لورنزو أنه لكى يكتسب سمعة طيبة وطويلة المدى فى المهنة التى تخيرها عليه ألا يعتمد على إحراز هدف سريع فى لحظة إلهام غير متوقع، بل عليه أن يكرس الساعات الطوال للبحث والدرس، ويضيف إلى ذلك الحكم الفطين. كان قد ورث عن والده أهم صفتين من اللازم توافرها فى أى تاجر أعمال فنية - العين الحساسة والآنف الحساس. علم أنطونيو فينشى ولده جيان كيف ينظر - ليس هذا وحسب، بل وأين ينظر - عندما يتعلق الأمر بالبحث عن التحف الفنية الأصلية. لم يتاجر الرجل العجوز إلا فى أفضل نماذج التصوير الزيتى والنحت الخاصة بعصر النهضة، التى لا تظهر أبداً فى السوق المفتوح. فما لم تكن القطعة فريدة من نوعها، فإن أنطونيو لم يكن يغامر بسمعة متجره من أجلها. وسار الابن على نهج أبيه. لم يكن المعرض يبيع إلا ثلاث، أو أربع، لوحات فنية كل عام، لكن هذه اللوحات للفنانين الكبار كانت تصل لأسعار تقارب سعر هدف فريق روما نفسه. بعد

أن قضى الأب أنطونيو أربعين عاماً في هذا المجال، كان يعرف من يمتلك أعظم وأروع المجموعات الخاصة من القطع الفنية، ليس هذا وحسب، ولكن الأهم منه، كان يعرف مَنْ مَنْ هؤلاء على استعداد لأن يتنازل عن إحدى التحف الأصيلية، والأفضل من هذا من منهم بحاجة ماسة للقيام بهذا.

استغرق جيان لورنزو في عمله لدرجة أنه لم يعلم بخبر إصابة باولو كاستيللي التي كابدها خلال مباراة إيطاليا أمام أسبانيا في الكأس الأوربي. هذه العقبة الشخصية وضعت باولو في الصفوف الخلفية لعالم كرة القدم، وكذلك تراجعت أخباره في الصحف، وخصوصاً عندما صار واضحاً للعيان أن باولو قد انتهى تاريخ صلاحيته للبيع.

غادر باولو منصة المسرح العالمي في الحين نفسه الذي خطأ جيان لورنزو إليها؛ فقد بدأ الأخير رحلاته في أنحاء أوروبا، ممثلاً المتجر في عملية تنقيب لا تنتهي، لا يسعى فيها إلا وراء أندر النماذج الأصيلية والعبقرية، وبغرض امتلاك تحفة فنية من الممكن أن يجد شخصاً يتحمل ثمن شرائها.

كثيراً ما تساءل جيان لورنزو عما جرى لـ"باولو" منذ أن اعتزل كرة القدم ولم تعد الصحافة تتبع كل خطوة من خطواته، لكنه اكتشف ما جرى بين عشية وضحاها عندما تم الإعلان عن خطوبة باولو.

وكان اختيار باولو لنسيبه يدل على أن مآثره سوف تنتقل من الصفحات الرياضية إلى صفحات المال والاقتصاد.

كانت أنجيلينا بورتشيلي هي الابنة الوحيدة لـ"ماسيمو" بورتشيلي، صاحب نادي روما لكرة القدم ورئيس شركة يوليتوكس، أكبر شركات الصناعات الدوائية في إيطاليا. أعلن أحد العناوين الرئيسية لصحيفة من الصحف الصفراء بالخطوط العريضة: زواج اثنين من أصحاب الوزن الثقيل.



قلب جيان لورنزو الصحيفة حتى الصفحة الثالثة ليكتشف المغزى الكامن وراء تعليق مثل هذا. الزوجة المستقبلية لـ"باولو" كان طولها ست أقدام وبوصتين - وهو طول مناسب لعارضة أزياء، كما أسمعك تقول - ولكن ها هنا تنتهي المقارنة بينها وبين أى عارضة أزياء، بسبب المعلومة التى وصل إليها الصحفيون وأنهوا بها المقال، حول وزن أنجيلينا. تنوعت الآراء بين ثلاثمائة رطل وثلاثمائة وخمسين رطلاً، وفقاً لما أعلنته الصحف الصفراء والصحف العادية، كل من جانبه.

صورة واحدة تغنى عن ألف كلمة. راح جيان لورنزو يخصص أكثر من صورة لـ أنجيلينا، وأدرك أنها مناسبة تماماً لأن تكون عارضة فى لوحات روبنز الفنان القديم، بما أنه أبدي اهتماماً كبيراً بالبديئات. فى كل صورة من صور عروس باولو،

وبصرف النظر عن البراعة الظاهرة لتصميم الأزياء من ميلانو، ومصطفى الشعر من باريس، وتجار الحلى من لندن، تاهيك عن فيالق المدربين الشخصيين، ومتخصصى الحمية والممسدين، ما كان بوسع هذا كله أن يحول صورتها من فطيرة دسمة إلى فتاة الحفل الأولى. أياً كانت الزاوية التى التقطت منها الصورة، وعلى الرغم من المراعاة التى أبداها المصورون، والتى لم يبدها بعض منهم، فلم يفلحوا إلا فى أن يؤكدوا التناقض الفاحش بينها وبين خطيبها، وخصوصاً عندما كانت تقف إلى جوار بطل فريق روما السابق. ولم تجد الصحافة الإيطالية هوساً أفضل من الهوس بوزن أنجيلينا؛ فلم تأت على ذكر أى شيء آخر عنها.

انتقل جيان لورنزو إلى الصفحات الفنية، ونسى تماماً كل ما يتعلق بباولو وبعروسه المستقبلية عندما دخل إلى المعرض فى وقت تال من هذا النهار، وبعد أن فتح باب مكتبه، وتلقى تحية السكرتيرة، التى ناولته بطاقة دعوة كبيرة الحجم ومنقوشة بحروف ذهبية. ألقى جيان لورنزو نظرة على بطاقة الدعوة.

السيد ماسيمو بورتشيللى
يتشرف بدعوة السيد:

جيان لورنزو فيدئشى

لحضور حفل زفاف ابنته

أنجيلينا

على السيد باولو كاستيللى

فى فيلا بورجيزى

جيفرى آرشر

بعد ذلك بستة أسابيع انضم جيان لورنزو إلى نحو ألف مدعو آخر فى مقر فيلا بورجيزى. وسرعان ما اتضح أن السيد بورتشيللى قد عقد العزم على أن يقدم لابنته الوحيدة حفل زفاف لا يمكن لها أن تنساه أبداً، لا هى ولا أى شخص يحضره.

كان موقع الحفل يقع فى حدائق بورجيزى على أحد التلال السبعة المطلة على روما العاصمة، بأراضيها الخصيبة وقصورها البيضاء فى الخلفية، كان المشهد يليق بحكاية خرافية عن أميرة فاتنة. تَمَشَى جيان لورنزو فى أنحاء المكان، مشاهداً بإعجاب التماثيل والنافورات المنحوتة بينما يلحق ببعض من أصدقائه القدامى والحاليين، بعض منهم لم يكن رآهم منذ أيام المدرسة. قبل مراسم عقد الزواج بنحو عشرين دقيقة، ظهر بعض الخدم بزي موحد مميز ومعاطف زرقاء طويلة مزخرفة بشرائط مذهبة ويرتدون شعراً أبيض مستعاراً على الطراز الإيطالى القديم، وساروا بين الحشد الكبير. دعوا الضيوف ليأخذوا أماكنهم فى بستان الورد؛ لأن مراسم عقد الزواج على وشك أن تبدأ.

انضم جيان لورنزو إلى حشد ضخم وهم يتجهون صوب قوائم تم تثبيتها مؤخراً على مقاعد مرتفعة نصف دائرية تحيط بمنصة عالية مزخرفة ومعدة بحيث تقام عليها مراسم عقد الزواج؛ كان هذا المكان أشبه بملعب كرة القدم حيث تجرى عليه أصيل كل يوم أحد مراسم من نوع مختلف. نظر جيان بعينه الخبيرة نحو المنظر البديع المطل على روما العاصمة، وما جعل المشهد داعياً للدوار بدرجة أكبر هو عدد النساء رائعات الحسن، وقد ارتدت كل واحدة منهن ثوباً توقع جيان أنه لم يستعمل من قبل ولو مرة واحدة، ولئن يتم ارتداؤه مرة أخرى. وكانت النساء تتلقى كلمات الإطراء والإعجاب من رجال أيقين يرتدون بذلات طويلة الذيل وقمصاناً بيضاء، دون اختلاف

بينهم إلا فى ألوان رباطات العنق الطويلة والملونة التى تظهر فيهم حسن التباهى والغرور. أدار جيان لورنزو النظر فيما حوله ليكتشف أنه محاط بمجموعة من القادة السياسيين، وأباطرة الصناعة، والممثلين، وشخصيات المجتمع البارزة، جنباً إلى جنب مع كثيرين من أعضاء فريق باولو القديم.

الممثل التالى الذى ظهر على الساحة كان باولو بنفسه، مصحوباً بإشيئه. كان جيان لورنزو يعرف أنه لاعب كرة قدم شهير، لكنه لم يستطع تذكر اسمه. سار باولو على الطريق العشوشب وحتى البقعة المقابلة للمنصة، وفهم جيان لورنزو تمام الفهم السبب وراء عدم قدرة النساء على رفع أعينهن عنه. صعد باولو إلى المنصة، واتخذ مكانه منتظراً أن تنضم إليه عروسه.

بدأت أوركسترا الآلات الوترية المكونة من أربعين عازفاً فى عزف لحن الزفاف لـ مندلسون، وقد كانت شبه مخبئة بين الأشجار وراء مكان عقد الزواج. نهض ألف مدعو واقفين من مقاعدهم واستداروا لى يروا العروس بينما هى تتقدم ببطء فوق الخضرة والعشب الكثيف وذراعها فى ذراع أبيها الفخور.

قالت السيدة التى تقف قبالة جيان لورنزو: "يا له من ثوب جميل!". أوماً بالموافقة، وراح ينظر نحو أمتار الحرير الفارسي التى تجر جرت فى ذيل بديع لثوب أنجيلينا، دون أن يعبر عن الفكرة الوحيدة التى لا بد أنها قد جالت بخواطر جميع الضيوف. وعلى الرغم من ذلك فإن النظرة التى كانت على وجه أنجيلينا أبدت رضاها التام عن مظهرها. لقد كانت تسير صوب الرجل الذى تعشقه، مدركة أن نساء كثيرات من الحاضرات يتمنين لو كن فى مكانها.

بينما صعدت أنجيلينا إلى المنصة، طقطقت الألواح الخشبية. ابتسم زوجها بينما تقدم خطوات للأمام ليستقبل عروسه. واستدار الاثنان ليواجهها رجل الدين الكبير. لعل

واحدًا أو اثنين من الضيوف قد أخفق في موازنة ابتسامته السخرية عندما التفت رجل الدين نحو باولو وسأله: "هل تقبل أن تتخذ من هذه المرأة زوجة شرعية لك، وتعيش معها على السراء والضراء، وفي الرخاء والفقر...".

ما إن تم عقد الزواج بين العروسين، حتى عاد جيان لورنزو أدراجه إلى بستان الورد، ليتضم إلى ألف مدعو آخر من أجل تناول العشاء. الوليمة الكبيرة التي تلت ذلك بدأت بتناول أثمان المشروبات في العالم وأطباق الأرز المطهو بالكما، وانتهت بحلو خميرة الشوكولاتة وشاتو ديوم. بالكاد تمكن جيان لورنزو من النهوض من مكانه عندما حان وقت الاستماع إلى كلمة العريس ليرد بها على كلمة الإشيبن.

أعلن العريس قائلاً، وهو يلتفت بوجهه نحو العروس المتألقة: "إننى أسعد إنسان على وجه الأرض، لقد وجدت المرأة النموذجية بالنسبة لى، وأدرك تمامًا أننى موضع حسد كل رجل أعزب من الحاضرين الليلة" وهي عبارة لم يستطع جيان لورنزو أن يتفق معها كل الاتفاق، لكنه سرعان ما أزاح من عقله الأفكار السيئة. واصل باولو قائلاً: "وكما تعلمون كنت أول خاطب يفوز بقلب أنجيلينا. ولم يعد على بعد الآن أن أبحث عن المرأة المثالية؛ فقد عثرت عليها. أرجو أن تنهضوا وتقدموا معى تحيتكم، وأطيب تمنياتكم للعروس، أنجيلينا، ملاكى الصغير". نهض الجمع في وقت واحد وحيوا أنجيلينا، صائحين باسمها مع التصفيق والأمنيات، وصاح واحد أو اثنان: "ملاكه الصغير".

بعد انتهاء الكلمات الموجهة للجميع، بدأت فرقة أخرى بالعرزف — وكانت في هذه المرة فرقة جاءت بالطائرة خصيصًا من نيو أورليانز. سمع جيان لورنزو أن أنجيلينا قد ذكرت لأبيها الحبيب أنها تحب موسيقى الجاز.

بينما شرعت الفرقة الموسيقية فى العزف، راحت أنهار الشراب الثمين تتدفق، وأخذ الزوجان الجديان يتحركان بين ضيوفهما؛ مما أتاح لـ جيان لورنزو بلحظة خاطفة أن يقدم شكره لكل من باولو وعروسه لأنهما دعواه لهذه الليلة التى لا تنسى. قال للعروس: "ليلة مثل هذه تمحو أساطير عائلة ميدتشى بأكملها".

قال باولو مقترحًا، قبل أن ينتقل كل منهما لمجموعة أخرى من الضيوف: "لتبق على اتصال، إن أنجيلينا مفتونة بالفضون الجميلة، كما تعرف، وتفكر فى أن تبدأ بتكوين مجموعتها الفنية الخاصة بها". تلك كانت آخر كلمات سمعها جيان لورنزو، قبل أن ينتقلا إلى مائدة أخرى.

قبيل أن تطلع الشمس، ويقدم الإفطار للمدعوين، انطلق السيد والسيدة كاستيللى إلى المطار، بينما تلوح لهم ألف يد تلوحة الوداع. قادتهما السيارة خارج أراضى بورجيزى ويدا باولو على عجلة قيادة سيارته الفيرارى من أحدث الطرز؛ وهى ليست السيارة النموذجية بالنسبة لعروسه. عندما بلغا المطار قاد باولو حتى وصل عند مهبط طائرات خاص وأوقف سيارته إلى جانب طائرة خاصة من طراز لير كانت بانتظار المسافرين. غادر الزوجان الجديان السيارة الفيرارى وتركها متوقفة بالممر، وصعدا السلالم واختفيا بداخل الطائرة، طائرة الأب الحبيب. وفى غضون دقائق من ربط الأحزمة، انطلقت الطائرة إلى أكابلكو، المحطة الأولى فى شهر عسلهما الذى سيمتد إلى ثلاثة أشهر.

على الرغم من كلمات باولو لـ جيان لورنزو قبل أن يفترقا، فإنه عندما عاد الزوجان كاستيللى من شهر عسلهما لم يحاولا أى محاولة للاتصال بـ جيان لورنزو، وعلى الرغم من ذلك، كان مازال بمقدوره أن يتتبع مآثرهما ومنجزاتهما بوتيرة يومية تقريباً فى أعمدة النميمة والشائعات بالصحف القومية.

بعد ذلك بأسبوع قرأ أنهما سوف ينتقلان للعيش فى فينيسيا؛ حيث قاما بشراء فيلا من النوع الذى يحتل صورته، ليس فقط فى الصفحات الداخلية، بل أغلفة المجلات مصقولة الصفحات. افترض جيان لورنزو أنه على الأرجح لن يلتقى بزميله القديم مرة أخرى.

عندما تقاعد أنطونيو فينشى، كان سعيداً أن يسلم مسئولية أعمال العائلة إلى ابنه. وهكذا صار جيان لورنزو المالك الجديد لجاليرى فينشى، وبعدها صار يمضى نصف وقته مرتحلاً فى أنحاء أوروبا بحثاً عن تلك اللوحات الزيتية النادرة التى تجعل جامعى التحف تتقطع أنفاسهم من الإعجاب، دون أن يهينوا التاجر بأى اقتراحات للمساومة حول الثمن.

كانت إحدى تلك الرحلات إلى فينيسيا، ليرى عملاً من أعمال كاناتيلو الذى تملكه كونتيسة بالما - وهى سيدة نبيلة، طلقت من زوجها الثالث، وللأسف فقدت جاذبيتها التى تكفل لها زوجاً رابعاً، فقررت أن تضترق عن واحد أو اثنين من كنوزها الفنية. كان شرط الكونتيسة الوحيد هو ألا يكتشف أحد أنها تواجه مصاعب مالية مؤقتة. كان كل تاجر تحف فنية بأوروبا يعلم بأمر ديونها المتراكمة وحساباتها الائتمانية غير المدفوعة. وكان جيان لورنزو ممتناً كل الامتنان أن الكونتيسة قد اختارته هو لتطلعه على خصوصياتها التى لا يعرفها أحد.

أخذ جيان لورنزو وقته الكافى ليدرس المجموعة الفنية المعتبرة للكونتيسة، وتوصل لحقيقة أنها كانت تملك نظرة عين خبيرة فى الفن، كما فى الرجال. بعد أن اتفقا حول ثمن تمثال كاناتيلو، أعرب عن أمله أن تكون هذه الصفقة بداية علاقة مثمرة وطويلة.

فقال الكونتيسة، وهى تمد يدها لتأخذ الشيك من جيان لورنزو: "دعنا نبدأ العلاقة بعشاء فى مقهى هاريز

يا عزيزى".

كان جيان لورنزو يحاول أن يختار ما بين قهوة الأفوجاتو وقهوة الإسبرسو، عندما دخل باولو وأنجيلينا إلى هاريز تتبعهما كل الأنظار، بينما كبير الندل يقودهما بنعومة وأناقة إلى مائدة فى الركن.

همست الكونتيسة: "والآن ها قد حضر شخص ما يمكنه أن يتحمل شراء مجموعتى الفنية بأكملها".

وافقها جيان لورنزو قائلاً: "بلا شك، ولكن بكل أسف فإن باولو غير مهتم إلا بجمع السيارات النادرة والغريبة".

قاطعتها الكونتيسة قائلة: "والنساء اللاتى يتسمن بنفس تلك الصفات أيضاً".

"لست متأكداً مما تحب أنجيلينا أن تجمعها".

قالت الكونتيسة: "بضعة أرطال كل عام، لقد أنت لتناول الشاى ذات مرة معى أنا وزوجى الثانى وقد كادت أن تأكل البيت بما فيه ومن فيه. عندما غادرت كان بسكوييت الشاى قد نفذ من منزلنا بالفعل".

قال جيان لورنزو: "حسناً، لنحاول أن نعوض ذلك الليلة، ما رأيك فى تناول حلوى الزاباجليونى، لقد قيل لى إنه طبقهم المفضل هنا؟".

لم تبتد الكونتيسة أى اهتمام بحلوى الزاباجليونى، وأكملت نيميتهما بكل بساطة، متجاهلة تلميح رفيقها على المائدة قائلة: "أيمكنك أن تتخيل هذين الاثنين واقعين حقاً فى حب بعضهما البعض؟".

اندهش جيان لورنزو من أن الكونتيسة كانت قادرة على طرح سؤال كثيراً ما خطر بذهنه لكنه لم يشعر أبداً بقدرته على التعبير عنه. الأسوأ من ذلك أنها واصلت الحديث لتصرح بأمور، تفتقر للحياء، لم يسبق لها أن خطرت ببال جيان لورنزو.

كان جيان لورنزو يستحى من مجرد تخيل ما تقوله له الكونتيسة، وحاول من جديد أن يغير موضوع الحديث. "لقد كنت أنا وهو فى المدرسة الثانوية معاً، تعرفين أن المدرسة والتعليم شيء لا يطيقه الرياضيون".

"على المرء أن يكون رياضياً حتى يتمكن من إرضاء كوم اللحم هذا".

أضاف قائلاً: "وقد حضرت زفافهما، كانت مناسبة ليس من السهل نسيانها، رغم أنى أشك فى أنه بعد كل هذا الوقت يستطيع حتى أن يتذكر أنتى كنت واحداً من المدعويين".

"هل تجد فى نفسك حقاً الاستعداد لأن تمضى ما تبقى من حياتك متزوجاً من هذا المخلوق، بصرف النظر عن مقدار المال الذى يمكنها أن تقدمه لك؟" هكذا سألته الكونتيسة، دون أن تولي انتباهاً بكلمات مضيفها.

قال جيان لورنزو: "إنه يزعم أنه يعشقها، ويدعوها ملاك الصغير".

"فى تلك الحالة، فإننى لا يمكننى تخيل فكرته عن الملاك الضخم".

قال جيان لورنزو: "ولكن إن لم يكن يشعر بهذا، فبوسعه أن يطلقها".

قالت الكونتيسة: "غير ممكن بالمرّة، لا بد أنك لم تسمع عن اتفاقهما المالى الذى سبق الزواج".

أقر جيان لورنزو، فى محاولة ألا يبدو مهتماً: "كلا، لم أسمع".

قالت: "إن رأى والدها فى لاعب الكرة المطرود من الملعب هذا هو نفس رأىى فيه. وقد جعله العجوز بورتشيلى يوقع على اتفاق ينص على أنه إذا طلق ابنته لن يحصل على خردلة، كما أن باولو أرغم على التوقيع على وثيقة أخرى يضر فيها بأنه لن يفشى أبداً مضمون هذا الاتفاق لأى شخص، بمن فيهم

أنجيلينا".

فتساءل جيان لورنزو فوراً: "إذن فكيف نما هذا إلى علمك".

"عندما تكون لديك خبرة سابقة بالعديد من اتفاقيات ما قبل الزواج - كما لدى أنا يا عزيزي - فإنك تسمع بتلك الأمور من مصادر موثوق بها".

ضحك جيان لورنزو وطلب الفاتورة.

ابتسم كبير النادل، وقال: "لقد تم دفع الحساب بالفعل يا سيدى" ثم أوماً ناحية باولو: "دفعه زميلك القديم فى المدرسة".

قال جيان لورنزو: "كم هو لطيف منه".

ذكرته الكونتيسة قائلة: "بل كم هو لطيف منها؛ فهى نقودها".

قال جيان لورنزو: "اسمحي لى رجاء بدقيقة واحدة. فلا بد أن أشكرهم وحسب قبل أن أغادر". نهض من مكانه، واتجه ببطء عبر الغرفة المزدحمة.

نهض باولو، قبل أن يصل جيان لورنزو إلى مائدتهما بوقت طويل، ثم قال له: "كيف حالك؟ تعرف طبعاً ملاكى الصغير"، والتفت مبتسماً نحو زوجته: "ولكن كيف يمكنك أن تنساها؟".

ألقى جيان لورنزو التحية على أنجيلينا.

"لا يمكننى أن أنسى حفل زواجكما المشهود الرائع".

قالت أنجيلينا: "ليلة مثل هذه تمحو أساطير عائلة ميدتشى بأكملها".

انحنى جيان لورنزو انحناءة صغيرة فى اعتراف بالتقدير.

سأله باولو: "هل تتناول عشاءك مع كونتيسة بالما، أليست هى؟ لأنه لو كان الأمر كذلك، فإنها تمتلك شيئاً ترغب فيه

جيفرى آرشر

ملاكى الصغير". ثم يعلق جيان لورنزو. "كم أتمنى يا جيان لورنزو أن تكون عميلة عندك وليست واحدة من أصدقائك؛ لأنه عندما ترغب ملاكى الصغير فى شىء ما لن يمتنعى أى شىء عن الحصول عليه من أجلها". مازال جيان لورنزو يتحلى بحكمة الصمت؛ فهو لم ينس أبداً أن والده قال له ذات مرة: ليس هناك من يعقد صفقات بالمطاعم إلا نادل المطعم، عندما يقدم الفاتورة للزبائن. واصل باولو كلامه قائلاً: "ولأنه مجال عمل مجهول تماماً بالنسبة لى، وأنت معروف بأثك واحد من أبرز خبراء بلدنا فيه؛ فلعلك تكون من الطيبة بحيث تكون ممثلاً لآنجيلينا فى هذه المسألة".

قال جيان لورنزو، بينما كان يضع رئيس الندل حلوى الشوكولاتة أمام زوجة باولو، إلى جانب سلطانية من كريم فراشيه: "سيكون هذا من دواعى سرورى".
قال باولو: "ممتاز، لنكن على اتصال".



ابتسم جيان لورنزو وصافح صديقه القديم. إنه مازال يتذكر جيداً المرة الأخيرة التي قدم فيها باولو هذا العرض له، ولكن مع ذلك هناك من الأشخاص من يقدمون هذه الاقتراحات كأنها نوع من الحديث المهدب. التقت جيان لورنزو نحو أنجيلينا، وسلم عليها وقبل يدها، وانحنى قليلاً قبل أن يسير عائداً عبر موائد المطعم ليتضم من جديد إلى الكونتيسة.

قال جيان لورنزو، وهو ينظر إلى ساعته: "أخشى أنه حان وقت ذهابنا، وخاصة أنه على أن أستقل أول طائرة إلى روما في الصباح".

سألته الكونتيسة: وهي تنهض من مكانها: "هل نجحت في بيع تمثال كاناتيلو الخاص بي لصديقك القديم؟"
أجاب جيان لورنزو: "كلا" وهو يلوح باتجاه مائدة باولو:
"ولكنه اقترح أن نبقى على اتصال".
"وهل ستتصل به؟"

أقر جيان لورنزو قائلاً: "قد يكون هذا صعباً قليلاً؛ لأنه لم يعطنى رقمه، وأشك في أنه بإمكان المرء العثور على رقم السيد والسيدة كاستيللي بدليل الهاتف".

أخذت جيان لورنزو أول طائرة إلى روما في الصباح التالي. وكان من المفترض أن يتبعه تمثال كاناتيلو بإيقاع أكثر تمهلاً. وما إن وضع قدمه في الجاليري حتى خرجت سكرتيرته من المكتب قائلة بسرعة: "لقد اتصل باولو كاستيللي مرتين هذا الصباح، وقد اعتذر عن عدم إعطائك رقم هاتفه"، وأضافت: "وتساءل إن كنت ستتكرم وتتصل به، ما إن تصل إلى هنا".

سار جيان بهدوء إلى غرفة المكتب، وجلس إلى مكتبه وهذا. ثم تناول الرقم الذي وضعت السكرتيرة أمامه. أجاب رئيس الخدم على الهاتف أولاً، والذي حول المتصل إلى السكرتيرة،

قبل أن يتحدث أخيراً إلى باولو.

بدأ باولو الحديث قائلاً: "بعد أن غادرتنا مساء أمس لم نتحدث ملاكى الصغير عن أى شىء آخر؛ فهى لم تنس أبداً زيارتها إلى منزل الكونتيسة؛ حيث رأت لأول مرة مجموعتها الفنية الرائعة. وتساءلت إن كان سيب لقائك بها بالأمس هو...".

قال جيان لورنزو: "لا أظن أنه سيكون من الحكمة أن نناقش هذه المسألة على الهاتف؛ فقد علمه أبوه أيضاً أنه نادراً ما يبرم تاجر محترم اتفاقاً على الهاتف، ولكن لا بد أن يجرى هذا وجهاً لوجه، على الدوام تقريباً. على المرء أن يسمح للعميل أن يرى اللوحة، ثم تدعه يعلقها على جدار فى منزله لبضعة أيام؛ حتى تأتى اللحظة الحاسمة عندما يعتبر المشتري أن اللوحة صارت ملكه بالفعل، ولا يجب أن يبدأ التاجر التفاوض حول السعر قبل تلك اللحظة.

قال باولو بنبرة جادة: "إذن سيكون عليك أن ترجع إلى فينيسيا، وسوف أرسل لك الطائفة الخاصة".

طار جيان إلى فينيسيا يوم الجمعة التالية. كان بانتظاره سيارة رولزرويس؛ لتأخذه إلى فيلا روزا.

قدم رئيس الخدم التحية لـ جيان لورنزو عند الباب الأمامى قبل أن يقوده عبر سلالم رخامية هائلة إلى جناح الغرف الخاصة والذي كانت كل جدرانها عارية تماماً وهو ما يداعب أحلام وطموحات كل تاجر أعمال فنية. كان جيان لورنزو يتذكر المجموعة الفنية لـ أنجيلينا التى جمعها والده على مدار ثلاثين عاماً، والتي تعد حالياً إحدى أهم وأفخر الأعمال الفنية.

أمضى جيان لورنزو معظم نهار السبت ما بين الوجبات وأنجيلينا تقوده فى أنحاء مائة واثنتين وأربعين غرفة من غرف فيلا روزا. سرعان ما اكتشف عن مضيفته أكثر كثيراً

عين المحب

مما كان يتوقعه.

لقد أبدت أنجيلينا اهتماماً صادقاً برغبتها فى أن تبدأ بجمع مجموعتها الفنية الخاصة، وكان من الواضح أنها قد زارت جميع المعارض الفنية الكبرى فى أنحاء العالم. استنتج جيان لورنزو أنها لا تفتقد إلا ما يكفى من الشجاعة لتتصرف من تلقاء نفسها بناء على قناعتها الخاصة - وهى مشكلة متوقعة لدى الابنة الوحيدة لثرى عصامى - رغم أنها لا تعوزها المعرفة الفنية ولا الذوق الرفيع. شعر بالذنب لأنه صدق افتراضات مسبقة عنها لا تعتمد إلا على الأعمدة التى طالعها فى الصحافة. وجد جيان لورنزو نفسه يستمتع بصحبة أنجيلينا، بل وبدأ يتساءل عما وجدته تلك المرأة الخجولة وثاقبة النظر فى باولو.

خلال تناول العشاء فى تلك الليلة، لم تغب عن ملاحظة جيان نظرة العشق والوله فى عينيها كلما نظرت إلى زوجها، حتى إنها نادراً ما قاطعته عندما يتحدث.

وعلى الإفطار فى الصباح التالى، لم تكذ أنجيلينا تنطق بكلمة. كان باولو هو من اقترح أن ترافق زوجته ضيفهما فى الأراضى والبساتين المحيطة بالمنزل، وفى تلك اللحظة عادت الحيوية مرة أخرى إلى أنجيلينا.

رافقت أنجيلينا جيان خلال مساحة ستين فدناً تقريباً من البساتين المزودة بقطع فنية مثبتة بها، أو بالأكشاك الصغيرة التى يرتاح بها المتجولون لتهدئة عيونهم من نور الشمس. وكلما اقترح جيان لورنزو اتجاهًا ما كانت تستجيب له بحماسة وعلى استعداد تام لأن تقاد، مادام سوف يأخذ بيدها.

على العشاء فى تلك الليلة، كان باولو هو من أكد رغبة ملاكه الصغير فى تكوين مجموعة عظيمة من الأعمال الفنية فى ذكرى والدها الراحل.

تساءل باولو: "ولكن من أين نبدأ؟" وهو يمد يده خلال المائدة ليمسك بيد زوجته.
اقتراح جيان لورنزو قائلاً: "ربما نبدأ بشيء من أعمال كاناتيلو؟".

قضى جيان لورنزو الأعوام الخمسة التالية يتنقل ما بين روما وفينيسيا، وواصل الحصول على اللوحات من الكونتيسة؛ كى يعلقها فى فيلا روزا. ومع ظهور كل درة فنية جديدة كانت شهية أنجيلينا لا تصبح إلا أكثر اشتياقاً للمزيد. وجد جيان لورنزو نفسه يسافر إلى مسافات أبعد، حتى أمريكا، وروسيا، وحتى كولومبيا؛ حتى يتمكن من إشباع نهم "ملاك باولو الصغير"، وبدا أنها قد استقر عزمها على أن تتفوق على الملكة كاترين الأولى فى حبها لجمع التحف الفنية.

كانت أنجيلينا تصير أسيرة كل قطعة فنية أصلية يضعها أمامها جيان لورنزو - كاناتيلو، كارافاجيو، تينتورتو، بيليني، ودافنشى كانوا من بين فناني إيطاليا. بدأ جيان لورنزو يملأ الأماكن الفارغة على جدران الفيلا، ليس هذا وحسب ولكنه أيضاً جلب تماثيل موضوعة فى أقصاص مجهزة ومرسلة من كل ركن فى العالم، من أجل وضعها إلى جانب تماثيل مهاجرة أخرى فى الحديقة الشاسعة - تماثيل لكل من مور، وبرانكيوزى، وميرو، وجياكوميتى، وبوتيرو، صاحب التخصص فى تصوير ونحت البدناء، وهو المفضل لدى أنجيلينا.

ومع كل صفقة جديدة كانت تقوم بها، كان يهدىها جيان لورنزو كتاباً عن الفنان. وكانت أنجيلينا تلتهم تلك الكتب فى جلسة واحدة وتطالب بالمزيد على الفور. كان على جيان لورنزو أن يعترف بأنها صارت أهم عملاء المعرض، ليس هذا وحسب بل أيضاً تلميذته الأكثر توهجاً بالحماس والنجابة - وما بدا على أنه نزوة حب مع تماثيل كاناتيلو تحول بسرعة كبيرة إلى

عين المحب

علاقة غرامية عميقة مع جميع كبار الفنانين في أوروبا. وكانت مسئولية جيان لورنزو أن يزودها باستمرار بعشاقها الجدد، وهو أمر تقاسمته أنجيلينا مع الملكة كاترين الأولى.

كان جيان لورنزو يزور عميلاً في برشلونة، كان يعرض للبيع لوحة ثمينة لـ موريلو؛ وذلك لأسباب تتعلق بالضرائب، عندما تناهت إليه الأتباء، كان يعتقد أن الثمن المطلوب للوحة مرتفعاً أكثر من اللازم، على الرغم من أنه يعرف أن أنجيلينا ستكون مستعدة لدفعه. كان في قلب عملية المساومة عندما اتصلت به سكرتيرته، وأخذ جيان لورنزو أول طائرة متاحة عائداً إلى روما.



نشرت كل الصحف، وبعضها بأدق التفاصيل، خبر وفاة أنجيلينا كاستيللي. أزمة قلبية عنيفة انتابتها بينما كانت في حديقته تحاول تحريك أحد التماثيل من مكان إلى آخر.

الصحف الصفراء لم تكن مستعدة لأن تحزن على السيدة النبيلة ولو ليوم واحد، ومضت لتخبر قراءها فى الفقرة الثانية مباشرة من الخبر بأن السيدة قد أورثت زوجها كل ثروتها، ونشروا مع الموضوع صورة باولو مبتسماً وسعيداً، لابد أنها التقطت قبل الوفاة بوقت طويل.

طار جيان لورنزو الى فينيسيا بعد ذلك بأربعة أيام ليحضر الجنازة.

كانت دار العبادة الصغيرة وسط حدائق فيلا روزا ممتلئة عن آخرها بأفراد عائلة أنجيلينا وأصدقائها، بعض منهم لم يرههم جيان لورنزو منذ حفل الزفاف الخرافى، أى قبل ذلك بنحو جيل.

عندما جاء حاملو النعش إلى دار العبادة، ووضعوه بكل رفق أمام المبنى، انهار باولو وشرع يبكى. بعد انتهاء المراسم، قدم جيان لورنزو خالص عزائه، وأكد باولو له أنه كان واحداً ممن أسهموا فى إثراء حياة أنجيلينا مما لا يمكن مكافأته بأى شكل، وواصل قائلاً إنه ينتوى أن يكمل المجموعة الفنية تخليداً لذكراها. شرح قائلاً: " فهو الشيء الذى كانت ملاكى الصغير ترغب فيه بشدة، وهكذا لابد أن يتم".

ولم يعد باولو للاتصال به منذ ذلك الحين.

كان جيان لورنزو على وشك أن يضع ملعقته فى برطمان المربى - وهى عادة أخرى كان ورثها عن أبيه - عندما رأى عنوان الصحيفة. بقيت الملعقة مغروسة فى المربى بينما راح هو يقرأ الخبر للمرة الثانية. كان يريد أن يتأكد من أنه لم يسيء فهم العنوان الرئيسى. عاد باولو ليحتل الصفحة الأولى، معلناً وقوعه فى الحب من النظرة الأولى - اقلب حتى صفحة ٢٢ لمزيد من التفاصيل".

وبسرعة قلب جيان لورنزو الصفحات حتى وصل إلى العمود الذى نادراً ما تجشم عناء قراءته، "أخبار مجتمع روما؛ نحن نقدم لك الحقيقة الكامنة وراء الشائعات" باولو كاستيللى، الكابتن السابق لفريق روما، وتاسع أثرى الشخصيات فى إيطاليا، بصدد أن يتزوج من جديد، دون أن تمر سوى أربعة أعوام على وفاة ملاكه الصغير. وأعلن العنوان: "هناك ما هو أكثر من مجرد المظهر الخارجى"، ومضت الصحيفة لتؤكد لقرائها أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض أكبر مما بين الزوجتين، الأولى والثانية، فإن أنجيلينا كانت صاحبة بلايين، بينما جينا نادلة تبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً من نابولى، وابنة مفتش ضرائب.

ضحك جيان لورنزو ضحكة صغيرة عندما رأى صورة جينا، مدركاً أن كثيرين من أصدقاء باولو لن يتمكنوا من منع أنفسهم من مضايقته والسخرية منه.

وفى كل صباح كان جيان لورنزو يجد نفسه يقلب الصفحات للوصول إلى عمود "أخبار مجتمع روما"، على أمل أن يعرف بعض الأنباء السارة حول الزواج الوشيك. بدا أن الزواج سيتم عقده فى دار عبادة فيلا روزا، والتي لا تكفى مساحتها إلا لمائتين من المدعوين لا غير، لذا ستكون الدعوة قاصرة على أقرب الأصدقاء وأفراد العائلة المباشرين. لم تعد العروس قادرة على مغادرة بيتها الصغير دون أن يطاردها فيلق من المصورين، وكما أعلنت الصحيفة فإن العريس عاد للتردد على صالة الألعاب الرياضية، على أمل أن يفقد بضعة أرطال قبل أن يجرى الزفاف، لكن المفاجأة الكبرى بالنسبة لـ جيان لورنزو جاءت عندما أعلنت الصحيفة لقرائها - خيراً حصرياً - بأن السيد جيان لورنزو، تاجر القطع الفنية المعروف فى روما، وزميل الدراسة للعريس باولو، سوف يكون بين المدعوين المحظوظين.

ووصلته دعوة الزفاف بالبريد فى الصباح التالى.

طار جيان لورنزو الى فينيسيا فى المساء السابق للمراسم ونزل
بفندق سيبريانى. قرر أنه من الحكمة أن يتناول وجبة خفيفة
وأن ينام مبكراً، عندما تذكر أحداث الزواج السابق.

نهض جيان لورنزو مبكراً وأخذ وقته الكافى ليرتدى
ملابسه من أجل الحفل؛ ورغم هذا فقد وصل إلى فيلا روزا
قبل موعد بدء المراسم بوقت طويل. رغب فى أن يتمشى بين
التمائيل التى توزعت فى الفناء، وأن يرى من جديد بعض
أصدقائه القدامى. ابتسم له تمثال دوناتيلو، وبدا تمثال
مور متفاخراً وملكياً، وأضحكه تمثال ميرو، وانتصب تمثال
جياكوميتى طويلاً ونحيفاً، ولكن ظلت النافورة التى تتوسط
الفناء هى قطعتة المفضلة؛ فقبل عشرة أعوام، كان عليه أن
ينقل كل قطعة منها، حجراً بعد آخر، وتمثالاً صغيراً وراء آخر،
من باحة ريفية فى ميلانو، أما تمثال الصياد الهارب لبيلىنى
فقد بدا أكثر تلاءماً مع كل ما يحيط به. كم أسعده أن يرى
عدداً من الضيوف الآخرين الذين وصلوا باكراً، وفى نفوسهم
رغبته نفسها كما هو واضح.

ظهر حاجب واحد بحلة سوداء سار وسط الضيوف ليدعوهم
للذهاب إلى دار العبادة؛ لأن المراسم سوف تبدأ بعد قليل. كان
جيان لورنزو واحداً من بين أول من لبوا دعوة الحاجب؛ لأنه
أراد أن يجلس فى مكان جيد يسمح له بأن يشاهد العروس وهى
تدخل.

وجد جيان لورنزو مقعداً خالياً فى الصفوف الوسطى
بحيث يتيح له رؤية غير مشوشة للمراسم. كان بوسعه أن
يرى الفرقة الموسيقية الصغيرة فى أكشاكها المخصصة لها،
وقد بدأوا بالفعل يعزفون مقطوعة مسائية مصحوبة برباعى
وترى.

عين المحب

قبل الثالثة بخمس دقائق دخل دار العبادة باولو واشيبينه وسارا بيضاء بين المقاعد. كان الإشبين، كما يعرف جيان لورنزو، لاعباً مشهوراً لكرة القدم، غير أنه مازال لا يمكنه أن يعرف اسمه. اتخذ الاثنان موضعيهما إلى جانب المنصة، في حين انتظر باولو ظهور العروس الشابة. بدا باولو في حالة بدنية لائقة، كان رشيماً وتعلو بشرته سمرة محببة، ولاحظ جيان لورنزو أن النساء مازالت تحديق نحوه بنظرات والهة. لم يلحظهن باولو ولم تغادر وجهه الابتسامة الماكرة التي تشبه ابتسامة القط الشرير في كتاب لويس كارول " أليس في بلاد العجائب".

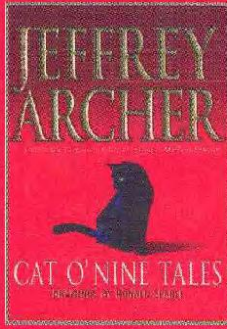
كان هناك جو من التوقع والانتظار عندما توقف العزف الوتري، وبدأ عزف لحن الزفاف المميز لاستقبال دخول العروس. سارت الشابة بيضاء بين صفوف المقاعد وذراعها في ذراع والدها، وكانت تتنفس بهدوء بينما تمر بكل صف جديد.

كان بوسع جيان لورنزو أن يسمع صوت اقترابها؛ لذا فقد التفت ليرى جينا للمرة الأولى. بماذا كان سيجيب لو سأله شخص لم يحضر الزفاف عنها وطلب منه أن يصفها له؟ هل عليه أن يصف له شعرها الأسود الكثيف والطويل والجميل، أم على الأرجح يعلق حول بشرتها الناعمة الخمرية، أو حتى يضيف ملاحظة ما حول ثوب زفافها المميز والذي يذكره تمام التذكرك؟ أم أن جيان لورنزو سوف يقول لجميع هؤلاء المتسائلين إن سبب إعلان باولو عن حبه لها من النظرة الأولى قد اتضح كالشمس. كانت لها الابتسامة الخجولة نفسها التي كانت لآنجيلينا، ونفس الغمازات المشرقة حول عينيها، والرقعة نفسها التي بدت جلية لكل من له عينان، أم أن الصحفيين، كما يظن جيان، سوف يكتفون بالقول إن العروس الجديدة لم تكن بحاجة لأن تعدل من ثوب زفاف آنجيلينا بأي درجة؛ لأنها ملأته تماماً - أمتار وأمتار من الحرير الفارسي

جيفرى آرشر

تجر جرت من وراء العروس، بينما كانت تسير ببطء نحو
محبها المخلص!

النهاية



«جيفري آرشر» هو كاتب تصدّرت مؤلفاته قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. استغل هذا الكاتب الفترة التي قضاها سجيناً في إبداع مجموعة من الأعمال الأدبية الفريدة. وفي الاثنتي عشرة قصة التي تضمها مجموعته القصصية الخامسة هذه. تتجلى سماته الأدبية البديعة.. حيث التركيز والدقة اللذين يميز بهما أدب «آرشر» قادران دوماً على إمتاع القارئ. ففي قصصه لا يفلت المجرم دائماً بجرمه. ولا تكون سيادة العدالة حتمية، ولكن في كل الحالات يكون القارئ هو الرابع الوحيد.

بينما كان «جيفري آرشر» سجيناً على مدى عامين، متنقلاً بين خمسة سجون مختلفة. التقط أفكاراً عدة لقصص قصيرة. وتتنوع تلك القصص ما بين حكاية «الرجل الذي سرق مكتب بريده» إلى قصة رجل أعمال كبير يحاول أن يسمم زوجته خلال رحلتها إلى سانت بطرسبرج. مما يتمخض عنه في الحالتين عواقب غير متوقعة. وفي قصة أخرى، ينتهي الأمر بصاحب المطعم الإيطالي ماريو إلى السجن. لأنه لم يستطع أن يفسّر لرجال الضرائب كيف تسنى له أن يمتلك يختاً وسيارة هيراري ومنزلاً في فلورنسا. في حين أن دخله المعلن سنوياً لا يزيد على سبعين ألفاً من الجنيهات.

Jacket design©www.blacksheep-uk.com
Cat©Alamy

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore... ليست مجرد مكتبة...

